



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة المستنصرية

كلية العلوم السياسية

# المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

## في هذا العدد

### - صراع الحضارات والرؤية العربية

أ.د. ناظم عبد الواحد الجاسور

### - حقوق الإنسان بين مبادئ الإسلام وسلوك الدول الغربية

أ.د. سعيد مجيد دحدوح

### - الاعلام الاسلامي.. وتعديات المستقبل في ظل النظام الدولي الجديد

أ.م.د. عبد الامير محسن جبار

### - النظرية الانتعادية والاتجاهات الحديثة منها

أ.م.د. قطان احمد سليمان الحمداني

### - المشاركة السياسية.. منظور تنموي

م.د. علي عباس مراد

### - تأثير القدرة النووية الإيرانية على الترتيبات الأمنية الإقليمية

د. عزيز جبر شلال

## العروض

### - الربونية السياسية في المجتمع العربي

م.م. نصر دحام الشاوي





وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الجامعة المستنصرية

كلية العلوم السياسية

## المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية

خريف ٢٠٠٦

العدد الخامس

السنة الثانية

أ.د. ناظم عبد الواحد الجاسور

عيد الكلية - المشرف العام

رئيس التحرير ..... أ.م.د. عبد الأمير محسن جبار

سكرتير التحرير ..... م.م. علاء جبار

المدير الفني ..... السيد ماجد قاسم نعمان

### هيئة التحرير

الأستاذ الدكتور نور يوسف حميدان

الأستاذ الدكتور سعيد حميد حميد

الأستاذ المساعد الدكتور وائل محمد اسماعيل

الأستاذ المساعد الدكتور حبيب محمد الفادر الفاي

الأستاذ المساعد الدكتور نور لطيف كريم محمد

الأستاذ المساعد الدكتور حميد نجل النطاوي

ISSN = 1991-8984

رقم الإيداع

في المكتبة الوطنية

٨١٠ في ١٨ كانون الثاني ٢٠٠٥

## المجلة السياسية والدولية

مجلة علمية فصلية محكمة تصدرها كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

### الهيئة الاستشارية



الأستاذ الدكتور احمد يوسف احمد

عميد معهد الدراسات والبحوث العربية- للجامعة العربية-القاهرة

الأستاذ الدكتور رياض عزيز هادي

عميد كلية العلوم السياسية -جامعة بغداد

الأستاذ الدكتور ماهر عبد العال الضبع

جامعة المنوفية - مصر

الأستاذ الدكتور احمد عبد الرحيم الخلايلة

رئيس مركز المستقبل للدراسات الاستراتيجية -عمان-الاردن

الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

امين عام اتحاد المؤرخين العرب

الأستاذ الدكتور محمد جواد علي

مركز الدراسات الدولية-جامعة بغداد

الأستاذ الدكتور جعفر عباس حميدي

استاذ التاريخ العراقي المعاصر-جامعة بغداد

الأستاذ المساعد الدكتور ثامر كامل محمد

مديرية البحث والتطوير-وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-بغداد



## قواعد النشر

ترحب المجلة السياسية والدولية والتي تصدرها كلية العلوم السياسية في الجامعة المستنصرية بإسهامات الكتاب والمفكرين من الكليات في الجامعات العراقية والعربية والمتخصصة بالقضايا السياسية والعلاقات العربية-العربية-العربية-الدولية، مع الاهتمام بشكل خاص بما يتعلق بالمشروع السياسي والحضاري والنهضوي العربي وتحيطكم علماً بشروط النشر فيها:

1. ان تعالج القضايا بأسلوب علمي موثق.
2. ان يكون التوثيق بذكر المصادر والمراجع بأسلوب أكاديمي، يتضمن الكتب والمجلات.
3. معيار النشر هو الموضوعية والدقة ودرجة التوثيق.
4. ترسل البحوث بنسختين مع قرص مرن.
5. ان لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن اربعة عشر صفحة A4.
6. يشترط ان لا تكون البحوث او الدراسات قد نشرت في مجلات اخرى.
7. تخضع البحوث او الدراسات للمرسلة الى التحكيم العلمي من جانب الهيئة الاستشارية في المجلة.
8. تحتفظ المجلة بحقها في نشر المادة المجازة وفق خطة التحرير.
9. لا تدفع المجلة او الكلية أي مكافآت مالية عما تقبله من النشر فيها ويعتبر النشر إسهاماً معنوياً من الكاتب.

**د.الدرء الزوردة في البحوث والدراسات المنشورة بالعدد ٢٠٢٠**

**رؤي الزوردة**

الاشتراك في المجلة تراجع كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية

بغداد- باب المعظم - صندوق بريد ٤٦١٥٩

هاتف ٠٧٩.١٩٢٣١٥٤ ، ٤١٤.٨٥٢ ، ٤١٤.٨٥١

البريد الإلكتروني : [Psc.Mustainsiriyah@yahoo.com](mailto:Psc.Mustainsiriyah@yahoo.com)







رقم الصفحة

اسم المادة

المتاحية العدد

- ١ صراع الحضارات والرؤية العربية
- أ. د. ناظم عبد الواحد الجاسور ١٧
- ١٧ حقوق الإنسان بين مبادئ الإسلام وسلوك الدول العربية
- أ. د. سعيد محمد دحدوح ٣٢
- ٣٢ الاعلام الاسلامي.. وتحديات المستقبل في "ظل النظام الدولي الجديد"
- أ. م. د. عبد الأمير محسن جبار ٤٩
- ٤٩ النظرية الاتحادية والاتجاهات الحديثة فيها
- أ. م. د. فهد طه احمد سليمان الحمداني ٦٥
- ٦٥ المشاركة السياسية.. منظور تنموي
- م. د. علي عباس مراد ٨٥
- ٨٥ تأثير القدرة النووية الايرانية على الترتيبات الامنية الاقليمية
- د. مرشد احمد السيد ١٠٣
- ١٠٣ الحصار البحري ضد سوريا ١٩٠٢-١٩٠٣ دراسة وثائقية في العلاقات البريطانية-الاميركية
- أ. د. فهد طه احمد سليمان الحمداني ١٢٧
- ١٢٧ الفكر الفلسفي عند الصوفيين "الكلمة اغودجا"
- د. ياسين حسين الويسي ١٤٣
- ١٤٣ البطل "دراسة في تاريخ المفهوم فلسفياً"
- م. م. صباح حودي نصيف ١٦٣
- ١٦٣ اثر الكسجيرية في السياسة الاميركية الحديثة تجاه دول الاريك ١٩٧٣-١٩٧٧ م
- م. م. رعد لاسم صالح ١٩٧
- ١٩٧ عرض كتاب: التوازن العسكري ٢٠٠٤-٢٠٠٥
- عرض: م. م. سهيلة عبد الاليس ٢٠١
- ٢٠١ عرض كتاب: الزبونية السياسية في المجتمع العربي
- عرض: م. م. نصر دحام الشاوي

كلية العلوم السياسية  
الجامعة المستنصرية



المجلة  
السياسية  
والدولية

5

خريف ٢٠٠٦

ISSN  
1991-8984



## الافتتاحية

واذ نضع العدد الخامس بين يدي القارئ العزيز، تكون كليتنا قد انطلقت في عامها الدراسي الثاني مؤكدة، رغم الظروف الحرجة، على استمرارية عطاءها العلمي والاكاديمي، وذلك في تقديم وعرض بأسلوب علمي وموضوعي ما يستجد من احداث وقضايا تتطلب التحليل المنهجي لمقدماتها ونتائجها، وتأثير ذلك على الاوضاع السياسية والاجتماعية، الامنية ليس في العراق وحده، وانما في نطاقها الاقليمي والدولي، حيث الترابط والتشابك، وكذلك للتشابه بين المصالح والمخاطر المحدقة بعالم اليوم، الى درجة لا يمكن ان تتفرد اية دولة، مهما امتلكته من عناصر القوة، ان تتصدى للتهديدات والمشاكل المستجدة كل يوم، الامر الذي يتطلب التعاون وتضافر الجهود على اساس الحوار البناء المفضي الى ارساء القواعد المشتركة للحلول الشاملة الجذرية، ونبذ الافكار الممبقة والنظرة الاستعلائية في التعامل، والطروحات غير الواقعية المفترضة لصراعات وهمية لم تكن معشعة الا في العقول الغربية بغية تبرير سياسات ومشاريع معدة للهيمنة والسيطرة. وبناء على ذلك، فقد كرس هذا العدد لتناول جملة من المواضيع التي تعتبر التساؤلات العديدة حول ما يجري حولنا، وخصوصاً عن صراع الحضارات والرؤية العربية لهذه المقولة التي ما زال النقاش دائر حولها، في الوقت الذي استمر فيه الطرح عن المشاركة السياسية من منظور تنموي باعتبار ان حلها لا يشكل فقط مفتاحاً للتخلص من التخلف، وانما طريقاً نحو الامن والاستقرار. كما خصصت المجلة موضوعاً لتناول النظرية الاتحانية حيث نظرية الاتحاد الفيدرالي، ونظرية الاتحاد الكونفدرالي، ونظرية الاتحاد المختلط تسرعى الانتباه في البحث والمناقشة انسياجاً مع ما يجري على ارض الواقع السياسي العراقي، والاقليمي

الذي لنشغل منذ فترة وما يزال بالملف النووي الإيراني وتأثيراته التي امتدت خارج المحيط لترمي بثقلها على الوضع الدولي، وهو ما دفع المجلة ان تركز دراسة لتناول تأثير القدرة النووية الإيرانية على الترتيبات الإقليمية، اضافة الى المواضيع الاخرى ذات الطابع الفلسفي والتي ما زال الجدل قائماً حولها، حيث الفكر الفلسفي عند الصوفيين دراسة في مفهوم البطل. كما افردت المجلة حقلاً ثابتاً لعروض الكتب الحديثة التي يمكن ان تقدم للقارئ ما هو جديد في دور النشر...

والله الموفق.....

المشرف العام

الأستاذ الدكتور

فاطم عبد الواحد الجاسور

عميد كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية

## صراع الحضارات والرؤية العربية

الاستاذ الدكتور

ناظم عبد الواحد الجاسور<sup>(٩)</sup>

### مقدمة:

لم يعض على صدور مجلة فورين افيرز الامريكية وهي تحمل بين صفحاتها مقالة صموئيل هنتنغتون حول صراع الحضارات، حتى بدأت الردود العربية تصدر في صفحات هذه المجلة او تلك، وعقدت لذلك العديد من الندوات والحلقات النقاشية التي كان محورها دحض كل الفرضيات و"التنبؤات" التي اطلقها لترويج الافكار والطروحات التي حفلت بها "صراع الحضارات". ومن خلال عدم امتناع هذه الدراسة بكل ما نشر وكتب، فاننا سنقتصر على تناول عدد منها، يساعدا في تسليط الضوء على الرؤية العربية حول ما طرحه هنتنغتون، مع الاشارة للاطلاع اكثر للمصادر الاخرى التي كرست لهذا الغرض.

### "وظائفية الخطاب الاستراتيجي الامريكي"

يؤكد وجيه كوثراني في رده الذي جاء تحت عنوان: صدام الحضارات ام ادارة لزمات؟ ان هنتنغتون في الوقت الذي يعترف بالحضارة الإسلامية طرفاً في الصراع العالمي، فانه يدحض نظرية "نهاية تاريخ" التي طرحها فرانسيس فوكوياما، حيث كان محورها انتصار الليبرالية كنهاية لصراع الايديولوجيات في العالم. ويشير كوثراني ان صدام الحضارات هي الدعوة الى نمط من التعايش مع نوع من الازمات في العالم مرشحة لان نتفقم ونتوهم<sup>(١)</sup>.

ويضيف كوثراني بأنه بين مقالة امريكية تبشر بنهاية التاريخ ومقالة اخرى امريكية ايضا تقول ان التاريخ لم ينته، اقل من سنتين، وفي الحالتين نلاحظ ان ثمة ضجيجاً اعلامياً، وان ثمة استنباعاً فكرياً ومنهجياً تفرضه مراكز التفكير الاستراتيجي في العالم على التفكير المحلي في اطراف العالم. وهذا "الفرض" او التوجيه الاعلامي يأتي من اجل التفكير في وظائفية الخطاب الاستراتيجي الامريكي وعندما يراد لهذا الخطاب ان يكون حدثاً مركزياً او خطاباً محورياً لادارة النقاش العالمي وتوجيهه<sup>(٢)</sup>.

<sup>(٩)</sup> عميد كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

<sup>(١)</sup> صدام الحضارات، ملف خاص، مجلة شؤون الاوسط، العدد ٢٠١/١٠٤، ص ١٩.

<sup>(٢)</sup> المصدر نفسه، ص ٩٢.

ويؤكد بأن الغرب حاول اقتحام الشرق الاسلامي بكل الادوات والاساليب ومنها الثقافية الا انه وجدت ونمت في العالم الاسلامي اشكال الممانعة ذات الابعاد التاريخية والاجتماعية والثقافية. ويتساءل كوثراني هل ان هذه "الممانعة" تسمى صداماً في الحضارات؟<sup>(٣)</sup>

ويضيف كوثراني ان عناصر الصدام التي يعددها هنتغون لبيني عليها فرضيته لا تتدرج في نمق ومفهوم الحضارات، انها تعبير عن ازمة نظام عالمي يمر في "النقطة للحرجة" التي نجعل منه على حد ما يقوله الباحث الفرنسي الاستراتيجي بيار لولوش Pierre Lelliche "قوضى الأمم".

وان ما يقترحه هنتغون بصيغة الدعوة الى تعايش الحضارات واحتواء اسباب انفجارها هو نوع من سياسة "ادارة الازمات" في "كوكب الفقراء الذي تتفجر فيه الديمغرافية والثقافات (التي يمتزج فيها الديني والسياسي). ولما عن دور مقالته (الجديدة-القديم) فان كوثراني يصفها، بانها نوع من ادارة النقاش الفكري والثقافي ومحورية حول "مركز الخطاب الاستراتيجي" الامريكي، انه نوع من "ادارة الازمة" من باب الفكر والثقافة<sup>(٤)</sup>.

وفي الدراسة التي اسهم فيها الدكتور غسان سلامة في الرد على اطروحات صدام الحضارات، والتي جاءت تحت عنوان "الاسلام والغرب"، فانه انطلق من ان خبراء الاستراتيجية الغربيون عكفوا بعد انتهاء الحرب الباردة لتحديد عدو جديد للغرب، ولم يجدوا أي صعوبة في ان الاسلام، في الوقت الذي لم يتوفر لدى هؤلاء الخبراء الا معرفة ضئيلة عن الاسلام من "انه نظام قديم شديد المثالية يدفعه في ذلك جزئياً للنفور من الوضع الدولي الراهن"<sup>(٥)</sup>. ومن خلال استعراضه للادعاءات الحالية للانظمة السياسية العربية التي حصلت على استقلالها من السيطرة الاستعمارية وما واجهته من مشاكل سياسية في اطار التنمية والديمقراطية الامر الذي ادى الى بروز تأثيرات سلبية على ادها الخارجي، وضعفها، او هزائمها امام العدو الصهيوني، مما يعزز من مكانة بعض التيارات والحركات السياسية الاسلامية التي مثلت البديل لفشل هذه الانظمة "القومية" و"الليبرالية"، مما افضى الى ظهور "تحدي اسلامي" برز في السودان، والجزائر، ومصر، ووقفت مع العراق خلال حرب ١٩٩١، ووجدت في ايران الدعم الكافي، وكانت افغانستان المساحة التي كشفت عن قدرة "الاسلاميين" عن الفوز بحرب ضد قوة توسعية خارجية. واستخلص الاسلاميون، وحسب ما يؤكد

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(٤) المصدر نفسه، ص ١٠١.

(٥) غسان سلامة، الاسلام والغرب، بحث منشور في كتاب صموئيل هنتغون "الاسلام والغرب، افاق الصدام"، ترجمة مجدي شرشر، مصدر سبق ذكره، ص ٩٩-١٠٠.

سلامة، نوعاً جديداً من الدروس من فصول الرواية الجزائرية في أنه: عليكم الانتقوا في الانظمة المحلية او الحكومات الغربية عن دعوتها لاجراء لانتخابات ديمقراطية<sup>(٦)</sup>. ان "تعار القمع" ضد التيارات القومية والليبرالية والماركسية التي مارستها الانظمة السياسية العربية اوجدت فراغاً سياسياً فكرياً، لفصح المجال "للاسلاميين" ان ينزلوا الساحة لتحدي الانظمة والقوة الغربية المتحالفة معها. ومن جانبه يبدو الغرب وقد اصابه "التحدي الاسلامي" بالضيق الكامل كما هو حال حكومات الدول الاسلامية، الا نفاق الغرب وازدواجية معاييرهِ جعلته في حالة تخبط وقصر النظر.

ومن هنا، فان الدكتور غسان سلامة، ومن اجل ان تخرج للحكومات الغربية من نفاقها، وتحدد مخرج واقعي، يجب عليها ان تسعى لمعرفة من هي الجماعات الاسلامية، وماذا تفعل، ولا يمكن تحقيق ذلك اذا ما ظلت وجهات نظر الغرب تجاه التحدي الاسلامي تتبع فقط من منظور التهديد الامني. فغالبية ما ينظر الى الجماعات الاسلامية مجتمعة باعتبارها تمثل تهديداً واحداً للمصالح الغربية. كما انه يجب على الغرب ان يعي ان نموذجهِ الخاص بالدولة القومية العلمانية ليس نموذجاً عالمياً كما يفترض بل وربما كانت الاشكال الاخرى للمنظمات السياسية اشكالا شرعية وحتى لو كان العالم من الناحية الاستراتيجية قد اصبح عالماً غير متعدد الاقطاب، فانه لايزال متعدد الاقطاب في المجال الثقافي. وغالباً ما تمت معاملة الانتصار الغربي في الحرب الباردة (كما يدعي فوكوياما) بشكل خاطئ بلانتصار النماذج السياسية والثقافية الغربية<sup>(٧)</sup>.

ويضيف الدكتور سلامة بأن "التهجم الغربي على الاسلام والنماذج السلبية للمسلمين في وسائل الاعلام تثبت في اذهان المسلمين الوهم الجنوبي بوجود مؤامرة غربية مزعومة للقضاء على الاسلام. ثم ان بعض الغربيين الذين ينصبون انفسهم خبراء (امثال برنارد لويس، هنتغون...) يخدمون من حيث لا يعلمون مصالح اشد الاسلاميين تطرفاً عن طريق اسرافهم في الحديث عن تفرد الاسلام"<sup>(٨)</sup>. ويؤكد الدكتور سلامة بأنه ليس بوسع الحكومات الغربية الادعاء بأن معيارها الاخلاقي يفوق معيار القوى المناهضة للغرب، وحكوماته، وانتقائية بالفعل في اختيار الاعداء وكذلك في قرارات الامم المتحدة التي ترغب في تطبيقها، وفي السياسة التي تنتهجها ضد القضايا العربية وهي السياسات غير المنصفة تجاه الصراع العربي-الصهيوني، وتدخلاته العسكرية في المنطقة، حيث ان هذه التدخلات ينظرون اليها في الغرب باعتبارها نتاجاً لمصالح استراتيجية متنوعة الجندى العسكرية والنواحي الموضوعية، لكن بالنسبة

(٦) المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(٧) المصدر نفسه، ص ١١٩-١٢٠.

(٨) المصدر نفسه، ص ١٢١.

للمسلمين فعلى أفضل الاحوال ليست الا تطبيقاً لتقليد قديم بأزدواجية المعايير<sup>(٩)</sup>. وعلى ضوء ذلك، فإنه يجب على الغرب ان لا يفاجأ بعودة ظهور الكراهية الإسلامية للتدخل، وهذه الكراهية، وحسب رأي الدكتور غسان سلامة سوف، تتحول الى "تحدٍ امني ضد الغرب"<sup>(١٠)</sup> وفي الندوة التي عقدها معهد الشرق الأوسط للحضارة العربية في باريس، والتي نشرت مجلة المستقبل العربي اعمالها في عدد كانون الاول/ ديسمبر/ ١٩٩٨، تحت عنوان: صراع الحضارات لم تعد ثقافات؟، فقد اشارت رباب لحسيني في بداية ادارتها للندوة بأن هناك مقولات عديدة ظهرت في الشارع الفكري والسياسي، كمقولة "النظام الدولي الجديد" وكذلك مقولة "نهاية التاريخ" لفرانسيس فوكوياما التي كان لها نصيب من الرواج بفضل قوة اجهزة الاعلام والترويج العربية، ثم لم تلبث ان تلقت ما تستحقه من النقد والدحض، شأنها شأن مقولة هنتون حول صراع الحضارات، وفيها يبنأ بأن القرن القادم سوف يحكم الصراع بين الحضارات، وهو قائم على الاختلافات الثقافية والدينية والعرقية. وتلك المقولة تبدو محدوديته في عدم قدرتها على تفسير الصراعات بين الدول الاوروبية التي تنتمي الى الحضارة المسيحية الغربية، وكذلك في عدم قدرتها على تفسير الصراعات بين الصين واليابان، ظل الحضارة البوذية والكونفوشوسية<sup>(١١)</sup>.

لقد شدد المفكر العربي محمود امين العالم على ان صموئيل هنتون وهو يتحدث عن صدام الحضارات، فان مفهوم الحضارات لديه، مفهوم ثقافي خالص بل ديني خالص.. المسيحية هنا والاسلام والكونفوشوسية هناك، ومن خلال استعراضه للعلاقة المفاهيمية بين الحضارة والثقافة، وكيفية تشكل ظاهرة العولمة، وهي نتيجة للطابع التوسعي لنمط الانتاج الرأسمالي، في الوقت الذي تبرز فيه الهيمنة من كونها نابعة من الطابع التنافسي للنمط الرأسمالي، حيث احتكمت صراعات المصالح التجارية بين الدول الرأسمالية حول الاسواق العالمية، والامر الذي ادى من جهة ثانية الى تفجر الاختلافات والتميزات والخصوصيات والهويات القومية والعرقية والدينية والثقافية، ويحتكم للصراع في ما بينها، وبينها وبين الهيمنة الرأسمالية. وعلى ضوء ذلك فليس هناك الا حضارة واحدة ذات نمط رأسمالي، وهيمنة لبعض البلاد الرأسمالية الكبرى على هذه الحضارة العالمية، وفي اطار هذه العولمة والهيمنة تحتل صراعات المصالح التجارية والاقتصادية اساساً، وهناك صراع الهويات والخصوصيات وبين الهيمنة الرأسمالية. وخلاصة القول حسب ما يؤكد المفكر العالم، وهو انه ليس ثمة صراع

(٩) المصدر نفسه، ص ١٢٧.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٨.

(١١) صراع الحضارات لم تعد ثقافات؟، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٢٣٨، ١٩٩٨، ص ٧٦-٧٧.



حضارات في عالمنا في اطار هذه العولمة الحضارية الرأسمالية، فليس هناك صراع حضاري بين امريكا واليابان رغم اختلافهما الحضاري الكامل تاريخياً، بل يوجد صراع تجاري حاد..وليس هناك صراع حضاري بين امريكا واوربا، وليس هناك صراع حضاري بين امريكا وليبيا او بين امريكا وايران او بينها وبين أي دولة أخرى من دول العالم، وان اتخذ هذا الصراع مظهراً قومياً او دينياً او إيديولوجياً.. ان الصراع هو صراع مصالح اقتصادية اساساً من اجل المزيد من التوسع والسيطرة ونحل ازمتها الاقتصادية، وطمس الخصوصيات القومية والوطنية والثقافية في البلاد النامية وتوظيفها لخدمة مصالحها<sup>(١٢)</sup>.

وفي مداخلة السيد ياسين في هذه الندوة، فإنه بعد ان يقوم بالتتبع التاريخي الموجز للحوار بين الحضارات، وعن الحوار بين الحضارات ما بعد الحداثة، وعن الكونية والعلاقات المتعددة الاطراف واحياء القومية، يتساءل هل هناك صراع بين الحضارات؟ ويجيب السيد ياسين بأن سقوط الشيوعية واختفاء الاتحاد السوفيتي اجبر الولايات المتحدة على خلق "عدو جديد" الامر الذي ادى الى ظهور مفهوم الحروب الثقافية، ويشير الى انه في مقالته تحت عنوان "الدفاع عن الغرب" ذكر كاتبها ان الحل امام الغرب هو شن الحروب الثقافية وتكلم عن الاسلام وكان قبل هنتغون بربع سنوات. ويشدد في ذلك بأن هنتغون هو المقتن لما نسميه تيار العنصرية الجديدة في الثقافة الغربية. قمة فكر هذا التيار هو اختلاف الصراع بين الحضارات..وان الاسلام مرشح لكي يكون هو العدو الاول او الكنفوشيوسية. ويضيف بأن القضية لا تتعلق بالصراع المفتعل وانما تتعلق بالمعركة المقبلة حول انشاء قيم جديدة لنظام عالمي جديد<sup>(١٣)</sup>.

### "سقوط الصراعات التاريخية":

وبهذا الصدد فإن عبد النبي اصطيف يرى بأن كتاب صدام الحضارات بما ينطوي عليه من تكريس لمناخ الصراع والمجابهة بين الامم والشعوب ولاسيما تلك التي يرى فيها خطراً على "النموذج الغربي" المزعوم يثير تساؤلات واشكالات لا نهاية لها، تشير جميعها الى جوانب مختلفة من الخلل الذي بات يعتوره التفكير الغربي في تكميره لعالمنا المعاصر. ويضيف بأن هذا الوضع القائم وضع مثالي بالنسبة للغرب لانه يكفل له الحفاظ على الهيمنة على مقررات العالم، بل الكون، من خلال "النظام العالمي الجديد"، الذي هو بحق- نوع منطور جداً من الامبريالية الجديدة ذات الجدوى الاقتصادية الواضحة. ومن اجل المحافظة عليه لابد من ترسيخ فكرة تميز الغرب عن

(12) المصدر نفسه، ص ٧٨-٧٩.

(13) المصدر نفسه، ص ٨٥-٨٦.

سائر العالم، وبالتالي تسويغ هيمنته وموقعه وأفعاله فيه. ولابد كذلك من افتعال صراع مع أي مصدر خطر يمكن أن يشكل في تميز هذا الغرب أو في تفوقه. وما دام الخطر العسكري قد زال بزوال الاتحاد السوفييتي ودول الكتلة الشرقية التي انضوى معظمها الآن تحت لواء حلف شمال الأطلسي، وما دام الخطر الاقتصادي المتمثل بالنموذج الآسيوية قد تم احتواءه، فلا بد من التفكير بخطر آخر، وليكن هذا الخطر هو الخطر الحضاري المتمثل بالحضارات الأخرى التي تحمل قيماً أخرى متباينة لقيم ما يسمى بالحضارة الغربية، وليكن العصر القادم عصر (صدام الحضارات)<sup>(١٤)</sup>.

ويعتقد استاذ الفلسفة في جامعة دمشق الدكتور طيب تيزيني بأن أطروحة (صراع الحضارات) بقدر ما أثارت سجالات واسعة وظهرت آراء تنقدها بوصفها "وهماً" أو بمثابة "نتائج كبيرة لأفكار ووسائل استقراء هزيلة، ومقتبساً نصاً كتبته الأستاذ خالد القسطيني في صحيفة الشرق الأوسط (١٢٣ شباط ١٩٩٥) الذي أكد فيه بأنه (قلما وجدت بحثاً وأهياً يفنر إلى العلم كما وجده في أطروحة صدام الحضارات)، فإن هذه (الأطروحة) تربطها صلة عميقة مع العولمة وما بعد الحداثة، وفي الإشارة إلى الإسلام والكونفوشوسية فإن هنتونغون اختزل الحضارة إلى دين، ونظر إلى هذا الدين بمثابة إشارة signal إلى عرق أو سلالة، وهذا يؤدي، وحسب رأي تيزيني، إلى إلغاء التاريخ بوصفه سياقاً مفتوحاً، وهذا من شأنه أن يدخلنا في حقل هوية لا تاريخية أو ميتاتاريخية من طرف، وعاجزة في حال صراعها مع هوية أخرى من نمطها، عن تحقيق نمو مثمر مفتوح من طرف آخر. ويضيف تيزيني في معرض نقده أن لقاء مقولة "صراع الحضارات" مع منظومة "ما بعد الحداثة"<sup>(١٥)</sup> تتضح احتمالاته، والحال كذلك مع عملية انبعاث الهويات الانثوية، مع تأويل الحضارات على أساس اثني مغلق، وفي ضوء الاعتقاد بأن نمط التعايش فيما بينها يقوم على الصراع وحدة الاضطراب وحده. وبالتالي فإن هذا التحليل يفضي إلى أن مقالة هنتونغون تلقي مع جان فرانسوا ليونارد في بحثه ما معنى الحداثة. ففي الحالتين كليهما، تواجه رفضاً لمفهوم التقدم والانساق أو "الانماط" الشكلية<sup>(١٦)</sup>.

ويؤكد الدكتور تيزيني أن أطروحة "صراع الحضارات" وإن اكتسب على يد هنتونغون طابعاً محدداً بمعطيات العولمة الجديدة، فإنها كانت ذات حضور ما في الفكر

(١٤) عبد النبي مصطفى، نقد "صراع الحضارات"، مجلة الآداب السورية/ دمشق العدد ٣٠-٣١ آذار نيسان/ ٢٠٠٠ ص ٦.

(١٥) طيب تيزيني، نقد "صراع الحضارات" و"ما بعد الحداثة"، مجلة الآداب السورية عدد ٣٠ و٣١، ص ٩-١٠.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١١.

البرجوازي. وقد افصح هذا الحضور عن نفسه بأحد أوجهه ذات الخصوصية البالغة الحساسية على صعيد الصراع العربي-الصهيوني. فلقد كانت المقولة التي أطلقها نور السادات تمهيداً لزيارته إلى إسرائيل، وهي: "إن لنا أن نكسر الجدار النفسي بيننا وبين إسرائيل" تعبيراً مكثفاً عن وجهي الأطروحة الهنتغونية المتلازمين: سقوط الصراعات التاريخية وما تستتبعه من بدائل تاريخية على مستوى النظام الاجتماعي الاقتصادي وبرز الصراعات "الحضارية" المفهومية اثناً طائفاً مذهبياً الخ.. وفي هذه الحال، يفقد الصراع العربي-الصهيوني بنيته التاريخية (القائمة على مصالح عظمى تتصل بالوجود) ليتحول إلى صراع ملتبس "حضارياً" أي دينياً ثقافياً يمكن رفعه وتجاوزه إذا ما تمت مكاشفة حميمية بين الفريقين<sup>(١٧)</sup>.

يشير الأستاذ برهان غليون في دراسته "أصل التفاهم بين الأجناس" في إطار نقد "صراع الحضارات" و"حوار الحضارات"، إلى أن الاعتراف بالتعددية الثقافية كذلك حوار الثقافات مسألة حتمية أو ضرورية. فالعلاقات بين الثقافات هي انعكاس للعلاقات بين المجتمعات. ذلك أن الثقافة ليست هي التي تحاول بل للمجتمعات - من ضمنها الأفراد المهتمون بالحوار أو المسؤولون عن شؤون الجماعة - والعلاقة الطبيعية بين متعددين هي بالضرورة علاقة صراع وتواصل معاً: صراع مع الآخر الغريب، وتواصل مع القريب. فلا قرابة من دون صراع بين الآخر، ولا صراع من دون هوية تبني حدود الذات والقريب والصديق. وموضوع الصراع بين الثقافات أو بين الجماعات في الميدان الثقافي، وهو السيطرة على للرسمال الرمزي الذي يشكل رصيد كل ثقافة، أو هو التثقف الذي يستدعي السيطرة على مواقع استراتيجية في شبكة العلاقات والموارد الثقافية العالية.

وعلى ضوء ذلك، فإن غليون يميز ما بين هذا الصراع الذي طرحه، والصراع الهنتغوني، حيث يؤكد بأن مفهوم هذا الأخير الذي يربط الصراع بين الثقافات وبين الحروب أو الصدام العام بين الجماعات فتجعل فرضية هنتغون من الاختلاف الثقافي أو التعدد الثقافي المصدر الأول للنزاعات والحروب العالمية. ويشير برهان غليون بأنه حسب نظرية هنتغون، مرت البشرية عبر التاريخ بعدة أنماط من الصراع. النمط الأول عبرت عنه الحروب الدينية، ثم جاءت الحروب القومية بين الأمم المستقلة. ثم عرف الحرب العنصرية التي طبعت حقبة الحرب الباردة. والآن نحن ندخل حقبة يأخذ فيها الصراع بين البشر شكل الحرب بين أتساق ثقافة مختلفة. وهكذا ينبغي أن ننتظر عهداً تتواجه فيه، حتى الموت، حضارات كبيرة وقوية وعلمية. ومن الطبيعي أن لا يكون لمثل هذه الحرب أي مخرج سوى لتفصير حضارة على أخرى،

وفرض قيمها ومنظوراتها على الحضارات الخاسرة او المنكسرة. وفي هذه الحالة يصبح التعصب والانغلاق الثقافي والتمسك بالخصوصية الحضارية شرط النجاح في المواجهات القادمة<sup>(١٨)</sup>.

وبناء على ذلك، من خلال هذا الصراع الذي تطرحه فرضية هنتنغتون، فإن المطلوب في هذا الصراع هو تعيين الثقافة-الحضارة التي سوف تفرض نموذجها على غيرها، وتتحكم من ثم بمصير الحضارة الانسانية. ومن هنا، فإن صراع الحضارات لا يمكن ان يعني، وحسب ما يؤكد غليون، سوى حرب الهوية، والحروب على الهوية، وذلك من خلال النقاء العديد من الاستراتيجيات التي تماهي بين الصراعات الثقافية والصراعات الاقتصادية والسياسية<sup>(١٩)</sup>.

وعلى هذا الاساس، فإن هناك استراتيجية القوى الاشد محافظة في النظام الدولي القائم، وهي التي تريد ان تطمس تناقضات هذا النظام، والدمار الشامل الذي يثيره في كل مكان، وردود الفعل الهمجية التي تصدر عن جماعات همشت واختلعت عن كل اطار مادي او معنوي ودخلت في حروب ذاتية لا نهاية لها. وهي تريد ان تطمس تناقضات ذلك النظام وتردد المسؤولية عنه بابرار المصدر الثقافي لهذه الحروب المنمرة، أي المصدر (الطبيعي) للذي لا يمكن لاحد ان يكون مسؤولاً عنه سوى (التاريخ)<sup>(٢٠)</sup>.

ويؤكد برهان غليون في اطار تشييده لاسس الحوار الحضاري بدلاً من الصراع، هو ان التقارب الحضاري او الثقافي الذي يطمح اليه الحوار سوف لا يؤدي الى انتهاء احتمالات الحرب، ثقافية كانت او غير ثقافية. والدليل على ذلك ان معظم الحروب والنزاعات التي يعرفها العالم اليوم هي حروب داخلية تنشأ وتتطور في حضن جماعات تجمعها ثقافة واحدة، ولغة واحدة، ومرجعيات واحدة، وان اختلفت انتماءاتها القبلية او السياسية او الدينية. ولقد اندلعت اكبر الحروب التاريخية، وهي تلك الحروب التي تسميها حروباً عالمية، بين مجتمعات غربية تدعى اليوم انها ثقافة واحدة وانها تنظم في نسق حضاري مشترك يقف في مواجهة الانساق الحضارية الاخرى. ان الاختلاف الثقافي ليس هو الذي ينشأ للنزاع، رغم ان من الممكن استغلاله احياناً بقوة ونجاح لتأجيج النزاع عندما يصبح حتماً او راهناً لاسباب اخرى هي في معظم الاحيان غير ثقافية، بل بسبب للنزوع الى الهيمنة الثقافية من قبل ثقافة على اخرى،

(١٨) برهان غليون، نقد "صراع الحضارات" و"حوار الحضارات-١" في اصل التفاهم بين الاجناس،

مجلة الاداب السورية، العدد ٣، نيسان/ ٢٠٠٠، ص ٤٥.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٤٦.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٦.

وفي هذه الحالة يكون الصراع الثقافي جزءاً من مشروع اوسع للهيمنة الاستراتيجية<sup>(٢١)</sup>.

ولكن الاستاذ احمد برقايوي يطرح المسألة من زاوية اخرى، وهو زيف السؤال اساساً حول الاشكالية الثنائية بين حوار الحضارات ام صراع الحضارات، لينطلق في عنوان دراسة: لا حوار بين الحضارات ولا صراع ليصل الى نشأة فكرة "صراع الحضارات". واذا كان قد نفي الحوار والصراع على منطق العلاقة بين الحضارات، فإنه يؤكد بأن سؤال العلاقة بين الحضارات سؤال تاريخي. والسؤال التاريخي لا ينبع الا من واقع سيرورة التاريخ. اذن ما منطق العلاقة بين الحضارات؟ ومن هنا، وحسب رايه يتطلب العودة الى تاريخ العلاقة، أي الى الاستقرار للوصول الى حكم عام او قانوني. وقيل ان يجيب عن سؤله يطرح السؤال بصيغته الزائفة: "حوار ام صراع؟" فالواقع ان الاساس الذي استدعى ظهور السؤال زائفاً هو العلاقة بين الغالب والمغلوب، بل ان خطاب الحضارة السائد الان يعكس هذه العلاقة. فالغرب المنتمي الى الحضارة العالمية المتفوقة-بمعنى عالمية انتشارها-ماسور في ذا الوضع من الغلبة. وذلك ان حضارته انتجت وعياً بالتفوق، وصارت من زاوية وعيه هذا معيار التقدم الحضاري. وهكذا غدا الجزئي كلياً، وصار التقدم التقني والديمقراطية ونمط الحياة الرأسمالية معياراً يقيس عليه الاخر. وبناء على هذا فإن وعي الغرب التاريخي بالعالم المعيشي هو وعي بعالمين متناقضين، وبحضارتين مختلفتين. وبفعل العداء الذي يكنه العربي او الشرقي بعامه، للاوروبي يوصف هذا غالباً مهيمناً، فان الاوروبي لم ير في علاقته بالاخر الا علاقة تناقض وصراع. ومن هنا نشأت فكرة "صراع الحضارات" لديه<sup>(٢٢)</sup>.

فالفكرة الاساسية التي تتطوي خلف خطاب صاحب فكرة "صراع الحضارات" كما يراها برقايوي، هو ان وعي هنتغون بالحضارات بوصفها متصارعة، وشبيه بوعي بعض الاسلاميين المعاصرين، باعتبار حضارة الغرب هي اساساً حضارة العداء للإسلام. وبناء على ذلك فإن فكرة هنتغون تنحصر في انتصار الحضارة الاوروبية بما هي نظرة الى العالم، ولتصورت معها اشكال التقدم المتعددة التي تتمتع بها، ولا يمكن اعادة لتأجها في اية حضارة اخرى. لذا ان روح الحضارة الاوروبية خاصة بالاوروبيين وحدهم. هذه الحضارة الاوروبية لكي تحافظ على روحها، يجب ان تسيج نفسها بنوع من القوة العسكرية لانها تولجه حضارات اخرى تتاصبها العداء<sup>٢٣</sup>.

(21) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(22) احمد برقايوي، لا حوار بين الحضارات ولا صراع، مجلة الاداب السورية، العدد ٣، آذار-نيسان ٢٠٠٠، ص ٥٤-٥٥.

(23) المصدر نفسه، ص ٥٥.

ويعتقد برقاوي ان فكرة "نهاية التاريخ" لا تختلف في الجوهر عن فكرة صراع الحضارات ذلك ان الاوروبي في مستوى تطوره الراهن هو نهاية التاريخ العالمي. أي ان غايتة التاريخ قد وصلت الى منتهائها مع انتصار الاوروبي في الحداثة والديمقراطية. كما وجدت اكتمالها في النموذج الامريكي. وعلى جميع الحضارات الغارقة في وحل التاريخ ان تتحرر من تناقضاتها الطبقية والعرقية والثقافية ان هي ارايت ان تعيد انتاج المثال الاوروبي النهائي.

### "الحدود الدموية"

وفي رده على طروحات هنتغون حول "صراع الحضارات"، فإن الأستاذ رضوان زيادة تناول هذه المسألة من ناحية النفي-الظاهرة، حيث ان متغيرات مطلع عقد التسعينات تركت اثارها على المستوى الفكري وتحديداً على صعيد العلاقات الدولية، التي باتت من الملح التفكير جدياً في تغيير قولها النظرية ومصطلحاتها البائدة والمتقادمة. لقد حصل فراغ فكري في فترة ما بعد الحرب الباردة، وسقوط نظرية الاقطاب، الامر الذي افضى الى ظهور اراء صاصات لنظريات تحاول تفسير المعطيات القائمة وتكفي بدلوها في قراءة المستقبل وفق هدى الرقعة التي رسمتها والاحجار التي تعينها. وما يقدمه هنتغون، وحسب رضوان زيادة، هو احد السيناريوهات الغربية المقدمة لتفسير الوضع القائم في عالم ما بعد الحرب الباردة، والقائم على الصراع الحتمي بين المركز والاطراف. وضمن هذا الجو المشحون يصب هنتغون النار فوق الزيت ويقدم نظريته المحتملة لتتحول الى ظاهرة<sup>(24)</sup>.

وهذه "الظاهرة" التي عزفت على وتر حساس لدى الحضارات جميعها تحولت الى كتاب اراد منه ان يحوي بين دفتاه "نظرية كبرى" تمتلك قدرة سحرية على التفسير وتثير في الوقت نفسه اسئلة لا تنتهي. اذ عد بأنه "يمثل تفسير لتطور السياسة الكونية بعد الحرب الباردة كما يطمح ان يقدم اطار عمل او نموذج لرؤية السياسة العالمية"<sup>(25)</sup>. ويؤكد زيادة بأنه على الرغم من ان الفرضيات التي قدمها هنتغون والتي تحولت الى مسلمات لا تعدو ان تكون احياء لافكار قد رسخها توينبي، الا انها معه ستأخذ ابعاداً اخرى مختلفة، ولم يقف عند الحدود التي قدمها توينبي من التاريخ قائم على اساس الحضارات وليس على اساس الدول، وان الذي يعتبر معياراً أساسياً في هذا التصنيف، لم يتخذ لهجة مشددة ضد الحضارة الاسلامية. وان الدين بالنسبة لهنتغون عامل اصيل وثابت وغير متحول مهما اختلفت الوجوه التي يظهر بها، وانه

(24) رضوان زيادة، صراع الحضارات هلجس وخطاب النفي، مجلة شؤون الاوسط، العدد ١٠٤،

خريف ٢٠٠١، ص ٢١٤-٢١٥.

(25) نقلاً عن المصدر نفسه، ص ٢١٧.

يستمتع كثيراً بترداد المفكر السياسي الفرنسي ريجي دوبريه: "ليس الدين أفيون الشعوب وإنما فيتامين الضعفاء" (٢٦).

ويشدد هنتنغتون على الإسلام الذي يمثل خطراً على الغرب، واشد الخصوم ضراوة. فإنه يرى "ليست الأصولية هي المشكلة المهمة بالنسبة إلى الغرب بل الإسلام، فهو حضارة مختلفة، شعبها مقتنع بتفوق ثقافته وماجسه ضالة قوته"، مضيفاً أن "لإسلام حدوداً نموياً" (٢٧).

ويؤكد رضوان زيادة بأنه من الضروري للتصدي النقدي لهذه "الاقتراضات" و"النظريات"، ليس لأن مكاننا في النظرية هو خط المواجهة الأول فحسب، وإنما لأن استشراف مستقبل هذا العالم يخصنا ويضعنا في موضع المسؤولية كما غيرنا لأننا شركاء في المستقبل الذي يجب أن يصنعه الجميع. وعلى أساس هذا الإدراك فإن فرضية هنتنغتون في الصدام بين الحضارات أو نبوءته، تخفي في داخلها فقراً فلسفياً واضحاً يبرز أولاً رفضه فصل الثقافة عن الحضارة، واعتباره أن الثقافة هي للفكرة العامة في كل تعريف للحضارة، ما سينعكس بدوره على مفهومه عن الحضارة وربطه بالدين. وهذا خلل واضح، إذ أن استخدام مفهوم الحضارة وبالتالي الدين بوصفه المؤشر الأساس للتمييز بين أطراف الصراعات الرئيسية في عالمنا الحالي لا يساعد كثيراً في فهمنا لهذه الصراعات. فمن الواضح، كماضيف زيادة، أن هنتنغتون لم يلتزم مقياساً واحداً للتصنيف، فتارة يستخدم الدين للإسلام، والجغرافية للغرب، والعرق للسلاف، وحتى أن فؤاد عجمي قد عبر عن رايه قائلاً: "يقلم رصاص حاد ويد ثابتة، يحدد هنتنغتون أين تنتهي حضارة وأين تبدأ حضارة أخرى" (٢٨).

وإذا كان هنتنغتون قد نجح في إعطاء الصراعات والنزاعات المتفاقمة حالياً السمة الثقافية، ولكن ذلك لا يعني هذا الصراع الخاضع بدوره لمتغيرات سياسية، وليس لطبيعة العلاقات التاريخية بين البشر ويضاف إلى ذلك فإنه قد سقط في اتون السياسة واكتوى بنارها وتلبس بوصف إيديولوجيا السياسة أيضاً عندما نسي أن الحضارات لا تسيطر على الدول بل الدول هي التي تسيطر على الحضارات. ليس بالضرورة أن يكون النزاع العرقي (أو الديني) نزاع حضارياً. لأن ما نفسر ما يحصل في إيرلندا الشمالية (٢٩).

(26) المصدر نفسه، ص ٢١٩.

(27) نقلاً عن المصدر نفسه، ص ٢١٩، ويُنظر صموئيل هنتنغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، ترجمة طلعت الشاوب، إصدار دار الطور القاهرة، ١٩٩٨، ص ٤١٨.

(28) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(29) المصدر نفسه، ص ٢٢٢.

ويشير رضوان زيادة في إطار تحليله "لظاهرة" الهنتنغونية مستنداً الى عدد من المراجع الموثوقة في طرحه عنواناً فرعياً: الاخر-الهاجس: الصراع-ثار التاريخ، من ان نظرية صدام الحضارات جعلت هاجس الخوف من عدو محتمل يطفو على السطح ما جعلها اشبه بوثيقة عمل لدى بعض المفكرين والسياسيين الذين عملوا على تأكيدها باستحضار التاريخ لو بتعسف قراءة الواقع معتبرين "ان حرب الاسلام مع الغرب تحمل محرضات كامنة، فكرية وعرقية، اضافة الى صراع المصالح"، ويتلخص هذه المحرضات في ان الاسلام مبني على يقين جازم بأنه فوق الاسس التي يضعها البشر<sup>(30)</sup>.

ويشير الأستاذ وجيه قانصوره في دراسته المعنوية: "ايدولوجية الحضارات في النظام العالمي الجديد"، بأنه ولئن اراد ان ينهي دورة التاريخ وفق ايدولوجي متفائل يحول العالم الى نسق سياسي واقتصادي واحد، فإن هنتنغون اراد انعاش حركة التاريخ الصاخبة. وراى في وجود الاخر غير الغربي خطراً مؤكداً ومزاحماً صلباً في ظل قانون تنازع البقاء. فالآخر غير الغربي قابل بحكم تكوينه الحضاري على اسيعاب النموذج الغربي او السكن داخل جدرانه، وبالتالي فإن الخيار الطبيعي يمكن في قرع طبول الحرب واسترجاع عقيدة الغرب في تكوين الرأي العام، أي ان خيار الحضارات الوجودي هو لما العيش في قوة او الموت. وعلى ضوء ذلك، فإنه لستطاع تبرير الترسنة النووية لصانعي القرار الامريكي وتضخم التحالف الغربي كحقيقة حضارية منفردة<sup>(31)</sup> ويؤكد قانصوره بأن مقولة "صدام الحضارات" تأسست على معطيات الواقع الراهن وتفاعلاته، وانها وسيلة لارساء الواقع الراهن بصوت المدفع، حيث الهيمنة الامريكية ومركزية الغرب في تشكل العالم<sup>(32)</sup>.

لقد خصص الدكتور محمد عايد الجابري الفصل الخامس من كتابه "قضايا في الفكر المعاصر"، لتقيد الاسس التي قامت عليها نظرية "صدام الحضارات" الهنتنغونية، وتفكيك عناصر افتراضاتها، وتهافت الاستنتاجات التي وصلت اليها، وذلك انطلاقاً من "اننا نحن العرب والمسلمين على راس المستهنفين فيها فمن الواجب المساهمة في فضحها، فضلاً عن وجوب تعميق الوعي بمضمونها واهدافها...". ويتساءل الجابري استطراداً، لماذا توارت فكرة نهاية التاريخ بسرعة واختفت ولم تعد تثير الاهتمام بعد اعلان هنتنغون عن اطروحاته "صدام الحضارات"؟ هل يرجع ذلك، حسب ما يؤكد الجابري الى كون مركز هنتنغون في مجال الدراسات الاستراتيجية والعلاقة مع

(30) المصدر نفسه، ص ١١٥.

(31) وجيه قانصوره، ايدولوجية الحضارات في النظام العالمي الجديد"، مجلة شؤون الاوسط، العدد ٩٠/٩١، ديسمبر/كانون ثاني/ ٢٠٠٠، ص ٩٢.

(32) المصدر نفسه، ص ٩٣.



الإدارة الأمريكية لقوى بكثير من مركز ذلك الأمريكي من أصل ياباني، لم لأن أطروحة صدام الحضارات إنما قصدها إزاحة فكرة نهاية التاريخ من مسرح الاهتمام؟. قد يكون للوزن الشخصي دور، ولكن الدور الحقيقي، حسب ما يراه الجابري، هو للوظيفة التي تؤديها الفكرة. إن فكرة "نهاية التاريخ" عن الماضي، وبالتالي تبعث على الأطمئنان على مستقبل أمريكا، إذ هي تؤكد على الانتصار النهائي الليبرالي، الشيء الذي لاثار مثلاً-التساؤل عن جدوى تخصيص مبالغ هائلة للدفاع في ميزانية الولايات المتحدة تساؤلاً مشروعاً. لما أطروحة "صدام الحضارات" نتجت عن المستقبل وتلذذ بخطر المواجهة والحرب وتدعو صراحة إلى أخذ الحيطة والاستعداد للدفاع عن النموذج الحضاري الأمريكي وعن المصالح التي يقوم عليها<sup>(٣٣)</sup>. وهو ما تجسد في عقلية المحافظين الجدد، وما فضت به أفكارهم في الحرب الاستباقية، والحرب العادلة.

#### "الحرب الباردة الحضارية":

وبناء على ذلك فإن "نظرية" صدام الحضارات، وحسب ما يراه الجابري، فإنها من الناحية الاستراتيجية السياسية والعسكرية والثقافية تنطوي فعلاً على قضية، حاول المفكرين الغربيين التظهير لها، ثم الترويج لها في حملة إعلامية لم يسبق لها. ويؤكد الجابري بأنه سبق هنتغون أن نشر السيد باري بوزان الأستاذ بجامعة ورويك البريطانية، مقالاً في مجلة شؤون دولية بتاريخ ٣/تموز-يوليو/١٩٩١ تحت عنوان "السياسة الواقعية في العالم الجديد: لنماط جديدة للأمن العالمي في القرن الواحد والعشرين" مقسماً العالم من جديد إلى "مركز" و"أطراف": أما المركز فهو كتلة رئيسية من الاقتصاديات الرأسمالية المسيطرة على العالم" وأما الأطراف فهي "مجموعة من الدول الأضعف من النواحي الصناعية والمالية والسياسية تتحرك ضمن نمط من العلاقات التي يشكلها المركز في المقام الأول، أضاف إلى ذلك "اشباه الأطراف" وهي الدول الأقوى في الأطراف. والقضية الأساس التي يريد صاحب المقال دراستها من خلال التصنيف الذي لبقى تصنيفات فترة الحرب الباردة، هي مسألة "الأمن"، أمن المركز تحديداً، الغرب بوصفه "المركز" وبقية للعالم بوصفها "الأطراف"<sup>(٣٤)</sup>. وبعد أن يحدد بوزان التطورات التي حصلت في "المركز" من عودة ظاهرة الدول العظمى، وبروز الرأسمالية الليبرالية، وقيام جماعة أمنية تضم المراكز الرئيسية للقوة الرأسمالية، وتعزيز قوة وفعالية "المجتمع الدولي"، فإن هذه التطورات انعكست على

(33) محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، حزيران/ ١٩٩٧، ص ٨٣-٨٤.

(34) المصدر نفسه، ص ٨٨-٨٩.

الامن في الاطراف وذلك في مجالات خمسة: في المجال السياسي، انخفاض قيمة الاطراف، في المجال العسكري، حيث تقضي النزاعات، وفي المجال الاقتصادي حيث بقيت الاطراف اطرافاً بسبب المعوقات الذاتية. ويكرس بوزان اهمية للامن الاجتماعي في مجال علاقة المركز والاطراف، ويعتبر الهجرة وما يسميه بـ"التصادم بين الهويات الحضارية المتنافسة" اهم قضيتين في هذا المجال. اذ ان الهجرة من دول جنوب المتوسط الاسلامية تشكل خطراً على امن دول "المركز"، اذ تهدد هويتها الحضارية. اما المتصادم الحضاري فهو في نظره "اوضح ما يكون بين الغرب والاسلام"، نظراً للتعارض بين القيم العلمانية السائدة في الغرب وبين القيم الاسلامية، ونظراً كذلك للتناقص التاريخي بين المسيحية والاسلام، ولغيره المسلمين من قوة الغرب، اضافة الى الجوار الجغرافي.. ويقول بوزان: "فاذا اجتمع خطر الهجرة وخطر تصادم الثقافات اُصبح من السهل وضع تصور لنوع من الحرب الباردة الاجتماعية بين المركز وجزء من الاطراف على الاقل، ولاسيما بين الغرب والاسلام". ثم يضيف: "كما ان تصادم الهويات الحضارية لا يقل قوة على الجانب الاخر من الاسلام، حيث يتجاوز الغرب مع الحضارة الهندية، مثلاً يتجاوز مع الاسلام". وهكذا فـ"الحرب الباردة الحضارية" المقبلة ستكون بين طرفين: الغرب والحضارتان الاسلامية والهندية من وجهة اخرى. وذلك ما سيقول به هنتنغتون مع تعديل واحد هو وضع الحضارة الكونفوشية، مكان الحضارة الهندية<sup>(٣٥)</sup>.

ومن هنا، وكما يؤكد الجابري، فان هذه الفكرة نفسها التي يقرها هنتنغتون في مقالته "صدام الحضارات" وفي ظرفية جديدة وبأسلوب صدامي"، وان المبدأ الذي يحكم للنص هو المبدأ المعروف بـ"الغاية تبرر الوسيلة"، ولجأ الى التعميم واصطناع الغموض والقفز من قضية الى اخرى، انه يقدم "فرضيته" في شكل نبوءة وبأسلوب هجومي، حتى انه يرد وبطريقة غير مباشرة على فكرة "نهاية التاريخ" لفوكوياما، وهي الفكرة التي تقرر انتصار الليبرالية بصورة نهائية، وهذه الفكرة او الاستنتاج يتعارض مع الاستراتيجية للكونية التي تخطط لها الولايات المتحدة. ومن هنا، فانه جاء دور هنتنغتون الخبير في "الاستراتيجية العسكرية" يتصدى بسرعة وعنف لفكرة "نهاية التاريخ". وبما ان افضل استراتيجية لابطال فكرة وبقربها هي الترويج لفكرة العكس دون الدخول معها في جدال صريح. ان فكرة "نهاية التاريخ" بغربتها واستفزازها للمنطق والتاريخ معاً، لم يحوهِ الا الصمد بفقرة اكثر غرابة واشد استفزازاً، فكرة "صدام الحضارات"<sup>(٣٦)</sup>.

(35) نقلاً عن المصدر نفسه، ص ٩٠-٩١-٩٢.

(36) المصدر نفسه، ص ٩٤-٩٥.

فقد كانت مهمة فكرة "صدام الحضارات" ترتيب حوادث التاريخ بالشكل الذي يجعل النتيجة المتوخاة تأتي كمرحلة حتمية من التطور التاريخي، حيث الحروب والنزاعات العسكرية لتصب في مرحلة مقبلة هي للصراع، وهي مرحلة "صدام الحضارات"، أي بين الحضارات الغربية والحضارات الأخرى. وهذه التصورات، كما يؤكد الجابري، مبنية على مغالطات عديدة حتى أنه يتجاهل عن الحروب الدينية في أوروبا وعن الحرب الانكليزية-الأمريكية، والحرب الأمريكية-الفييتامية. وإذا كان هناك صراع في المستقبل فسيكون بين الأمم والشعوب المتطلعة إلى الحرية والديمقراطية مع القوى الامبريالية المهيمنة، تحت أي غطاء كانت<sup>(٣٧)</sup>.

ويشير الجابري بأنه بالإضافة إلى التصنيفات التي يقدمها هنتنغتون التي يقدمها ما بين الثقافة والحضارة وأفعال حدود التمايز بين الحضارات، فإنه ينتقل إلى مغالطة على مستوى العلاقة بين الحضارة والايديولوجيا، والغرب والنخب، والانتماء الغربي، والانتماء الطبقي، والديني والسياسي. وإذا كان الدين هو العنصر الأهم في التمييز بين الحضارات، فلماذا لا يسمى جميع الحضارات بأسم الدين الذي تعتقه وستكون عندنا حينئذ الحضارات التالية: الحضارة المسيحية والحضارة الإسلامية والحضارة البوذية، إلا أنه يستخدم الدين فقط لتمييز الحضارة الإسلامية وحدها<sup>(٣٨)</sup>.

ومن خلال تحديده للحضارة الإسلامية التي تحدثت الغرب المسيحي منذ أن وصل العرب إلى مدينة تور الفرنسية عام ٧٣٢، ثم الحروب الصليبية، فإنه تاريخ سلسلة من الحروب المتجددة. ويطالب من الغرب أن لا يعمل على نشر الديمقراطية في العالم الإسلامي "أنها تؤدي إلى تعزيز القوى السياسية المناهضة"، وهو ما يكشف تمسك الغرب بالديمقراطية وحقوق الإنسان بالنسبة للشعوب غير الغربية<sup>(٣٩)</sup>.

وينتهي صاحب نظرية "صدام الحضارات" إلى الاعلان صراحة بعد أن يقرر أن العلاقة بين الغرب والإسلام ستكون علاقة صدام حضاري، بأن "لإسلام حدوداً دموية" وهو الذي كان مسؤولاً عن كل الصدمات والحروب التي اتلعت على حدود الفصل بين الحضارات التي كانت دائماً "حدود التوتر"<sup>(٤٠)</sup>. وينتهي الجابري إلى وصف هذه "الافتراضات" وما احتوته النظرية، بأنه لم يكن إلا "منطق القبيلة" الذي يحكم تفكير هنتنغتون.

أما الكاتب السعودي الأستاذ تركي الحمد فيري من جانبه في قراءاته لأطروحات هنتنغتون وفوكوياما، بأن كلا الكتابين يصلان إلى نتيجة واحدة، وأن

(37) المصدر نفسه، ص ٩٩-٩٧.

(38) المصدر نفسه، ص ١٠٤.

(39) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(40) المصدر نفسه، ص ١١٨.

اختلفت بهما السبل لدرجة التناقض الظاهري. وهي ضرورة استمرار سيادة الغرب حضارياً وسياسياً. فمؤمنون ينتفخون يصل إلى هذه النتيجة عن طريق "ما يجب ان يكون عليه الوضع" وذلك حين يفصل فصلاً قاطعاً بين الغرب والبقية، ويضع الحضارة الغربية في مواجهة صراعية مع بقية الحضارات التاريخية في هذا العالم، ويطلب من صانعي القرار في دول الغرب ان يأخذوا هذه الفكرة بصفتها "حقيقية"، في الاعتبار والعمل على استمرار السيادة الغربية عن طريق لقائمة تحالفات "حضارية بين دول الغرب ذات الثقافة المشتركة مع الولايات المتحدة بصفة خاصة، أما فرانسيس فوكوياما، وحسب ما يؤكد الحمد، فيصل إلى ذات النتيجة عن طريق ما يعتبره من معائل الحتم والضرورة، وذلك حين يحاول طرح فلسفة انهيار الكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة تاريخياً، بحيث يعلن انتصار الديمقراطية الغربية والمشروع الحر هو نهاية التاريخ ولن سيادة الغرب الرأسمالي والديمقراطي قد اصبحت نهائية، ولا مجال لتغييرات جذرية عميقة في التاريخ القادم للانسان، التغيرات القادمة التي تعدو التفاصيل، ومدى سرعة الدول والشعوب الاخرى في الوصول إلى النموذج النهائي، أي النموذج الغربي.

وبناء على ذلك، فإن الاستاذ تركي الحمد يؤكد بأن كلا الكاتبين كان يقوم بإرسال رسالة خاصة إلى السياسة الخارجية الأمريكية، موصياً فيها بما يجب ان تكون عليه هذه السياسة أي هناك "مشروع معين" للسياسة الخارجية الأمريكية<sup>(١١)</sup>، وهو ما اتضح في الخطوط العامة التي طرحها "مشروع القرن الأمريكي الجديد"، حيث يشكل مشروع الشرق الاوسط الكبير، للمشروع الفرعي المتوجه نحو المنطقة لاغياً حدودها الجغرافية، وهوياتها القومية، وذلك لانبتها في هويات، وعرقية، واثنيات متعددة يفترض الصراع بينها، والتي تشكل بالمقابل خطر يهدد الغرب، ولابد من اعادة بناءها من الداخل على وفق الصيغ والأليات "الجديدة"، بدلاً من تركها بوراً تفرغ الارهاب والمنظمات الارهابية.

(١١) تركي الحمد، صراع الثقافات بين السياسة والتاريخ (١-٢)، صحيفة الاتحاد الاماراتية، العدد، ٩٦٧٠، الأربعاء، ٢٦/سبتمبر/٢٠٠١، ص ٣٠.

## حقوق الإنسان بين مبادئ الإسلام وسلوك الدول الغربية

الأستاذ الدكتور

سعيد مجيد دحلوح<sup>(١)</sup>

### مقدمة:

حقوق الإنسان، اصطلاحاً حديثاً نوعاً ما لحقيقة قديمة لازمت البشرية منذ أقدم العصور، واهتمت بها الديانات السماوية والاتجاهات الفكرية والفلسفية المختلفة، ومنذ أن ظهرت دولة المدينة وظهر الحكم المطلق ثم أدعاء الربوبية من الحاكم، كما هو حال نمروود وفرعون وغيرهم كما يحدثنا القرآن الكريم عنهم.. ((قال أنا ربكم الأعلى))<sup>١</sup> و((ما علمت لكم من إله غيري))<sup>٢</sup>، بدلت الإنسانية تعاني لولاً من الهدر للكرامة والسحق لأرادتها، ومصادرة الحقوق والحريات... وفي كثير من الأحيان يأخذ جور الحاكم أبعاداً مأساوية، تنتهي إلى نهايات مؤلمة يسحق على أثرها الملايين من الضحايا والإجهاز على الأخضر واليابس بدعوى الإصلاح ((وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون))<sup>٣</sup>.

ولم تتحصر دائرة حقوق الإنسان فيما بين البشر أنفسهم بل اتسعت الدائرة لتشمل كل متعلقاتهم من مفردات الطبيعة التي يعيشونها حيازة واستمراراً. وقد أصبح لها قدسية خاصة في التاريخ الراهن لدى المنظمات الدولية والقانون الدولي العام والنظم السياسية، ولكن العبرة ليس أن تسطر هذه الحقوق في لوائح أو إعلانات بل تنفيذها بشفافية وتجسدها في الواقع، أو أن تستخدم هذه الحقوق لأغراض سياسية وفي العلاقات الدولية، لاحتلال الدول، أو تهديدها ومحاولات تغيير النظم السياسية. محاول في هذا البحث التطرق إلى حقوق الإنسان في القرآن والسنة النبوية وكيف تعاملت مع هذه الحقوق فضلاً عن سلوك الغرب الاستعماري مع الشعوب والأمم التي خضعت لسيطرته أو استخدام هذه الحقوق لأغراضه الخاصة بعد التعرف على مسئول الحق والإنسان وماهية حقوق الإنسان.

ومن الله التوفيق

<sup>(١)</sup> استاذ في كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

<sup>١</sup> الفارعات، آية ٢٤.

<sup>٢</sup> القصص، آية ٣٨.

<sup>٣</sup> البقرة، آية ١١.

## المبحث الأول

### ماهية حقوق الإنسان:

قبلولوج في حقوق الإنسان تعريفاً ومفهوماً، نجد من الضروري الإلمام بمندول الحق والإنسان وعلى الشكل الآتي:

١. الحق:

الحق في اللغة: أصله المطابقة والموافقة، وهو ضد الباطل، وحقائق الشيء ما حق وثبت. أما اصطلاحاً: فالحق يعني الثبوت الواقعي أو الاعتيادي الناظر إلى مصلحة واقعية، الذي لا يتغير لوح الوقع والاعتبار حين ثبوته سواء أدركه الذهن الإنساني أم لا، وسواء أعلنه للشرائع والقوانين الاجتماعية أم لا؛ لأنه معنى واقعي أو اعتبارياً ناظر إلى مصلحة واقعية قبل إدراك الذهن الإنساني، وقبل الصياغة التشريعية أو القانونية له أنه حق.

### ٢. الإنسان:

الإنسان كائن تتفاعل فيه بشكل متوازن جولنب جوهرية ثلاثة هي:

١. "العقل" كونه محور القيمة الإنسانية وفيه تترك قوة الإدراك.
٢. "العواطف والمشاعر" كالحب والبغض والغضب والسرور... الخ، وهي تحقق للنفس صورة التفاعل والانفعال.
٣. "الإرادة" التي تعبر عن الاختيار بحدوده الإنسانية والتي تكمن وراء السلوك الإنساني بمعنى الفعل والترك.

### ٣. تعريف حقوق الإنسان :

أن موضوعاً شائعاً كموضوع حقوق الإنسان، ليس من السهولة إيجاد تعريفاً جامعاً مانعاً يحيط به، ولم يجمع الفقهاء على تعريف يمكن الركون إليه أو يغطيه كونه نسبي ويرتبط بثقافة أو فلسفة المجتمع، وعلى الرغم من ذلك هناك محاولات جادة للتقرب من الموضوع وعلى الشكل الآتي:

١. مجموعة الحقوق الطبيعية التي يمتلكها الإنسان وللصيقة بطبيعته، التي تظل موجودة، وإن لم يتم الاعتراف بها، بل أكثر من ذلك حتى وأن انتهكت من قبل سلطة ما<sup>٦</sup>.

<sup>٤</sup> فخر الدين الطريحي، مجمع البحرين، ٥، باب ما أوله الحاء (مادة حق).

<sup>٥</sup> فؤاد كاظم المقدادي، رسالتنا الإسلامية بين الأصالة والتغريب، مجمع الثقلين العلمي، بغداد، ٢٠٠٣، ص ٨١.

<sup>٦</sup> المصدر نفسه، ص ٨١-٨٣.

<sup>٧</sup> محمد سعيد مجنوب، الحريات العامة وحقوق الإنسان، مطبعة طرابلس، بيروت، ١٩٨٦، ص ٩.

٢. قدرة الإنسان على اختيار تصرفاته وممارسة نشاطاته المختلفة دون عوائق مع مراعاة القيود المفروضة لمصلحة المجتمع.<sup>٨</sup>
٣. مجموعة الحقوق والمطالب الواجبة الوفاء لكل البشر على قدم المساواة دونما تمييز فيما بينهم.<sup>٩</sup>
٤. وقد عرفها فان بوفن<sup>١٠</sup> ((الحقوق التي تتجاوز الإطار الوضعي، ولا يحتاج أعمالها إلى تشريع وضعي وطني، لأنها من القواعد الأساسية في المجتمع الدولي وكل دولة تتخلى عن هذه القواعد تعد دولة في قائمة الدول الاستبدادية))<sup>١١</sup>.
٥. هناك من ينظر إليها على أنها، فرع خاص من العلوم الاجتماعية يستهدف دراسة الروابط بين الناس لتحقيق الكرامة الإنسانية بتحديد الحدود والمكنات التي تعد بمجموعها ضرورية لإنماء شخصية كل كائن بشري.<sup>١٢</sup>
٦. أوانها : مزيجاً من القانون الدستوري والقانون الدولي، مهمتها الدفاع بصورة منظمة قانوناً عن حقوق الشخص الإنساني ضد انحرافات السلطة الواقعة من أجهزة الدولة، وإن تنمو بصورة متوازية معها الشروط الإنسانية للحياة والتنمية المتعددة الأبعاد للشخصية الإنسانية<sup>١٣</sup>.
٧. تلك الحقوق للصيغة بالإنسان والمستمدة من تكريم الله له وتفضيله على سائر مخلوقاته والتي تبلورت عبر تراكم تاريخي من خلال الشرائع والأعراف والقوانين الداخلية والدولية، ومنها تستمد وعليها تبنى حقوق الجماعات الإنسانية في مستوياتها المختلفة ، شعوباً وأما ودولاً<sup>١٤</sup>.

<sup>٨</sup> روسكو باوند، ضمانات الحرية في الدستور الأمريكي، ترجمة محمد لبيب، دار المعرفة، القاهرة ١٩٥٦، ص ١١.

<sup>٩</sup> المصدر نفسه.

<sup>١٠</sup> تيودور فان، معايير التفريق بين حقوق الإنسان، مجلد الأبعاد الدولية لحقوق الإنسان مجموعة مترجمين، اليونيسكو، ١٩٧٩، ص ٤٦.

<sup>١١</sup> نقلاً عن، عزت سعد السيد البريجي، حماية حقوق الإنسان في ظل التنظيم الدولي الإقليمي، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٩٨٥، ص ٤٦.

<sup>١٢</sup> إبراهيم أحمد عبد السامرائي، الحماية الدولية لحقوق الإنسان في ظل الأمم المتحدة، أطروحة دكتوراه، كلية القانون، جامعة بغداد، ١٩٩٧، ص ٩.

<sup>١٣</sup> صلاح حسن مطرود، السيادة وقضايا حقوق الإنسان وحرياته الأساسية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ١٩٩٥، ص ٤٤.

<sup>١٤</sup> محمد عبد الله الدوري، حول انتهاكات حقوق الإنسان في إيران، مجلة الحقوق، الأعداد (١-٤) السنة ١٦، بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٣٧.

وتحتاج حقوق الإنسان لتحقيقها ثلاثة شروط أساسية هي<sup>١٥</sup>:

١. وجود مجتمع منظم في دولة قانونية.
  ٢. توفر الإطار القانوني الممبق الذي تمارس في ظلّه هذه الحقوق، فضلاً عن المرونة التي تمكن المجتمع من مواجهة الظروف الخاصة المحتملة.
  ٣. توفر الضمانات القانونية التي تمنع الممارسات اللاقانونية، وتمكن الفرد من المطالبة بحقه في حالة تحقق انتهاكها كلاً أو جزءاً.
- إن حقوق الإنسان هي الحقوق التي يمتلكها جميع الأشخاص، بحكم إنسانيتهم المشتركة، لكي يعيشوا في حرية وكرامة، وهي تمنح جميع الناس حقوقاً معنوية فيما يتعلق بملوك الأفراد وفيما يتعلق بتصميم الترتيبات الاجتماعية وهي شاملة ولا يمكن التصرف فيها ولا يمكن تجزئتها. وحقوق الإنسان تعبّر عن أعرق التزاماتنا بكفالة أمن الجميع وتمتعهم بالخيرات والحريات اللازمة لكي يحيا حياة كريمة. كما أن حقوق الإنسان تنتمي لجميع الناس، وجميع الناس يتساوون فيما يتعلق بهذه الحقوق.. فهو ليس أفضل أو أسوأ تبعاً لجنس الشخص أو عصبه أو أصله العرقي أو قوميته أو أي تميز آخر<sup>١٦</sup>.

أن القول عن حقوق الإنسان بأنها حقوق طبيعية لا ارتباطها الوثيق بطبيعة الإنسان، وأنها منبثقة من صميم ذاته، ومن ثم فهي غير قابلة للتصرف، وليس منحه من سلطة معينة، إنما هي حقوق أساسية من حقوق البشر الطبيعية التي فطر الإنسان عليها.

أن حقوق الإنسان غير قابلة للتصرف: فليس من الممكن أن يسلبها آخرون، ولا يمكن أن يتنازل عنها طوعاً.. كما أنها غير قابلة للتجزئة فلا يوجد ترتيب هرمي بين مختلف أنواع الحقوق، فالحقوق المدنية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ضرورية جميعاً على قدم المساواة لكي يحيا المرء حياة كريمة، كما لا يمكن قمع بعض الحقوق تعزيزاً لحقوق أخرى؛ فالحقوق المدنية والسياسية لا يمكن انتهاكها تعزيزاً للحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولا يمكن قمع الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تعزيزاً للحقوق المدنية والسياسية<sup>١٧</sup>.

لقد شهدت "حقوق الإنسان" تحولاً كبيراً في مسألة الاعتراف بها، نقلها من الدائرة الوطنية الضيقة ترتبط بقيم وفلسفة وأمانتي شعب بعينه إلى الأطر والآفاق الإقليمية والدولية. أي أن قضية حقوق الإنسان لا تخضع لمساواة كل دولة على حدة،

١٥ الأمم المتحدة، برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠٠٠، نيويورك، ص ١٦.

١٦ المصدر نفسه، ص ١٦.

١٧ فؤاد كاظم المقدادي، المصدر السابق، ص ٨٢ - ٨٣.



وإنما أصبح الدور للمنظمات الدولية ضمن حركة دولية وميدان عمل جماعي حي لحماية حقوق الإنسان من خلال الكثير من المنظمات الدولية التي تتبنى ذلك.

### المبحث الثاني

#### الإسلام وحقوق الإنسان

##### ١- نظرة الإسلام إلى حقوق الإنسان:

أن الذي يميز نظرة الإسلام إلى الإنسان وحقوقه عن غيره من الأفكار والفلسفات والطروحات الوضعية، هو أن دائرة حركة الإنسان بجوانبه وقواه الجوهرية، لا يقتصر على عالم المادة المحسوسة، بل يشمل كذلك عالم ما وراء المادة (عالم الغيب) فالإنسان يحيط به عالمان واقعيان: عالم المادة المحسوسة؛ وهو عالم فان و"عالم الغيب" وهو خالد مهيمن كامن وراء العالم المادي.

أن معادلة اكتشاف حقوق الإنسان في الإسلام تتقوم بأمرين أساسيين هما<sup>١٨</sup>: أولاً: إدراك حقيقة موضوعها المتمثل بالإنسان في كونه موجوداً ذا فطرة متميزة "فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله" وبقواه الفطرية بمحورية العقل، وكونه أيضاً يتحرك في عالمين "مادي ومعنوي". ثانياً: إدراك حقيقة المحمول المتمثل بالحقوق الإنسانية في كونها ثوابت واقعية تكتشف من خلال معرفة حقيقة الإنسان وواقعته وعالميه الذين يتحرك في دائرتها.

وعليه فإن أية دعوى لاكتشاف حقوق الإنسان وتقنينها وتنظيمها لا تأخذ بالاعتبار لهذين المقومين، هي دعوى لا تتوفر فيها شروط إصابة الحقيقة، وأية لائحة يسيطر فيها حقوق الإنسان لا تأخذ بالاعتبار حيثية الإنسان الذاتية، في كونه كائناً قائماً على الفطرة المتميزة، أو انهما تنظران إلى الإنسان محجوراً وأسيراً في دائرة عالم مادي محدود، هي لائحة ناقصة في أصابتها للواقع، لكونها تستقط من الحساب حقوقاً أساسية لاغنى لإنسان عنها، وبهذا مستفتح عليه باب الظلم والحيف، سواء أدركت ذلك وقصدته أم لا.

أن حركة حقوق الإنسان التي نشطت في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وسطرت في ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ والإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨ وغيرها من المواثيق الدولية، فإن الشريعة الإسلامية قد أقرت هذه الحقوق منذ أربعة عشر قرناً، ويذكر الشيخ محمد الغزالي "أن آخر ما أملت فيه الإنسانية من قواعد وضمنات لكرامة الجنس البشري كان من أبجديات الإسلام، وأن إعلان الأمم المتحدة

<sup>18</sup> محمد الغزالي، حقوق الإنسان في الإسلام بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، بلاط ١٩٨٤، ص ٩.

عن حقوق الإنسان، ترديدًا عاديًا للوصايا النبيلة التي تلقاها المسلمون عن الإنسان الكبير الرسول الخاتم محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)<sup>١٩</sup>.

ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك، إذ نجد أن حقوق الإنسان في الإسلام أكثر شمولية وعمقا من تلك المبادئ المثبتة في المواثيق الدولية، ليس فقط لأنها تقتصر إلى الدوافع والعوامل الذاتية والموضوعية للالتزام بها وتطبيقها على أرض الواقع فحسب، إنما يُحاول المنادون بها أن يخفوا خلف شعاراتهم تلك، حجم الظلم والفساد والعدوان واحتلال الدول أو تهديدها من خلال الاستخدام السياسي لحقوق الإنسان كما سنشير لذلك في المبحث الثالث. فعلى سبيل المثال لا الحصر، أن مفهوم الحياة يختلف بين ما يطرحه القانون الدولي لحقوق الإنسان وبين ما يطلنه الإسلام؛ الذي يرى أن الحياة تبدأ ببعدها المادي والمعنوي من حيث تكون الجنين في رحم الأم فلا يحق لأي أحد قتله بالإجهاض مثلا بغير ضرورة، ويتواصل ذلك بعد الموت قيمة معنوية، فلإنسان حق في أن يحترم بعد موته في جنازته ومدفنه، ولا يحق لأحد انتهاك حرمة فيها، بالتشريح لجسده، أو النيش لبقره بدون ضرورة تقتضيه ولا التمثيل به، إذ يعلن الإسلام حرمة التمثيل حتى بالكلب العقور<sup>٢٠</sup>. وفي الحديث النبوي الشريف، إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا في ثلاث: (صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له)<sup>٢١</sup>.

كما أن الكرامة الإنسانية في الأنظمة الوضعية محدودة في دائرة الأصل الأولى للإنسان كموجود وكائن عاقل في هذه الحياة وهي قيمة مشتركة بين الناس جميعا، ولكن في الإسلام يذهب إلى أبعد من ذلك، إلى القيمة المكتسبة التي يحصل عليها الإنسان بحركته للتكاملية ضمن مساريها المعنوي الخلاق للنفس الإنسانية، والتصديقي العملي البناء للحياة الاجتماعية.

فمن المعلوم أن هناك فرقا كبيرا بين فرد عظيم يعلمه وخصاله الأخلاقية العالية، التي أكسبها بجهد وجهاده، والتي ملكته قدرة أداء دور إنساني بقاء وإصلاح كبير في بناء الحياة وإثرائها، وبين فرد عادي لم يكتسب شيئا في ذلك، ولم يترك أثرا بناء في الحياة.. ففي الإسلام حقوقا للكرامة المكتسبة، لا تجدها غالبا في القانون الدولي لحقوق الإنسان، كحقوق الكرامة للعلماء (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)<sup>٢٢</sup>.

19 فؤاد المقدادي، المصدر السابق، ص ٨٨.

20 الحافظ المنذري، الترغيب والترهيب، ج ٣، ص ٦١٢.

21 فؤاد المقدادي، المصدر السابق، ص ٨٩.

22 التمام آية ٧.

إن الإسلام أمتاز عن القانون الدولي لحقوق الإنسان في نظرته إلى الإنسان، من حيث للقيمة كإنسان، ومن حيث الحقوق التي منحها إياه ببعدها المادي والمعنوي.. وفيما يتعلق بجانب للقيمة نلاحظ ذلك في الأمور الآتية:  
أولاً: بيانه لوحدة الأصل الإنساني.. كلكم لآدم ولآدم من تراب. وكما جاء في القرآن الكريم ((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها))<sup>٢٣</sup>.

ثانياً: عدم التفاضل بين الناس، بالعنصر أو اللون أو اللسان، وإنما التفاضل بالقوى، وهذا البعد المعنوي لم يأخذه القانون الدولي لحقوق الإنسان بالاعتبار ((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن لكرمكم عند الله أتقاكم))<sup>٢٤</sup> وفي الحديث الشريف (أفضل لعربي على أعجمي إلا بالقوى).

ثالثاً: تكريم الإنسان ورفع قدره ((ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً))<sup>٢٥</sup>.

لقد منح الإسلام الإنسان الحقوق التي تتطلبها الحياة الإنسانية الكريمة التي تجعل منه خليفة الله في الأرض ((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون))<sup>٢٦</sup>.

وهناك العديد من الحقوق والحريات الأساسية التي أحاطها الإسلام بكل الضمانات والقواعد الواضحة والصريحة والملزمة كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، ومن أبرزها حقوق العائلة بما تشمله من حقوق للوالدين والأولاد وصلة الرحم، إذ يجعل من الوالدين أولياء رساليين على أولادهم في التربية والتعليم والإعداد، ومن الأولاد أوفياء مطيعون لهم.. وهكذا في دائرة الأرحام، إذ تتأكد المسؤولية الرسالية وحقوقها في الأقرب فالأقرب، وهذا ما نفهمه من سياق الآيتين الكريمتين ((وقضى ربك ألا تبعدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً))<sup>٢٧</sup> ((واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً))<sup>٢٨</sup> لذا فإننا لا نجد في القانون الدولي لحقوق الإنسان أي اهتمام بهذه الحقوق.

٢٣ النساء آية ١.

٢٤ الحجرات آية ١٣.

٢٥ الإسراء آية ٧٠.

٢٦ الحج آية ١٠٥.

٢٧ الإسراء آية ٢٣.

٢٨ النساء آية ١.

### نظرة الإسلام للعلاقات الإنسانية والدولية :

إن العلاقات الإنسانية والدولية في الإسلام تخضع لمجموعة مبادئ أساسية مستمدة من أحكام القرآن والسنة النبوية. وأن هذه المبادئ من شأنها أن تقيم الجماعة الدولية قانوناً دولياً يضمن السلم لكافة الشعوب، فالحالة الطبيعية في العلاقات هو السلم الذي أمر به الله في قوله تعالى ((وأن جنحوا للسلم فأنجح لها))<sup>٢٩</sup> لذلك كانت الحالة الشاذة لتلك العلاقات هي الحرب لأنه، في نظر الإسلام. أن الدولة التي تعلن السلام ولا تريد الحرب لا يجوز محاربتها<sup>٣٠</sup>، كما منع الإسلام عن العدوان في قوله تعالى ((ولا تعتدوا أن الله لا يحب المعتدين))<sup>٣١</sup> كما دعا إلى توطيد السلم بين الدول والشعوب في قوله ((وأدخلوا في السلم كافة))<sup>٣٢</sup>.. وتطبيقاً لهذه الأحكام الإسلامية، يمكن أن تقيم العلاقة بين الدولة الإسلامية والحبشة، فكانت حقاً مثلاً للعلاقات الودية. فالسياسة الخارجية للدولة الإسلامية تجاه الحبشة خلال القرون الأولى من العصر الإسلامي تمثل سابقة لا مثيل لها. إذا اعتبر المسلمون الحبشة ولقرون طويلة أنها مصونة من الجهاد، وامتنعوا عن مهاجمتها، ولم يفكروا في ذلك، ولعل السبب وراء ذلك، هي أن الحبشة قد اعترفت، ومنذ البداية بالدولة الإسلامية الناشئة بطريقة ودية، ولم تتخذ سياسة هجومية ضدها<sup>٣٣</sup>. كما شكلت الحبشة مكاناً آمناً للمسلمين الأوائل بعد اضطهاد قريش واضطرارهم للهجرة إلى الحبشة كما أمرهم في ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم). كما يمكن أن نفهم طبيعة العلاقة الإنسانية بين المسلمين وأهل الكتاب، من خلال العقد الذي أقره رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع نصارى نجران، بعد أن وفدوا على المدينة المنورة ليعارضوا الرسول ويحاجوه في أمر عيسى بن مريم (عليها السلام).. وجرى بينهم حوار طويل، إلى أن فصلت في الأمر الآية الكريمة ((فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفوسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين))<sup>٣٤</sup>.

فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو في أوج قوته وانتصاراته على قريش وغيرهم: فباهلوني فإن كنت صادقاً أنزلت اللعنة عليكم وإن كنت كاذباً أنزلت عليّ فقالوا: أنصفت فتواعدوا للمباهلة، فلما حضر رسول الله (صلى

29 الأنفال آية ٦١.

30 كاظم هاشم نصفي، الوجيز في تاريخ العلاقات الدولية، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩٢، ص ١٥.

31 البقرة ١٩٠.

32 البقرة آية ٢٠٨.

33 صلاح عبد الرزاق، العالم الإسلامي والغرب، دراسة في القانون الدولي الإسلامي، مؤسسة دار الإسلام، لندن، ٢٠٠٠، ص ١٦٠.

34 آل عمران آية ٦١.

الله عليه واله وسلم) وأهل بيته ليوم المباشلة، ولكن نصارى نجران تراجعوا، وقالوا لرسول الله نعطيك الرضا فأعفنا من المباشلة، فصالحهم رسول الله<sup>٣٥</sup> وأقرهم على ديانتهم وحمائتهم ضد أي عدوان يقع عليهم، نفهم ذلك من قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) (ولا يطأ أرضهم جيش)<sup>٣٦</sup>.

وقد تعاطف المسلمون مع الروم ضد الفرس على الرغم من موقفهم من المسلمين ففي أثناء الصراع بين الدولتين، وخسارة الروم للمعركة أمام الفرس، أساء المسلمون لذلك، لكون الروم البيزنطيين من أهل الكتاب، وهذا الذي دفع المسلمون إلى التضامن والتأييد للروم وهذا ما نفهمه في سياق الآية الكريمة ((الم. غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون))<sup>٣٧</sup>.

كما كفل الإسلام الحرية الفكرية، فالإنسان حر في أن يختار ما يشاء من عقيدة أو يريد من فكر، انطلاقاً من قوله تعالى ((لا إكراه في الدين قد تبين للرشد من الغي))<sup>٣٨</sup> وفي ذلك نفي للدين الإجباري، كون الدين هو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية بجمعها أنها اعتقادات والاعتقاد والأيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار.. وعن ابن عباس (رضي الله عنه) أن المرأة من الأنصار تكون "مقلدة" لا يكاد يعيش لها ولد، فتجعل على نفسها أن عاش لها ولد أن "يهوده" فلما أجليت بنوا النصير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لاندع لبنائنا، ومنهم من أكره أبناءه على الإسلام<sup>٣٩</sup> فأزل الله عز وجل ((لا إكراه في الدين))<sup>٤٠</sup>. ومن ذلك يمكن أن نفهم أن الحرية الفكرية الإسلامية، فيها من الحرية والالتزام، فليس حرية مطلقة تقسح المجال للفوضى أن تتحرك في حياة الناس وأفكارهم، من دون حماية لهم من عوامل الضلال أو عناصر للضعف، أو رعاية لعقيدتهم أن تنمو في جو طبيعى، وليس التزاماً مطلقاً يغلق عليهم نوافذ التفكير أو يحجر عليهم أن يطلعوا على الأفكار المضادة التي يفكر بها الآخرون.. فمن حق الإنسان أن يفكر كما يريد ويتبنى ما يريد. لأنه هو وحده الذي يتحمل مسؤولية عقيدته وفكره، ولكن، من حق الدعوة أن تدافع عن نفسها وفكرها.

35 محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات، بيروت، ٣١، ١٩٧٢، ص ٢٢٦-٢٢٩.

36 كاظم هاشم نعمة، المصدر السابق، ص ٢٢.

37 الروم آيات ١ - ٥.

38 البقرة آية ٢٥٦.

39 محمد حسين الطباطبائي، المصدر السابق، ص ٣٤٢-٣٤٧.

40 الكهف، آية ٢٩.

بهذه المبادئ والقيم انتشر الإسلام وعم المعمورة، كونه دين رحمة، حرر الإنسان من العبودية والظلم والطغيان تقبلته النفوس الصافية من دون إكراه.. ونلينا على ذلك اعتناق اندونيسيا الإسلام.. إذ بعد القرن الثالث عشر الميلادي بداية العصر الإسلامي في اندونيسيا، وكان انتشار الإسلام بين السكان سلمياً ومتدرجاً، لكنه ثابت ومستمر في الانتشار وقد يندمض المرء إذا رجع حقيقة ذلك، وكيف أصبح الإسلام في المركز الأول وأصبحت الأغلبية الساحقة من السكان تدين بالإسلام. على الرغم من أن هذه الجزر تبعد عن منبعه الأصلي آلاف الأميال. وأصبحت اندونيسيا خلال فترة من الزمن أكبر دولة إسلامية في العالم، إذ وصل نفوسها إلى ٢١٠ مليون نسمة وأن نسبة المسلمين فيها قد تصل إلى ٩٠%.. وقد جاء ذلك الانتشار عن طريق التجار المسلمين من عرب حضر موت أو تجار بلاد فارس أو عن طريق تجار الهند المسلمين بعد أن توطن الإسلام فيها كقوة حاكمة وبخاصة سواحل "كروماندل"<sup>٤١</sup>.

يقول المؤرخ توماس أرنولد: في القرن الثاني عشر، جذب الإسلام الكثير من الصليبيين، الذي اعتكفوه. ولم يقتصر ذلك على الناس العاديين: بل الأمراء والقادة ففي الليلة السابقة لمعركة حطين. التي انتصر بها صلاح الدين على الملك الصليبي غي دو لوزينيان ملك القدس وتمزق جيشه البالغ ٢٠,٠٠٠ مقاتل ووقع الملك أسيراً- اعتنق الإسلام ستة أمراء من مملكة القدس، والتحقوا بقوات العدو (المسلمين)، دون إكراه<sup>٤٢</sup>.

### المبحث الثالث

#### حقوق الإنسان وسلوك الغرب

##### ١. النظام السياسي القائم في الغرب:

قبل أن يأخذ النظام القائم على الديمقراطية للبيرالية مظهرًا عملياً سبقته تيارات فكرية تدعو إلى النظام الديمقراطي، حيث السيادة للشعب، ولكن أنظمة الحكم المطلقة لم تتأثر سريعاً بالحركة الفكرية، تلك الحركة التي استمرت تسير في طريقها نحو التطور والتقدم حتى جاء القرن الثامن عشر فكانت النهضة الصناعية وانتهيار النظام الإقطاعي وقيام طبقات جديدة من التجار والصناع وأرباب الحرف وأصحاب

<sup>٤١</sup> مصطلح خضر شرقي، سياسة اندونيسيا الخارجية تجاه العراق ١٩٨٠ - ٢٠٠٠، رسالة ماجستير، المعهد العالي للدراسات السياسية والدولية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ٢٠٠١، ص ١٥-٢٤.

<sup>٤٢</sup> محمد حسن فضل الله، كتاب الجهاد، دار الملاك، بيروت، ١٩٩٦، ص ٨ - ١٠.

الرأسمال. فاستغلوا هذه الحركة الفكرية ودعوات الداعين إلى التغيير من أجل انتزاع السلطة لحماية حقوقهم الوليدة، من أجل الحد من سلطة الدولة<sup>٤٣</sup>.

وبهذا اكتسبت فكرة الديمقراطية قوة لا غالبية لها. إذ انتقلت من نطاق الفلسفة والنظريات إلى دائرة القانون الوضعي والتطبيق العملي وإن تكون حقيقة سياسية، وقد تبلورت تلك الأفكار بصفة رسمية في إعلان الحقوق الأمريكية والفرنسية، وقد تضمن إعلان استقلال الولايات المتحدة الصادر سنة ١٧٧٦، وكذلك حقوق الإنسان الصادر سنة ١٧٨٩ عقب الثورة الفرنسية، مؤكداً أن هدف كل جماعة سياسية هو المحافظة على حقوق الإنسان الطبيعية الثابتة<sup>٤٤</sup>. فالسيادة للشعب وليس لأي فرد أو هيئة أن تتولى سلطة ليس مصدرها الشعب.. لذلك يمكن القول أن الأساس الفلسفي للديمقراطية الليبرالية هو المذهب الفردي وما بني عليه من نظرية للحقوق والحريات الفردية الطبيعية.

وقد قامت الديمقراطية الرأسمالية: على الإيمان بالفرد أيماناً لاحد له، وبأن مصالحه الخاصة بنفسها تكفل مصلحة المجتمع في مختلف الميادين، وأن فكرة الدولة إنما تستهدف حماية الأفراد ومصالحهم الخاصة فلا يجوز لها أن تتعدى حدود توفير الأمن الداخلي والدفاع عن أمن البلد وتحقيق العدل.

ويتلخص النظام القائم في الغرب الرأسمالي في إعلان الحريات السياسية والاقتصادية والفكرية والسياسية. وكان هذا النظام. نظام مادي خالص. كان مشبعاً بالروح المادية الطاغية، وكان من جزاء هذه المادية التي زخر النظام بروحها: أن أقصيت الأخلاق من الحساب. وأعلنت المصلحة الشخصية كهدف أعلى والحريات جميعاً كوسيلة لتحقيق تلك المصلحة، فنشأ عن ذلك أكثر ما ضج به العالم الحديث من محن وكوارث ومآسي ومصائب.

#### ٢- سلوك الغرب الاستعماري

بعد حركة الاستكشافات التي بدأها البرتغاليون، في القرن الخامس عشر، واكتشاف العالم الجديد، وبداية النهضة الأوروبية الحديثة بعد الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر.. وبعد اختراع واستخدام الآلة البخارية وتطور وسائل الإنتاج وأوات التصنيع وما تلاها من تطور صناعي ضخم ومتتابع، كان لا بد أن ينعكس على غايات وأهداف الدول الاستعمارية.

<sup>٤٣</sup> محمد صغور، الحرية بين الفكرين الديمقراطي والاشتراكي، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٦١،

ص ٧٥.

<sup>٤٤</sup> ثروت بدوي، النظم السياسية، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٤، ص ٣١٠ - ٣١٤.

والعلاقة مع الغرب ككل، تحكمه الرغبة في الهيمنة والسيطرة والاستعمار. فذلك تجد الغرب الذي أنتج عصر الأنوار ورفع شعار الحرية والعقلانية.. هو أيضاً الغرب المستعمر والإمبريالي الذي قام بإبادة الشعوب وقاد إلى حربين عالميتين راح ضحيتها الملايين من البشر.

ولنتوقف هنا عند بعض سلوك الغرب:

١. يقول "هوش منه" مؤسس جمهورية فيتنام الشعبية مدة ثمانين عاماً حضرت إلينا العصابات الاستعمارية الفرنسية رافعة العلم ذا الألوان المعبرة عن الحرية والمساواة والإخاء، واقتحموا إقليمنا وعصفوا بشعبنا ولم تمنحنا فرنسا أية حرية سياسية، بل وضعت تشريعات بربرية، وأنشأت السجون حتى زاد عددها عدد المدارس، وعملت على نشر الأفيون والخمور ليتمكنوا تحقير جنسنا<sup>٤٦</sup>.

٢. ويمكن القول أنه لم تنشأ دولة من دول أوروبا عن تجارة الرقيق، البرتغال أسبانيا، فرنسا، ألمانيا، السويد، وكان لإنكلترا، الحق في احتكار ومطاردة العبيد ونقلهم وبيعهم<sup>٤٧</sup> ويرى بعض الباحثين أن عدد الأزواج الذين اقتنصوا وأخرجوا من ديارهم لا يقل عن مائة مليون، لم يصل منهم إلى العالم الجديد إلا نسبة قليلة جداً، حيث كانوا يموتون سواء في البر وفي البحر وهم مكسبون في قاع السفن، أو يرمون في عرض البحر عندما تتعرض السفينة للخطر<sup>٤٨</sup>.

٣. في رسالة "سيسل رودس" الذي أسس شركة جنوب أفريقيا البريطانية يقول "أن الله يريد أن يوجد الإنسان في أحسن هيئة.. ولكي يتحقق هذا الهدف يجب أن يجد الجنس-انكلو ساكسوني-نفوذه على أكثر ما يمكنه من الأرض<sup>٤٩</sup>. إن أعلام الفكر الغربيين كافة لم يخرجوا عن فكرة السيطرة والاستلاء، فمثلاً نجد "فولتير" و"مونتسكيو" قد تحدثوا عن الحضارات، ولم يكن لديهم شك في سيادة الحضارة الغربية، وموقعها القيادي الطبيعي، وكان "فولتير" ينطلق من المبدأ العنصري في تكوين عقيدته القائلة: بأن الأزواج بالذات غير قابلين لأي تحضر.. وكان "سان سيمون" يرى أن أوروبا المنظمة وفق طريقته ستمد نعمة للتقدم<sup>٥٠</sup> إلى العالم، وتملاً

<sup>٤٦</sup> محمد مصطفى، نجيب الياس، الدول النامية ومشاكلها، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٥.

<sup>٤٧</sup> صبري أبو المجد، الاستعمار والاستغلال والتخلف، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٢٥.

<sup>٤٨</sup> محمد صبري، الإمبراطورية السودانية، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٤٨ هامش ص ٢٦٦.

<sup>٤٩</sup> شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٤٢.

<sup>٥٠</sup> حسين مؤنس، الحضارة، دراسة في أصول وعوامل قيامها وتدهورها، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨، ص ٤١.



الأرض بسكان من العنصر الأبيض، الذي هو أرقى من الأجناس الأخرى. ويرجع إلى أصل آري أو هندي أوروبي، وهذا الجنس هو الموهوب الذي ساد أهل المعمورة بامتياز. البني والذهني وأخرج عباقرة مثل زرادشت وبوذا، وأطلع العبقريّة الفنيّة عند الإغريق والعبقريّة السياسيّة عند الرومان، وأخرج آخر الأمر أهل الغرب الأوروبي. وهذا الجنس الشريف الذليل-بزعمهم- هو الذي صنع كل ما هو عظيم في حضارة البشر<sup>٥٠</sup>.

وتناول الألمان هذا اللوم. وما زالوا يحورون فيه حتى استبدلوا مصطلح الجنس الهندي الأوروبي بمصطلح الهندي الجرمانى، وجعلوا الموضوع الذي تربت فيه أحسن فصائل هذا الجنس، بوميرانيا وهي مهد بروسيا وملكها.. ولكن أرنولد تسوينبي هم هذه النظرية من أساسها بطريقته اللذة في نقد القضايا بميزان الإحصاء الذي لا يخطئ<sup>٥١</sup>.

٤. في أسبانيا التي كانت تحت الحكم العربي الإسلامي حتى عام ١٤٩٢م تاريخ سقوط غرناطة. صدر قرار ملكي عام ١٥٠١م يضع المسلمين بين خيارين: التنصر أو مغادرة أسبانيا، وبدأت حملات التنصير واستخدم العنف والشدة في معاملة المسلمين. فذلقوا صنوف العذاب والإرهاب والتمييز.. وفي عام ١٥٢٦ أصدر الإمبراطور "تشرلمان" قرارات تقضي بإكراه المسلمين على ترك ملابسهم الخاصة بهم وليس القبعات والسرراويل الأسبانية. وحضر عليهم التكلم بالعربية.. وأخذت محاكم التفتيش على عاتقها تنفيذ هذه القرارات ومطاردة المطلوبين والتفتيش عن عقائدهم وملاحقة من يمارس الشعائر والسنن الإسلامية بين "المورسكين" الذين اضطروا لإعلان تنصرهم، وأخفوا إسلامهم خوفاً من التعذيب والحرق الذي كان من الأساليب المشهورة لمحاكم التفتيش الأسبانية، وكانت محاكم التفتيش تحرق بالنار من لم تثبت نصرانيته. وحين رأى بعض الأساقفة تفاقم الأعمال الوحشية بحق المسلمين فرسلوا البابا في روما سائلين إياه عن جواز التنصر تحت التهديد بالموت والحرق، فأجابهم البابا "يوليفاس الثامن" بالفتوى- الغريبة- الآتية "التهديد بالموت لا يعد إكراهاً يبطل مشروعية التنصر، وأن الإكراه لا يكون إكراهاً إلا إذا سيق المسلم إلى المعمودية ويداه موقعتان ورجلاه مقيدتان، وكان يصيح بأعلى صوته محتجاً على هذا العمل"<sup>٥٢</sup>.

٥٠ المصدر نفسه، ص ٤٥.

٥١ المصدر نفسه.

٥٢ شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، الجزء الثاني، دار الفكر، بيروت، ط ٤، ١٩٧٣، ص ٣٧-

مقابل ذلك، عندما انتهى الحكم العثماني في أوروبا، وكما يذكر ذلك شاخنت وبوزرث: كانت الأمم المسيحية التي حكمها العثمانيون خلال عدة قرون لا تزال هناك؛ بلغاتها وثقافتها ودياناتها وإلى حد ما مؤسساتها، كل هذه الأمور بقيت سليمة وجاهزة لاستئناف وجودها الوطني المستقل، أما في أسبانيا وصقلية فليس فيها اليوم مسلمون أو ناطقون باللغة العربية<sup>53</sup>.

٥. عندما أحل نابليون مصر، أتبع سياسة براغماتية تميل إلى كثير من النفاق، فحاول التقرب من المسلمين ولبس العمامة، وصلى مع المسلمين.. وقد واجهه نابليون عدة ثورات وانتفاضات شعبية. عندها أمر بتوجيه المدافع المصوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسواق، وبدأت تلك المباني بالقنابل.. وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون بالجامع ثم دخلوا فيه، وأخذوا بأسرون من كان فيه من الثوار، ويعبثون به وبمحتوياته. وعندما ذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهاك الجامع وقتل الناس، فأخذ يلومهم ثم أعلن العفو عنهم، ولكن عفواً ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره بقتل كل من قاد الثورة أو شارك فيها، وكان من أوامره لأحد قادته: تفضل أيها القائد بأن تأمر "قومندان" للقاهرة بقطع رؤوس جميع المسجونين، ولتلقى جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر.. هكذا تصرف القائد المتتور بمبادئ الثورة الفرنسية. إذ حمل معه المقصلة (الجيلوتين) التي أصبحت من أبرز معالم الثورة الفرنسية. وأعدم عشرات من شيوخ الأزهر وطلابه دون محاكمة أو تحقيق<sup>54</sup>.

٦. أن اندحار فرنسا المشين في "ديان بيان فو" سنة ١٩٥٤ لم تضع نهاية لتصلب وظلم فرنسا في أماكن أخرى، فشاركت بالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، كما تفننت فرنسا في استخدام القسوة والتعذيب والقتل والتشريد لتحطيم إرادة الجزائريين<sup>55</sup>، وقد كلف نضال الشعب الجزائري لإخراج المستعمر البغيض أرواح مليون شهيد، في النهاية أدركت فرنسا الكلفة المادية والمعنوية، كما أدركت ضرورة الأقدام على تنازلات سياسية، لينال الشعب الجزائري استقلاله.

٧. قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين بمباركة بريطانية ومن ثم دعماً أمريكياً منذ أن بدأت الهجرة اليهودية إلى أرض فلسطين بعد مؤتمر بازل عام ١٨٩٧، وصنود وعد بلفور عام ١٩١٧ وصولاً إلى قرار التقسيم عام ١٩٤٧، وعلى

<sup>53</sup> شاخنت وبوزرث، تراث الإسلام، الجزء الأول، ترجمة محمد زهير السموهري وآخرون، سلسلة

علم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ط٢، ١٩٨٨ هـ، ص ٢٨٦.

<sup>54</sup> صلاح عبد الرزاق، المصدر السابق، ص ١١٤ - ١١٦.

<sup>55</sup> بيتروسلي، العوالم الثلاث، الثقافة والتنمية العالمية، ترجمة صلاح الدين محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧، ص ٥٤.

الرغم من أن العصابات الصهيونية منذ أن وطأت أقدامها أرض فلسطين، وأساليب القمع والقتل والتجبر وشراء الأرض بدعم بريطاني، بعد أن أخضعت فلسطين إلى الانتداب البريطاني، فلم تستطع العصابات الصهيونية أن تحصل من أرض فلسطين عشية قرار التقسيم إلا على نسبة ٦%، وقد منحها قرار التقسيم عام ١٩٤٧ (٥٦%) من أرض فلسطين.. وقد تم تشريد شعب كامل خارج أرضه، بدعم أوربي أمريكي، لتقوم أكبر جريمة في تاريخ الإنسانية. وما يزال الشعب الفلسطيني يعاني الاضطهاد والقتل والحصار بغطاء أمريكي داعم للكيان الصهيوني وتعطيل كامل للقرارات التي صدرت عن مجلس الأمن الدولي لصالح القضية الفلسطينية منها قرارات العودة والانسحاب.. الخ

### ٣- السلوك الأمريكي في ظل المتغيرات الدولية

أدت الحرب العالمية الثانية إلى اضمحلال الدور الأوربي على المسرح الدولي لحساب القوتين الكبريتين اللتين كانتا مؤهلتين ذاتياً وموضوعياً للإسهام بالأدوار القيادية وكقوى دولية أمامية مؤثرة خارج حدودهما الإقليمية.. وقد أخذ هذا الامتداد إطاراً هيكلياً تمثل على شكل حلفين رسميين هما: حلف الأطلسي وحلف وارثو.. وقد أضحت المساحة الأوربية طوال الحقبة التي امتدت إلى عام ١٩٩٠ بؤرة الصراع الجيوبولتيكي بينهما وامتدت إلى الكثير من بلدان العالم الثالث. مرحلة استمرت حوالي نصف قرن سميت بالحرب الباردة.. وفي هذه الحرب استطاع المعسكر الغربي من استنزاف المعسكر الآخر اقتصادياً وفلسفياً وصولاً إلى انهياره التام، كإعلان عن انتهاء مرحلة كاملة من مراحل الصراع الكوني من أجل القوة والسيطرة.. وأصبحت الولايات المتحدة تشكل القطب الأول في العالم. ووجدت الولايات المتحدة في انهيار الوضع الدولي الذي ماد طيلة مدة الحرب الباردة، كما فسر ذلك الانهيار انتصاراً للأفكار والفلسفة الغربية وحقوق الإنسان.. إذ عد فرنسيس فوكوياما-المفكر الأمريكي من أصل ياباني في كتابه (نهاية التاريخ) انهيار الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية انتصاراً حاسماً للرأسمالية على الشيوعية، بعد أن شخص المرحلة الراهنة في التاريخ وكأنها مرحلة انتصار نهائي للنموذج السياسي والفكري الليبرالي الذي يحظى بحسب ادعائه-بالقبول الواسع من أكبر قدر من الدول والمجتمعات في العالم<sup>٥٦</sup>. وأكد فوكوياما مرة أخرى في كتابه (الثقة) أن هناك حركة بين دول العالم نحو الأخذ باقتصاديات السوق والانماج في التوزيع الرأسمالي العالمي

<sup>٥٦</sup> فرنسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، دار الحضارة الجديدة، بيروت، ١٩٩٣، ص ١٢.

لليد للعامة وتكون هذه الحركة نهاية التاريخ وتطور المجتمعات الإنسانية التي تسير نحو الهدف النهائي هو النظام الرأسمالي الليبرالي<sup>٥٧</sup>. كما شن الغرب الرأسمالي بالتحالف مع الصهيونية العالمية، هجمة شرسة ضد العرب والإسلام بدعوى الإرهاب والتطرف والتخلف، وجاءت هذه الهجمة بعد إنهيار المعسكر الاشتراكي واكتشاف الحضارة العربية الإسلامية وجهاً لوجه أمام المعسكر الرأسمالي الغربي، خاصة بعد أن أعلن منظروه حتمية التصادم، وأن الإسلام يكون تحدياً وعامل صراع مستقبلي حاد لذلك دعا الأمريكي من أصل يهودي "صموئيل هنتغتون" إلى كبح تطور القوة العسكرية التقليدية وغير التقليدية للبلدان الإسلامية<sup>٥٨</sup>.

تحت هذه الذرائع تم محاصرة العراق ثم احتلاله. وكان احتلال العراق شكلاً عدوانياً صارخاً على الشرعية الدولية، كما هو حال احتلال العراق للكويت وقد عد ذلك نقلة خارج قيود الشرعية الدولية التي تعزز وتؤكد احترام القانون الدولي العام. وتجنيب للبشرية الآلام والمآسي والدمار وإرجاع الجهود التي بذلتها الإنسانية لإرساء مبادئ القانون الدولي العام عقوداً إلى الوراء.

**الخاتمة**

إن مبادئ الإسلام استطاعت أن تبني أمة، واستطاعت أن ترسخ قيم وأخلاقيات ليس بين العرب المسلمين فحسب وإنما في التعامل مع الغير أفراداً أم أمم.. كما استطاعت هذه القيم أن تصمد بوجه الهجمة الشرسة التي يشنها الغرب الاستعماري بالتحالف مع الحركة الصهيونية العالمية لإسقاط هيبة الإسلام اجتماعياً وسياسياً، ومحاصرة العرب المسلمين بألوان التهم والافتراءات المفضوحة. كما نجد أن في طروحات مفكرهم ماضياً وحاضراً فيها نوع من الإقصاء والعنصرية أو تعدي بدعوى نهاية التاريخ أو صراع الحضارات وغيرها من الأفكار التي تؤكد على النظرة الاستعمارية وشعارات زائفة لا يسترها الإعلام الخادع. فاهتمام الولايات المتحدة والغرب بقضية حقوق الإنسان والديمقراطية لا تثبت أمام الحقائق في تعامل هذه الدول مع الكيان الصهيوني ودول كثيرة أخرى، فهو يتعامل مع هذه القضية بنوع من البرغماتية والانتهازية السياسية التي تتجلى أبرز صورها في المعايير المزدوجة التي تطبقها بهذا الخصوص، وعدم تردها في التضحية بمبادئ حقوق الإنسان والديمقراطية في حالة تعارضها مع مصالحها الاقتصادية والتجارية.

<sup>٥٧</sup> فرانسيس فوكوياما، الثقة، مركز الأملات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ١٩٩٨، ص ١٥.

<sup>٥٨</sup> صموئيل هنتغتون، صدام الحضارات، إعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبود أبو شهيرة ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلام، بغداد، ١٩٩٦، ص ٣١٩.

## الاعلام الاسلامي... وتحديات المستقبل في "ظل النظام الدولي الجديد"

الاستاذ المساعد الدكتور

عبد الامير محسن جبار<sup>(١)</sup>

### مقدمة:

على امتداد تاريخ البشرية كان الاتصال: هو النشاط الإنساني الأهم لحياة الإنسان وتفاعله مع أخيه الإنسان في إطار بيئته. وإذا كانت البشرية قد عرفت وسائل اتصال مختلفة، فإن هذه الوسائل -على تنوعها- كانت السبيل لتحقيق التواصل الإنساني للتعبير عن حاجاته الأساسية في المعيشة والتفاعل والتكيف مع البيئة وحل النزاعات وكانت كذلك سبيلاً للتعبير عن الذات. وأصبح حق الإنسان في الاتصال من الحقوق الثابتة التي اقرتها الدساتير والمواثيق الدولية.

فميثاق الأمم المتحدة يقر على احترام حق جميع الشعوب في المشاركة في تبادل المعلومات على المستوى الدولي على أساس الإنصاف وتكامل المصالح فضلاً عن اقراره حق كل أمة في استخدام مواردها الخاصة من المعلومات لحماية سيادتها والدفاع عن قيمها السياسية والأخلاقية والثقافية وإطلاع العالم على مصالحها وتطلعاتها.

وفي عالم اليوم، أصبحت وسائل الاتصال الجماهيري والمعلوماتية تهيمن على حياة الإنسان، فالراديو والتلفزيون في كل مكان وهما معاً دائماً إذ تستمع الملايين إلى الاخبار والاعلانات التجارية نفسها وتشارك شخصيات المسلسلات المعانة والانتصار للحق والفضيلة، ان وسائل الاتصال تؤثر في خلق اتجاهات المجتمع وبمساء الاطر السياسية والتلاعب بالحالة النفسية للشعوب فوسائل الاعلام تغير دورة الحرب بالزعامات وتحط وترفع من قدر شخص دون أخرى من خلال توجيه انتباه الملايين إلى الحدث نفسه وبالطريقة نفسها في نفس زمن حدوث الحدث.

وفي ظل هيمنة الغرب وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية على وسائل الاعلام العالمية وتوجيهها لثورة الاتصال والمعلوماتية حسب خططها المدمرة لامتلاك ناصية العالم وفرض نظامها العالمي الجديد الموسوم (بالعولمة)، فإنها تفرض نظريتها الحضارية الأوحده بالغاء الحضارات الأخرى من خلال خلق الصراعات المفتعلة.

(١) معاون عميد كلية العلوم السياسية -الجامعة المستنصرية.

### الهدف من البحث:

يهدف البحث الى رصد جملة تحديات يواجهها الخطاب الاسلامي فسي حقن الاتصال الجماهيري في الالفية الثالثة، بعد ان وضعت الامبريالية العالمية فسي قصة اولوياتها.. والتصدي له بأعتباره العدو رقم واحد بالنسبة لها. وحاولنا الاشارة الى الاضرار التي تصيب الامة الاسلامية من جراء تشويه صورة الاسلام والعرب المسلمين في خلق صورة نمطية لهم مرادفة للارهاب والعنف في كافة وسائل الاعلام العالمية.

### اولاً: مفهوم الاعلام الاسلامي

اختلف الاعلاميون والباحثون في مجال الاعلام والاتصال في وضع صيغة محددة اعريقية لمصطلح الاعلام الاسلامي، وان اتفقوا على بعض العموميات التي تصب جميعها في جملة واحدة هي نقل الحقائق حول قضية من القضايا بهدف تشكيل رأي عام او قريباً منها.. ولم يستطع احد فرض تعريف معين.

ولعل التعريف الاقرب الى الشمولية هو الذي بنص على ان الاعلام الاسلامي (هو اعلام بالخير لكي نتبعه واعلام بالشر كي نتقيه او نحذر منه).

وهذا التعريف بهذه العبارة الموجزة استطاع ان يوظف الاعم لخدمة المجتمع، من خلال خصال الخير والشر التي لا يخلو منها أي مجتمع.. ونخلص الى القول ان الاعلام الاسلامي هو "امر بمعروف ونهي عن المنكر".

وهذه الرسالة انبياء الله ورسله لجميع الثقطين، يقول الله سبحانه وتعالى (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) ويقول سبحانه (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون).

وعلى هذا التعريف تستطيع ان تتخطى تحت سقفه كل دعوة اسلامية سابقة باعتبارها لبنة في صرح الاعلام الاسلامي منذ بدء الرسالة للمحمدية الي يومنا هذا.

ولكن ينبغي ان نوجز رسالة الاعلام الاسلامي اليوم بأنها تقديم رسالة اعلامية دينية ذات مضامين هادفة تتبع من القيم والمفاهيم الاصلية وتنهض بالوعي العام فسي المجتمع من خلال اهداف اسلامية وحضارية وانسانية في طليعتها الحفاظ على الهوية الاسلامية وتعزيز الوحدة الاسلامية.

ولو شئنا لقنا ان الاعلام الاسلامي هو كل رسالة منطوقة او مكتوبة او مرئية يتاح نشرها للجمهور عبر وسائل الاعلام الجماهيرية تستمد مادتها من كتاب الله (القرآن الكريم) والمسة النبوية الشريفة مؤكدة النهج الاسلامي القويم الصالح ونقل التراث الحضاري للامة الاسلامية.

### ثانياً: الاهداف العامة للاعلام الاسلامي

ان ما نقدمه هنا ليس سوى قراءة لولية لواجبات الاعلام الاسلامي في مواجهة التحديات المستقبلية التي تواجهها الرسالة الاعلامية في بدء الالفية الثالثة للبشرية، ويمكن تلخيص اهداف اساسية تنطلق منها أي رسالة اعلامية دينية:

١. النهوض بالاعلام الديني مقروءاً او مسموعاً او مرئياً والاستفادة من القدرات والامكانيات والادوات الاعلامية المتاحة.

٢. التوعية بالمفاهيم والقيم الاسلامية في مختلف مجالات الحياة والسعي للالتفاف حولها والمساهمة في تكوين المواطن القادر على تحمل المسؤولية تجاه نفسه ودينه وبيئته واكسابه القدرة على وقاية نفسه وتحصينها والالتزام بقيمه وثوابته الاسلامية.

٣. دعم وتنمية التواصل التفاعلي مع جميع شرائح المجتمع عن طريق مختلف الوسائل الاعلامية بما يسهم في احدث تغيير ايجابي وتكوين الاتجاهات الصحيحة من منظور حضاري اسلامي واستثمار كل معطيات العصر لخدمة قضايا الاعلام الاسلامي.

٤. رصد اهم القضايا والاحداث المثارة على الساحة المحلية والدولية التي تدخل في دائرة الاهتمام الاعلامي الاسلامي وتصميم رسائل اعلامية مناسبة للتعامل معها.

٥. الرد على حملات التشويه والنس الممتثلة في التعامل على الاسلام والمسلمين من خلال وسائل الاعلام المختلفة.

### الخطاب الاسلامي وتحديات النظام الدولي الجديد:

مع انتهاء عقد الثمانينات وبداية عقد التسعينات (أي مع انتهاء العقد الاول من القرن الخامس عشر الهجري) حدث ما لم يكن في الحسبان... حيث ان الدراسات والتحليلات التي بدأها كل من (كارل ماركس) و(فردريك انجلز) وتبناها اصحاب المعسكر الشرقي... والتي كانت تتوقع انهيار المعسكر الرأسمالي تطبيقاً للجدل المادي والتاريخي، فلبت المعلن على صاحبه واذا صرح للمعسكر الشرقي واذا بالمتفكك عرى الاتحاد السوفيتي.

وبعد خروج الكتلة الشرقية من حلبة الصراع تباهت (الامبريالية العالمية) بالهيمنة الزامة وبرزت الولايات المتحدة الامريكية كقوة عظمى وحيدة في العالم ومن هنا انبثقت فكرة (النظام الدولي الجديد) هذه الفكرة التي كان لها نظير الى حد ما في اعقاب الحرب العالمية الاولى، حيث انهارت الامبراطورية العثمانية وفي اعقاب

الحرب العالمية الثانية حيث بروز الكتلتين... ولكنها هذه المرة وفي اعقاب انتهاء الحرب الباردة تتضمن تحدياً للوجود الاسلامي-حضارة وكياناً. ان منظري الصراع في الغرب بعامة وللولايات المتحدة الامريكية بخاصة طرخوا (الاسلام) باعتباره الخطر الجديد القادم من الشرق الذي يهدد الحضارة الغربية، وتغفن مروجو هذه النظريات في تشويه صورة الاسلام وتاريخ الحضارة العربية الاسلامية وفي التخويف من الصحوة الاسلامية التي سموها (الاصولية) والخلط بينها وبين (التطرف الديني) وفي وضع شرائط مشاهد حول المواجهة الحتمية القائمة بين الحضارتين الغربية والعربية الاسلامية، وقد نظمت قوى الهيمنة الدولية (المهيمنة للقلب والقالب) حملة قوية دعائية اعلامية لتقويم ذلك كله<sup>١</sup>. وامام هذا التحدي الخطير، يتناصب الى خطاب اسلامي يتناسب ومتطلبات النظام الدولي الجديد. ففي مطلع القرن الخامس عشر الهجري تزايد الاهتمام بالفعل بعقيدة الاسلام وشرعيته ومرعة انتشاره في العالم المعاصر.

ولكن كيف تطور الخطاب الاسلامي (الرسالة الاعلامية)؟

في طليعة ما يجب الالتزام به هنا هو المعاصرة، فان العصر الذي نعيش فيه عصر التقدم العلمي والتكنولوجي البالغ الى قمته، ومن امثلة التأكيد على عامل المعاصرة: ان النبي (صلى الله عليه وسلم) اقترح على المسلمين في بداية الدعوة ان يهاجروا الى ارض الحبشة، مبيناً لهم السر في ذلك بقوله: "لو خرجتم الى ارض الحبشة فان لها ملكاً لا يظلم عنه احد وهي ارض صدق حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما انتم فيه"<sup>٢</sup>.

ولنتأمل في لغة الحوار الذي استعمله (جعفر بن ابى طالب) امام النجاشي ملك الحبشة في مجلس ضم الاساقفة والمسلمين المهاجرين، يذكر فيه حسنات الاسلام ومساوى الجاهلية، الى ان قرأ عليهم صدرنا من سورة مريم، فبكى النجاشي حتى اخضلت لحنيته وبكى الاساقفة، وينتهي الحوار بقول (النجاشي) (ان هذا والذي جاء به عيسى، يخرج من مشكاة واحدة)<sup>٣</sup>.

وبرز اهمية (المعاصرة) في مسايرة معجزات الانبياء لجنس الخبرات والمهارات الشائعة في كل عصر، فكانت معجزة اليد البيضاء والعصا (الموسى عليه السلام) لان الشعر والمحر كان شائعاً في ذلك الزمن، وكان ابراء (المسيح عليه السلام) الاكمة والابرص واحياء الموتى في عهد تقدم فيه الطب والعلاج، كما ان

<sup>١</sup> فريد النقاش، حول التبعية الثقافية والاعلامية وامكانيات الخروج منها، مجلة ادب ونقد، العدد السابع، السنة الاولى، ١٩٨٤، ص ٥٠-٤٩.

<sup>٢</sup> ابن هشام، السيرة النبوية ٣٣٤/١ وما بعدها، وابن كثير، السيرة النبوية ٩/٢-١١.

<sup>٣</sup> ابن كثير، السيرة النبوية، ٩/٢.



معجزة القرآن البلاغية والبيانية كانت في مواجهة البلغاء من العرب الذين كانوا يتفاخرون بأنهم سادة الفصاحة وفرسان البيان، نحن-نحن-بحاجة الى ادخال الاساليب العصرية في خطابنا الاسلامي كي نكون بمستوى التحدي.

وهناك عامل آخر لا يقل اهمية عن العامل الاول وهو البعد عن المثيرات مع الحفاظ على المبدأ، واعتماد اسلوب الدعوة الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي احسن، ان ايعاء صوت الحق هذا هو جهاد في احدى صوره الحية او لعل ادل من صرح بذلك في عصورنا المتأخرة هو الشيخ (محمد عبده) مفتي الديار المصرية ومن كبار رجال الاصلاح والتجديد في الاسلام المتوفي سنة ١٣٣٣هـ ولنسمع اليه يقول "القتال في سبيل الله هو القتال لاعلاء كلمته وتأييد ونشر دعوته والدفاع عن حربه كيلا يغلبوا على حقهم ولا يصدوا عن اظهار امرهم. فهو اعم من القتال لاجل الدين، لانه يشمل مع الدفاع عن الدين وحماية دعوته، للدفاع عن الحوزة اذا هم الطامع المهاجم باغتصاب بلادنا ولتتمتع بخيرات ارضنا او اراد لعدو بساغي اذلانا والعدوان على استقلالنا فالقتال لحماية الحقيقة كالقتال لحماية الحق كله، جهاد في سبيل الله".<sup>٤</sup>

(انن للذين يقاتلون بانهم ظلموا، وان الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق، الا ان يقولوا ربنا الله...)<sup>٥</sup>.

### ثالثاً: ضوابط الرسالة الاعلامية (الخطاب الاسلامي)

١. الاحاطة التامة بالفكر الاسلامي بالنسبة للقائمين على توجيه الاعلام الاسلامي فان قيام من لم يستوعب حقائق الاسلام ولم يتعمق في شؤون الفكر الاسلامي بذلك، فان ضرره لكثير من نفعه.

٢. الدعوة عن بصيرة وتوجيه الرسالة الاعلامية الى الجمهور على قدر عقولهم، فقد قال علي (عليه السلام): "خاطبوا الناس على قدر عقولهم، اتحبون ان يكذب الله ورسوله".<sup>٦</sup>

٣. اعتماد الحوار الهادئ والنقاش الحر والرفق في الدعوة تحقيقاً للتعليم القرآني (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك).<sup>٧</sup>

٤. الرد على الشبهات بالمستوى اللائق، خصوصاً الدعايات السيئة التي تبث ضد الاسلام وذلك بمهارة تامة كمل يفعل الطبيب الحاذق.

<sup>٤</sup> تفسير المنار، ج ٢، ص ٤٦١.

<sup>٥</sup> سورة الحج، ٣٩-٤٠.

<sup>٦</sup> أخرجه البخاري من صحيحه.

<sup>٧</sup> سورة آل عمران/١٥٩.

ان الاعلام الاسلامي هو احد اهم قنوات الدعوة الاسلامية الداعية الى اتباع الحق وبهذه الدعوة الصادقة يجب ان لا تبثها الا الامن الطاهرة والاقلام الصادقة ولا يتحمل مسؤوليتها الا ذوو الهمم العالية والنفوس الطيبة الذين يبتغون مرضاة الله وراعون حدوده واحكامه ممثلين قول الحق عز وجل (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم)<sup>٨</sup>.

لذا فان الاعلام السياسي جزء من منظومة النظام العام الساعي لتحقيق مصالح الناس وسعادتهم وهو بهذا التوجه لا بد ان يصاغ صياغة متزنة تتوافق وذلك النظام، ويتسجم مع كل معطياته الفكرية والسلوكية، كي لا يحدث صدام بين جزء واخر في داخل النظرية الواحدة.

كما ان (الاعلام الاسلامي) لا بد ان يبتعد عن اسلوب الخطاب غير المتوافق مع طبيعة الشمولية-او الخطاب الذي يوجهه فكر ضيق لم يستوعب بعد مفهوم (خطاب النخبة) فيبقى محدود الجمهور، متقوقع الوجه، سلبي للطاء<sup>٩</sup>.

#### رابعاً: الاعلام الاسلامي.. ومواجهة التحديات

ان الحديث عن التحديات التي تواجه الاعلام الاسلامي يجعلنا نؤشر جملة من العوامل التي هي في حقيقتها كوابح وضغوط تقف في مواجهة الاعلام تثبط من عزمه وتحول دون تأديته لرسالته على اكمل وجه، وهذه التحديات كانت قائمة في نهاية القرن العشرين وامتدت الى القرن الواحد والعشرين ويمكن اجمالها كالآتي:

١. تحديات سياسية: وهي تتمثل بمجموعة القضايا الكبرى التي تواجه الاعلامي ويأتي على رأسها الاحتلال الصهيوني لفلسطين، والتجزئة وما ينتج عنها من نزاعات اعلامية عربية-عربية وعربية اسلامية وقضية الديمقراطية والحريات السياسية في اقطار الامة الاسلامية وقضايا التنمية والتبعية.
٢. السيطرة الحكومية والقانونية: تتمثل بالقوانين والتشريعات القابضة المنظمة لاعلام واللوائح المنظمة للمؤسسات الاعلامية والقوانين التي تكفل او تحد من الحريات وهذا يؤثر مسألة حرية وسائل الاعلام، وديمقراطية الاتصال.
٣. تحديات تمويلية واقتصادية: وهي تتمثل بمجموعة ضغوط وتأثيرات مباشرة وغير مباشرة في الاعلام كالممول والمستهلك (للجمهور) والتوزيع ومحدودية السوق.

<sup>٨</sup> سورة النحل، آية ١٥٥.

<sup>٩</sup> سيد محمد الشنقيطي، دراسات في الاعلام الاسلامي والرأي العام، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٧.

٤. تحديات مجتمعية: وتتمثل بالمستوى التعليمي والثقافي للمجتمع او ما يمكن تسميته بالامية التعليمية والامية الثقافية، وتثير هذه التحديات مسألة تأثير الاتصال في المجتمع.

٥. تحديات تكنولوجية: تشكل المنافسة والتكنولوجية الاعلامية وما يرافقها من تدفق للمعلومات شكلا من اشكال التحديات الدائمة للاعلام من حيث قدرتها على مواكبة التطورات التكنولوجية للصمود بوجه المنافسات الاعلامية المحلية والاقليمية والدولية<sup>١٠</sup>.

ان هذه العوامل لا يمكن فصلها، فهي عوامل ديناميكية متفاعلة لانها ترتبط بعملية الاتصال وتشكلها، ولكننا سنركز بحثنا على التحدي الاخير لما يشكله من خطورة نلمسها يوميا وهي نقصا بخطى سريعة تعجزنا احيانا عن اللحاق بها.

#### خامسا: التبعة الاعلامية في ظل النظام الدولي الجديد

هناك ثورة جديدة في الاتصال والاعلام الدولي بدأت منذ منتصف السبعينات توجب عليها تغيير النظرة الى تكنولوجيا الاعلام وسياسته ونظرياته. جعلت المعاصر يعتمد اعتمادا كبيرا على اساليب ووسائل الاعلام في نقل الحقائق او انصافها او تشويهها الى الجمهور، وتقوم بهذه العملية مؤسسات ضخمة قد تكون مملوكة للدولة او لمؤسسات تستعين باجهزة متطورة وفعالة كالصحافة والاذاعة والتلفاز وغيرها.

ولا نتوقع في القرن القادم ان يتم انصاف بشأن التوازن في تدفق الاتصال بين دول الشمال والجنوب. وستظل مسألة تدفق الاتصال الحر باتجاه واحد من الشمال الى الجنوب ذات سيطرة على سوق المعلومات العالمية. وسيظل البون للشاسع موجودا في تكنولوجيا الاتصال ويشير تقرير ادارة (شؤون المجتمع الدولي) الى ذلك بالقول.

"على الرغم من انه حدث توسع هائل في المدى الذي تصل اليه بعض وسائل الاتصال نظل اوجه اختلاف خطيرة فيما يتعلق بفرص الوصول الى المعلومات وفي توزيع حتى التكنولوجيا الاكثر اساسية، فلا يزال نحو مليار نسمة اي ما يزيد على ثلث عدد السكان في العالم يفتقر الى الكهرباء، وفي عام ١٩٩٠ كان عدد خطوط الهاتف المتوفرة في بنغلادش والصين ومصر والهند واندونيسيا ونيجيريا مجتمعة اقل منه في كندا التي يعيش بها ٢٧ مليون نسمة فقط، وينكرر هذا التفاوت في ملكية اعمار الاتصالات وهي الاساليب في عولمة وسائل الاعلام"<sup>١١</sup>.

١٠ صالح ابو اصبح، تحديات الاعلام العربي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٩، ص ٨٩.

١١ شريف درويش النبان، تكنولوجيا الاتصال، المخاطر والتحديات، الدار المصرية للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٥٣.

ويرى كبير مهندسي شركة MCI فريد بريجز ان شبكة الهاتف مثلا اخذت مائة سنة لتصبح على ما هي عليه الان، اما شبكة الانترنت فانها ستأخذ المستوى نفسه خلال خمس سنوات فقط، ويؤكد (جوشوا كوير رامو) بأنه يمكن تتبع بسهولة وبمنطق بسيط بان شبكة الانترنت ستكون قوتها مائة ضعف عما عليه هي الان كأداة معلوماتية اعلامية في نهاية القرن العشرين<sup>١٢</sup>.

وفي هذا السياق فان الغرب الذي فقد خصمه التقليدي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سوف يزد من حدة عدائه لعدو جديد مصطنع ممثلاً بالاسلام وصحوته الاعلامية، ويجد الخبراء الاعلاميين ان الاسلام سيكون محوراً رئيساً من محاور النقاش والجدال عبر شبكات الانترنت. وبالطبع نتوقع من وسائل الاعلام الغربية ان تستمر في تشويه الاسلام وتشويه الشخصيات العربية والاسلامية المؤثرة على الساحة امعاناً في تحيزها المفضوح الى جانب الكيان الصهيوني ضد العرب. فالدول الصناعية الغربية تمتلك عادة اكثر وسائل الاعلام تطوراً وتتوفا لهذا فقطاعها الاعلامي اكثر انتشاراً. بينما تعاني الدول النامية من ضعف في الصناعات الاعلامية فهي محدودة الانتشار.

كما ان وسائل الاعلام في الدول النامية تتميز بالانتشارها غير المنظم فوسائل الاعلام الحديثة مركزة في المدن وتقل نسبة المعلومات كلما بعدنا عن المدن (وبالرغم من حصول اكثر دول العالم على استقلالها السياسي فان الثابت في واقع الخريطة الاعلامية الدولية يشير الى حقائق مؤلمة وتكريس الهيمنة الاعلامية والسياسية نتيجة هذا الاختلال الكبير في وسائل الاعلام)<sup>١٣</sup>.

فلا بد من الاعتراف بأنه هناك عدداً محدداً من الوكالات الدولية تسيطر على بث الاخبار وتداولها، وتملك امكانيات ضخمة تغطي العالم كله وهي (وكالة الاسوشيتد-پرس) الامريكية و(اليونيتد انتر ناشيونال) الامريكية ووكالة الانباء الفرنسية ورويتر البريطانية ووكالة تاس. حيث تمتلك هذه الوكالات والصحف والاذاعات المرئية والمسموعة حيث تشكل شبكة لخطبوطية مهيمنة بنوع الاخبار وبثها وصياغتها فهي تحتكر سوق الاعلام على المستويين الدولي والاقليمي.

وقد اسفرت هذه الظاهرة عن ظهور لختلال واضح يطلق عليه (التدقيق في اتجاه واحد) من الدول المتقدمة الى الدول النامية أي من الدول التي تمتلك القوة التكنولوجية الى الدول الاقل تقدماً.

<sup>12</sup> المصدر نفسه، ص ٤٥.

<sup>13</sup> احمد بدر، الاعلام الدولي، دراسات في الاتصال والدعيا الدولية، القاهرة، ١٩٧٧ بتصرف.

ومن ثم يتلقى العالم ٨٠% من الأنباء من لندن وباريس ونيويورك في حين لا تخصص وكالات الأنباء للرئيسة الا ما بين ١٠% الى ٣٠% من انبائها للعالم النامي كله باحداثة وفعالياته.

فقد وجه احد الباحثين الغربيين الذي قام بمقارنة الاخبار الخارجية في جرائد نيويورك تايمس ولندن تايمس والومون ان دول العالم الثالث لا تحظى الا بتغطية هزيلة<sup>١٤</sup>.

وتشير احدي للدراسات الاعلامية المقدمة لجامعة الدول العربية الى انه خلال المدة بين عام ١٩٧٣ الى ١٩٨٠ روجت وكالة الأنباء العراقية لوكالات الأنباء العالمية الخمس (١٤٥) ألف و(١٠٨) خبراً في حين لم رتوج (واع) خلال نفس الفترة لوكالات الأنباء العربية سوى (٤١) ألف و(١٨٤) خبراً، ولمجموع وكالات العالم الاخرى التي تجاوز عددها عن مئة وكالة لنباء سوى (١٠) الاف و(١٧١) خبراً بينما تشير الدراسة الى تجاهل وكالات الأنباء العالمية وكالة الأنباء العراقية فقد تبين انه في خلال ثلاث سنوات بثت واع (٥٥) الفا و(١٢٢) خبراً للوكالات العالمية الخمس في حين لم تروج هذه الوكالات لواع سوى الفين و(٤٣٠) خبراً. أي بنسبة ٥% من كمية الاخبار التي روجتها الوكالة العراقية لهذه الوكالات<sup>١٥</sup>.

وهذا ما جعل الدول النامية دائماً في موقف الملتقي للاخبار والمعلومات وكانت دائماً ضحية تشويه شديد بسبب التغطية الاخبارية التي اتسمت دائماً بانعدام التعاطف بل والزرعة للتمييز.

وما يزيد الخطر تفاقمًا ان وسائل الاعلام ووكالات الأنباء الدولية واقعة في دائرة احتكار ثلاث دول غربية تتزعمها الولايات المتحدة الامريكية الامر الذي يجعل في ايديهم القدرة على تحديد وتقدير ما يراه ويقراه ويسمعه العالم من لنباء دولية.

ولم تقتصر السيطرة للغربية على المضمون الاعلامي بل امتدت الى امكانيات نقل المعلومات عبر الحدود الوطنية من خلال الاقمار الصناعية مما عمق كثيراً من التناقض الحر للمعلومات.. ولم تحاول الولايات المتحدة الامريكية اخفاء مفعوماً حول مسؤوليتها كقوة عظمى على الاعلام الدولي، فهي تعد الاعلام من الامور التي لا غنى عنها وان تحفظ لنفسها بحق الاشراف على التسهيلات الفنية للاتصال الدولي وعلّة مضمون الاعلام المتفق.

وننقل هنا قول هو بمثابة (وشهد شاهد من اهلها) فالعالم الامريكي هربرت آز شيلر ينتقد بيئة وسائل الاعلام الامريكية بقوله: "ان الاتصال الجماهيري اصبح الان عماد المجتمع الامبريالي المساعد فالرسائل الاعلامية التي يتم تصنيعها في امريكا تبث

<sup>١٤</sup> شون ماكبريد، اصوات متعددة وعالم واحد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨١، ص ١٠٤.

<sup>١٥</sup> المصدر نفسه، ص ١٠٥.

اشعاعها الى الدول وتمثل القاعدة الحيوية لقوتها وتوسعها. بينما نجد ان التصورات العقائدية التي يحلم بها الفقراء هي حبيسة في سجون وسائل الاعلام الامريكية"<sup>١٦</sup>. ولقد لخص لوجه هذا الخطر، احد الخبراء الاعلاميين الغربيين (ستيفنسون شو) بالنقاط التالية<sup>١٧</sup>:

١. يقوم الغرب بتحديد اخبار العالم وتحريفها واستبعاد قيم العالم الثالث غير الغربية منها. وهذا يعني بانه يتم فرض قيم الغرب ويتم عرض صور التطور الثقافي لدول العالم الثالث من خلال عيوب الغرب واختياراتهم (وغربلتهم).
٢. وهذه الغربية الثقافية تستبعد كثيراً من دول العالم الثالث التي ليس للغرب مصالح لنية فيها.
٣. ان القليل من المعلومات التي تنفذ من العالم الثالث الى نظام الاخبار العالمي هي اخبار تؤكد على لوجه التمزق في العالم الثالث.
٤. تقوم وسائل الاعلام الغربية بنقل معالجة محرفة ومليئة للعالم الثالث والتي تنتقل الى دول العالم الثالث نفسها نظراً لاعتمادها بشكل رئيس على وكالات الانباء الغربية.

#### سادساً: وسائل الاعلام الغربية وتشويه قضايا العرب والمسلمين

نشرت احدى اكثر الصحف شعبية وتوزيعاً في بريطانيا تغطية لحادث تفجير لم يعرف بعد مسبباته وحملت ضد صفحتها الاولى (وقيل ان يعرف مرتكب هذه الجريمة) صورة رجل اطفال يحمل طفلة قتيلة من ضحايا الحادث وفوق الصورة عنوان بارز يقول: باسم الاسلام!!.

هذا المثال يعكس مدى سوء الفهم والعداء وردود الفعل اللاعقلانية ضد العرب والمسلمين حيث تقدم وسائل الاعلام الغربية صورة الاسلام على انه مرادف للتخلف والعنف والارهاب ومعاد لحقوق الانسان وحقوق المرأة، بل ان التغطية الاعلامية السائدة في الغرب للعرب والمسلمين تصورهم على انهم يشقون العنف والدم. يقول المؤرخ رونالد ستيل: "ان الامريكيون يعتقدون ان المسلمين هم اناس غاضبون جداً ليس لهم مطالب محددة يحركهم الكره لأمريكا ولإسرائيل ولاعداء الاسلام ويشكون تهديداً للحضارة الامريكية ولمهمتها العالمية والتي تجسد في تحقيق العولمة"<sup>١٨</sup>.

١٦ جيهان رشتي، الاسس العلمية لنظريات الاعلام، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠١، ص ١٩٦.

١٧ المصدر نفسه، ص ١٩٩-٢٠٠.

١٨ محمد حسنين هيكل، الصورة العربية في وسائل الاعلام الغربية: كيف يمكن تحسينها، من كتاب الاعلام الغربي والعرب، أبحاث ومناقشات ندوة الصحافة الدولية، لندن، ١٩٧٩، ص ١٧-١٨.

يرى محمد حسنين هيكل: "ان جذور تشويه صورة العرب والمسلمين وسائل الاعلام الغربية يعود في بعضها الى اسباب تاريخية نتيجة عدم الثقة والخوف المتبادلين بين العرب واوروبا نتيجة نزاعات رئيسة كالاسلام والامبراطورية للرومانية الشرقية والصليبيين نتج عن ذلك علاقات بين العرب والغرب امتازت بالحاساسية الاقتصادية والعسكرية والدينية"<sup>١٩</sup>.

وبالطبع ساهمت وسائل الاعلام الغربية الى حد كبير في تعميق سوء الفهم بتشويه صورة الشخصية العربية والاسلامية فهي احد اهم مصادر التضليل الاعلامي ضد العرب.

يقول اريك رولو الصحفي الفرنسي اليهودي الشهير (اعترف بالتحيز ذلك ان معشر الصحفيين متحيزون بطريقة او بآخري).

هذا التحيز الاعلامي له عواقبه السياسية والاقتصادية الوخيمة حيث استخدم التضليل الاعلامي ذريعة للانشطة واتخاذ القرارات السياسية والاقتصادية الاوروبية والامريكية ضد العرب والمسلمين في المحافل الدولية<sup>٢٠</sup>.

كما ساهم في وضع معالم للشخصية العربية في الادبيات والمؤسسات الغربية في صورة نمطية تشوه حضارتها وثقافتها. وهذه الصورة النمطية هي نتيجة حتمية لمحاولة الغرب على ابقاء صورة العربي والمسلم في صورة نمطية جامدة هي حصيلة تراكمية لهجوم قديم موجه ضدهم بتشويه العربي والمسلم بالفقر والوسخ والسلطان السمين وربطه بالحريم والجواري والمتاجرة بالعبيد والارهاب الدولي.

ويرى انوار موتايمر: "ان الجمهور الغربي بدلا من ان يبدأ في الفهم والتعاطف مع مختلف الشعوب المسلمة، فانه يثبت رؤية لهم بأنهم همجيون غامضون غير عقلانيين وسلوكهم محكوم بقانون اخلاقي بدائي وسري وغير مؤهلين للمشاعر الانسانية"<sup>٢١</sup>.

ولقد انعكست صورة التشويه للاسلام والمسلمين -العرب خير من يمثله في الآلة الاعلامية الغربية- في دراسات المستشرقين ودراسات الاكاديميين. وقد انعكست هذه الصورة على الطريقة التي بها تم تقديم الاسلام في الغرب. لا يقيم الاسلام دوماً على انه تهديد للغرب والحضارة الغربية<sup>٢٢</sup>.

وهذا الموقف من الإسلام والمسلمين.. يمثل اكبر التحديات التي تواجه الاعلام الإسلامي.

<sup>١٩</sup> المصدر نفسه، ص ١٢٣.

<sup>٢٠</sup> جون مارتن، الحكومات الأوروبية وتضليل الرأي العام، جريدة الاتحاد، ١ تشرين الثاني ١٩٨٨.

<sup>٢١</sup> المصدر نفسه.

ولا يقتصر التشويه على الاعلام المقروء والمسموع والمرئي فلقد امتدت اصابع التضليل الغربية الى أحدث وسائل الاتصال الجماهيري ونعني بها شبكة الانترنت.

وفي صيف عام ١٩٨٨ قامت إحدى المنظمات المشبوهة من خلال شبكة الانترنت بمحاولة لتشويه القرآن الكريم. حيث طالبت هذه المنظمة من زوار موقعها على الانترنت بتأليف سور تحاكي السور القرآنية الكريمة في محاولة منها لاقناع جمهور الشبكة العالمية بأن القرآن ليس معجزة الهيبة من عند الله عز وجل، بل هو من صنع البشر!!<sup>٢٢</sup> وبعد كم الاحتجاجات الهائلة من قبل المسلمين للمستخدمين للشبكة العالمية لهذه المنظمة مع ما تبثه من افكار هدامة وتسيء للإسلام، اعلنت شركة (امريكا لوم لاين) (Ameruca On Line) التي تدير الانترنت رفضها بث افكار هذه المنظمة.<sup>٢٣</sup>

ورغم ما تثيره هذه المحاولة للذيل من عقيدة الاسلام من غضب واستياء في نفوس المسلمين.. الا انها تمثل لذاراً مباشراً بينها الى اننا لم نعد الاعلامي الاسلامي المناسب للتعامل مع تقنيات القرن القادم، والذي يتمتع بفهم جيد للإسلام ويتحدث لغة اجنبية بطلاقة. ويستطيع استخدام تكنولوجيا الحسابات الرقمية، ويمكن له ان ينفذ الى مثل هذه المواقع على الشبكة العالمية، ويعد الرد المناسب على ما تبثه من اكاذيب ودعوي مضللة.

ورداً على هذه المحاولات.. قاد د. محمد سيد طنطاوي شيخ الازهر بتشكيل لجنة برئاسته، تضم جميع التخصصات الدينية ببيئاتها من الازهر والمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ومجمع البحوث الاسلامي، ودار الافتاء وجامعة الازهر وحدد لها مهاماً ثابتة، وهي متابعة ما ينشر على شبكة الانترنت من معلومات تسيء للإسلام وتعاليمه، وإعداد المادة العلمية الموثقة للبيت على الشبكة للتعريف الصحيح بالاسلام، وشرح تعاليمه، وتقديم تفسير للقرآن الكريم والملاحيد النبوية، مع تزويد الموقع بعنوان البريد الالكتروني للرد على الفتاوي من مختلف المسلمين في بلدان العالم، وللجنة الحق في ان تستعين بمن تراه لتحقيق مهامها، ولها ان تؤلف لجاناً فرعية متخصصة في العلوم الدينية.<sup>٢٤</sup>

<sup>٢٢</sup> اخبار اليوم، منظمة عالمية مشبوهة تهاجم الازهر ١٥ اب ١٩٩٨.

<sup>٢٣</sup> الاهرام، الاسلام الصحيح، كيف نلقمه على الانترنت، ٢٥ ايلول ١٩٩٨.



وللرد على هذا العبث رداً حقيقياً يجب اتباع استراتيجية ثابتة تجاه المحاولات المتتالية لتحريف القرآن عبر الشبكة العالمية ولتعدد المواقع المخربة والمشبوهة، وتتضمن هذه الاستراتيجية:

اولاً: تطوير اسلوب عرض مفاهيم الاسلام على للعالم باستخدام الاساليب الفنية الحديثة لاتاحة المعلومات الصحيحة لكل من يرغب ان يعرف شيئاً عن الاسلام مع التأكيد على الوسيلة الاحداث، شبكة الانترنت.

ثانياً: الرد المباشر على الافتراءات التي تروج من حين لى الاخر ضد الاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام عبر الشبكة الدولية.

ثالثاً: اتخاذ الاجراءات القانونية ومقاضاة بعض الشركات التي تسمح ببث مواقع تسيء الى الاسلام.

وقد انشأ (مركز الدراسات والموسوعات الاسلامية) بالمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية موقعاً على الانترنت<sup>24</sup>. ويتضمن صفحة للتعريف بالاسلام ومفهومه وصفحة للعقيدة وشرح اركان الايمان وصفحة للفن الاسلامي وتاريخه وسماته، وصفحة اركان الاسلام بالاضافة الى استخدام الصورة والرسوم الشارحة وترجمات باللغة الانكليزية.

#### سابعاً: الحرب الاعلامية.. حرب المستقبل

الحرب الاعلامية.. حرب من نوع جديد، تستغني عن كل ما عرفناه من اشكال الحروب، فهي حرب مستغنية عن بؤرة معينة، ارض او مورد-لاحتلالها او مسرح استراتيجية للقتال وهي حرب لا تحتاج الى السلاح ولكنها افك من قوة اللبرلن، وهي حرب يصعب ملاحقة حركتها واثارها التدميرية فليس هناك جيوش تتقدم او تتراجع وخسائر بشرية يمكن احصائها، لها حرب غير مرئية العواقب تشتغل في عقول الناس ووعيهم وضمائرهم وذكراتهم، فالاصابة هنا تكون فادحة فالنزيف ليس دماً يمكن تعويضه بل ادراكاً واعتقاداً يتسرب، والمنصر لا يستولي على جغرافية بل على تاريخ وراث وثوابت وقيم.

ولذلك على ما سبق بحدث قريب الوقوع ونعني به غزو افغانستان فنلاحظ ان الضربات الاعلامية التي تعرضت لها طالبان كانت اشد ضراوة من القصف بالقنابل.

فالسيطرة الامريكية والغربية على الادوات الاعلامية ساهمت في التراجع السريع لسيطرة طالبان على الولايات الافغانية فالاعلام اسقط الولايات قبل ان تسقط فعليا بترويج الاشاعات والاكاذيب في حرب نفسية ضارية احادية الضغط.

حيث لم يعد لطالبان وسيلة اعلامية تبث اخبارها بعد تدمير اذاعاتها المحلية الوحيدة وغلق سفارتها في اسلام ابادج والناطق باسمها واستبعاد الوسيلة الاعلامية للمتعاطفة معها بعد قصف مكتب الجزيرة في كابل. واجبار مراسليها (تيسير علوني ويوسف الشولي) على مغادرة افغانستان.

ونتيجة لهذا الحصار والتعتيم الاعلامي ازدادت خطورة هذه الحرب الاعلامية على من يتابع الاحداث خارج افغانستان وكذلك على الشعب الافغاني في الداخل حيث لم يعد امام المواطن الافغاني من وسيلة لتقصي اخبار ما يدور حوله الا الاذاعات الغربية الموجهة التي تبث لكاذيب تطمس الحقائق وتشوهها.

وهذا العجز الاعلامي الاسلامي ليس وليد اللحظة، فللاسف الدول الاسلامية لم تنتبه الاموراً او لازالت غافلة عن اهمية الاعلام كأداة حيوية في حروبنا العسكرية والسلمية، فهي تمتلك المال والكفاءات ولا تخطوا خطوة واحدة باتجاه انشاء اداة اعلامية قوية كوكالة الابناء الاسلامية.. هذا المقترح الاسلامي المهمل في ادراج منظمة المؤتمر الاسلامي منذ عشر سنوات.

نحن بحاجة الى وعي اسلامي جديد يدرك اهمية الجهاد الاعلامي وينظر للاعلام على انه سلاح اكثر فتكاً من القنبلة وانه احد الاسلحة التي يستخدمها الامريكان وحلفائهم كجزء اساسي من منظومة الاسلحة التي يخوضون بها حروبهم، فمن دبابسة واحدة كفيل بتمويل ادارة اعلامية متميزة بالغة التأثير، نحن بامس الحاجة الى ان نوظف الاموال والكفاءات في دعم الادوات الاعلامية الجادة القائمة وانتشار المزيد وابتكار الامكانيات التي تقيد من للتكنولوجيا الحديثة.

ولكي ندرك اهمية الاعلام في حروبنا المستقبلية علينا ان نستذكر الكم الهائل من الضغوط والتهديدات التي تعرضت لها قادة الجزيرة اثناء تغطيتها للحرب رغم انها قناة واحدة امام مئات القنوات الغربية فانهم لم يحتملوا مع ان المادة الاخبارية التي كانت تبث لصالح الامريكيين بلغت ٩٠% تقريباً في بعض الفقرات.

لكنهم لم يحتملوا نسبة ١٠% من الحقائق لانها تعري جرائمهم وتفضح فظائعهم. وقد سبق ان سيطر الاعلام الغربي هيمنته الطاغية في حربه العدوانية على العراق في خلال الاعوام ١٩٩١-٢٠٠٣ ولازال.

وهناك فكرة تنفيذ بث تلفزيوني على غرار اذاعة القرآن الكريم يدفعنا الى تحقيق هذه الفكرة كثرة الرسائل والاتصالات المباشرة التي تصل من المثقفي (المستمع) حيث تشكل النسبة الاصلية من جمهورنا من المواطن العادي ثم تأتي النسبة الاخرى من النخبة الثقافية والفكرية من المستمعين، وهناك خط تضاعدي للجذب نستطيع رصد تصاعد الى نسبة ٧٠% من الجمهور.

#### ثامناً الاعلام الاسلامي.. ألقاق المستقبل

ان الاعلام هو قوة رديفة للعمل السياسي والاقتصادي. وقد جاء في اول قمة عربية عقدت في عام ١٩٦٤ اعتبار الاعلام احد الاسلحة الاساسية لمواجهة الخطر الصهيوني.

ولكي ينجح الاعلام الاسلامي في تحقيق اهدافه، فانه رهين في التقديره على مجابهة التحديات التي تحتاج الى وعي لدى الاعلاميين يدركون من خلاله من هم الاصنفاء ومن هم الاعداء ويدركون مدى الاخطار التي يفرزها الواقع الاقليمي والصراعات المحيطة به.

فَنحن بحاجة الى المتصل (الاعلامي) الخبير الذي يعرف كيف يصمم الرسالة ذات تأثير مستخدماً امكانيات العلم في تصميم الرسالة الاعلامية، وهذا المتصل يجب ان تكون لديه مواصفات عديدة. من بينها الثقافة مع الالتزام بالثوابت والقسم كي نستطيع مواجهة التحديات. وهذا الاعلامي يجب ان تكون لديه معرفة بنظريات الاعلام وتأثيراته وخبرة في معرفة الجمهور. والاسلوب الامثل بمخاطبته ومعرفة التوقيت المناسب للوصول اليه.

واما الرسالة الاعلامية فيجب ان تكون ذات مضمون وشكل قادرين على استقطاب الجمهور. واما الوسيلة فيجب ان تترك ان لكل وسيلة خصائصها فالصحيفة ليست كالكتاب وليس الاذاعة كالنقل. واذا كان لكل وسيلة جمهورها فان درجة المصداقية والتأثير لكل وسيلة ستختلف عن الاخرى.

1. ولتفعيل هذه الخصائص فإن هناك افاق جديدة يجب طرقها بعد تحديد الاهداف:
1. تحديد المشكلات الحقيقية والحيوية التي يجب ان يعرضها الاعلام الاسلامي.
2. اعداد الخطط الاعلامية واضحة للمعالم طويلة المدى واخرى قصيرة المدى تكون مؤشراً لتحقيق الهدف من خلال حملات اعلامية شاملة.
3. توفير الكوادر الاعلامية المدربة وذات الخبرة والكفاءة والمسلحة بالوعي القومي والديني وطبيعة المشكلات الدولية.
4. توفير للتنسيق والتعاون بين مختلف الاجهزة الاعلامية.
5. توفير الميزانيات الملائمة لتمويل المشاريع الاعلامية مما يوفر افضل الكوادر الاعلامية. واستخدام احدث انواع التكنولوجيا الاصتالية.
6. توفير المعلومات المسبقة لاعداد الحملات والخطط الاعلامية وذلك من خلال البحوث والدراسات التي تتناول الظاهرة الاعلامية.
7. الاستفادة من الظروف الملائمة للبدء في حملات اعلامية مثلاً: الانتفاضة العربية البطلية في فلسطين وضرورة كشف الارهاب الصهيوني ووحشيته للرأي العام العالمي.
8. الوقوف بحزم امام حملات التشويه التي يتعرض لها الاسلام والمسلمين فسي كافة وسائل الاعلام الغربية.
9. ضرورة وجود روابط بين خريجي الكليات والمعاهد الاعلامية والاسلامية وتوثيق علاقتهم بالمؤسسات الاعلامية تكليفاً لمستوى خدماتها المجتمعية.

## النظرية الاتحادية والاتجاهات الحديثة فيما

الدكتور

قحطان احمد سليمان الحمداني<sup>(٢)</sup>

### المقدمة

إذا كانت للنظرية السياسية هي الآراء والأفكار التي تخص الظاهرة السياسية، والتي ثبتت صحتها من خلال الممارسة الفعلية وتكرار النتائج المستخلصة منها، وإمكانية تعميمها والاعتماد بها إدراكا لأهميتها في الحياة السياسية، فإن للنظرية الاتحادية هي نظرية سياسية وقانونية واجتماعية واقتصادية، تتضمن مجمل المبادئ والآراء التي استقر عليها الفقه السياسي في موضوع الاتحاد بين الدول والمنظمات الدولية والتي افرزتها الممارسات العملية المتكررة كنتائج يمكن الاعتماد عليها في الاتحادات الدولية القائمة، وتعميمها على الحالات المستقبلية، وهي عملية مستمرة في الحياة السياسية الدولية، فكل حالة اتحادية مستمدة من الحالات التي سبقتها، ولكنها متطورة عنها، ويمكن الاستفادة من تطبيقاتها سلبي وإيجابا من أجل تثبيت الحالات الايجابية، وحذف أو تعديل الحالات السلبية، وبهذا المعنى فإن النظرية الاتحادية متطورة مع الزمن، مفتوحة لكل التجارب الاتحادية، ومتفاعلة مع كل المبادئ والسياسات الجارية، ومع كل التجارب في الحاضر والمستقبل، سيما في ظل المتغيرات الدولية الجديدة، وحرية انتقال الأفكار، واختلاف وجهات النظر، وضرورات التنوع الفكري النابع من التنوع السياسي، فهي ليست نظرية جامدة وإنما منطلقة نحو الامام للاغتناء الفكري من مختلف المنابع الفكرية.

إن النظرية الاتحادية مرت بمراحل عديدة وممارسات متباينة، وقد اتحدت دول وشعوب منذ أقدم الأزمنة، ونشأت الدول والامبراطوريات، ولكن معظمها كانت قسرية، واتخذت لشكال الدولة البسيطة الانماجية، أما الدولة المركبة، فرغم قدمها إلا أنها ازدهرت في العصر الحديث، وتركت اشكالا مختلفة، وقد أصبحت بعضها تاريخية أو شبه تاريخية كالاتحاد الشخصي (اتحاد للتاج) والاتحاد الفعلي، بينما استقرت الاتحادات الفيدرالية والكونفيدرالية، وانتشرت في القرنين الماضيين، وإن كانت مختلفة بعضها عن البعض الآخر، ولكن، واستنادا إلى منطق التطور فقد اتحدت

<sup>(٢)</sup> كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد.

الفرصة لأنواع جديدة من الاتحادات تجمع بين عدة نماذج، وتحتاج الى تسميات جديدة.

ان هذه الورقة تحاول عرض النظرية الاتحادية من خلال المبادئ والأفكار المترسحة عن التجارب الاتحادية أولا ، ومن خلال الممارسات الاتحادية المختلفة ثانيا، وإضافة ما يمكن اضافتها عليها ثالثا، اسهاما في رصد التحولات والتغيرات الجديدة، وطرح الآراء والمبادئ التي يمكن لها ان تجد طريقها الى النجاح.

### أولا: نظرية الاتحاد الفيدرالي

اشتق مصطلح ( الفيدرالية ) من الكلمة الانكليزية (Federation) بمعنى الاتحاد<sup>١</sup>، و(ederal state) بمعنى (الدولة الاتحادية) التي توجد فيها حكومة مركزية، ومجموعة حكومات اقليمية، وفق دستور معتمد يورد اختصاصات مستويي الحكم<sup>٢</sup>. ولكل منها سلطات مختلفة، فالحكومة المركزية لها سلطات اتحادية محصورة في السياسة الخارجية وعقد المعاهدات والاقتصاد والمالية وشؤون الدفاع والعدل، بينما تختص الحكومات الاقليمية بمسؤوليات السلطة في الاقاليم كالنقل والتعليم والصحة والخدمات والتشريع الداخلي.. وهذا يعني ان السلطة مركبة وليست سلطة واحدة كما هو الحال في الدولة البسيطة الموحدة (الاندماجية). غير ان للدولة المركبة ليست على نوع واحد، فهناك الاتحاد الشخصي والاتحاد الفعلي والاتحاد الكونفيدرالي واتحادات اخرى مختلفة تجمع بين خصائص عديدة، وهي تتراوح بين القوة والضعف وفقا لصلاحياتها واشكالها<sup>٣</sup>.

ان نشأة الاتحاد تاريخيا تعود الى جذور قديمة ، ففي العهد اليوناني كان هنالك لاتحاد عسكري دفاعي بين (١٢) مدينة يونانية سمي بـ(عصبة أشيان)، وقد احتفظت

١- حسن عبد الله. قاموس مصطلحات العلاقات والمؤتمرات الدولية. بيروت، مكتبة لبنان ١٩٨٢ ص ١١٧.

٢- د. أحمد زكي بدوي. معجم للمصطلحات السياسية والدولية. القاهرة، دار الكتاب المصري ١٩٨٩ ص ٥٨. انظر ايضا:

جورج روبرتز، والمستر ادواردز. المعجم الحديث للتحليل السياسي، ترجمة سمير عبد الرحيم الجبلي. بيروت، الدار العربية للموسوعات ١٩٩٩ ص ١٧١ - ١٧٢.

٣- د. يحيى الجمل. الانظمة السياسية المعاصرة. بيروت، دار النهضة العربية ١٩٦٩ ص ٥٢. انظر ايضا:

د. حسين عثمان محمد عثمان. للنظم السياسية والفتن الدستوري، الاسكندرية، دار المطبوعات الجامعية ١٩٩٨ ص ٩٣.

د. عبد الغني بسيوني عبد الله. النظم السياسية. الاسكندرية، دار المطبوعات الجامعية ١٩٨٥ ص ٩٢.

كل مدينة بحق ادارة شؤونها الداخلية وفقا لنظمها السياسية، واضعة ادارة الشؤون الخارجية والدفاعية بيد العصابة، وبذلك لم يكن من حق اية مدينة اعلان الحرب او اقرار السلام لوحدها، ولولا السيطرة الرومانية عليها لاستطاعت تحقيق اتحاد كافة المدن اليونانية<sup>٤</sup>. وفي عام ١٢٩١ تحقق الاتحاد السويسري من (٣) مقاطعات انضمت اليه دول ومقاطعات اخرى، وقد اسندت مسألة الدفاع الى الاتحاد، بينما احتفظت كل دولة باستقلالها الخاص. وتعتبر الولايات المتحدة الامريكية اول دولة اتحادية فيدرالية في العصر الحديث وفقا لدستور عام ١٩٨٧<sup>٥</sup>.

لما اسباب الاتحاد فهي عديدة، وفي مقدمتها الرغبة المشتركة في اقامة الاتحاد بسبب الشعور بالتجانس الشعبي او القومي او الوطني في الانتماء الى امة واحدة وشعب واحد، او عامل الجوار الجغرافي لمجموعة دول متجاورة، او التاريخ المشترك للشعوب والامم والاطوان، او المصالح الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المشتركة في مواجهة دول اخرى، او العادات والتقاليد المتقاربة<sup>٦</sup>، وللتشابه في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية<sup>٧</sup>، والاعتبارات الدينية والمذهبية والايديولوجية، وتحقيق المساواة والعدالة، واكتساب القوة والنفوذ<sup>٨</sup>، ووجود العدو المشترك الذي يحتم على الدول للتضامن مع بعضها ومن ثم الاتحاد<sup>٩</sup>. وعلى ذلك فان الاتحاد يتحقق بسبب واحد من الاسباب الانفة الذكر او عدة اسباب لو كلها تبعاً لوضعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والوشائج التي تربط بينها.

ان اقامة الاتحاد المركزي (الفيدرالي) تتم بعدة طرق هي:

- ١- اتفاق مجموعة دول مستقلة لاقامة الاتحاد، وهو الاسلوب الغالب بين الدول، اذ يتم وضع دستور دائم للدولة الاتحادية تحدد حدود السلطات الاتحادية والاقليمية<sup>١٠</sup>، كسويسرا.

<sup>٤</sup> - د. لؤي بحري. مبادئ علم السياسة. بغداد، مطبعة شفيق ١٩٦٧ ص ١٣٨-١٣٩.

<sup>٥</sup> - المصدر السابق ص ١٣٠-١٤٠.

<sup>٦</sup> - Leon N. Lindberg and Stuart A. Schengold. Reginal Integration. Harvard press 1971 p 11.

<sup>٧</sup> - Steven Rosen. Walter. S. Jonse. The Logic of International Relations. London, Winthro Publishers 1914 p 330.

<sup>٨</sup> - د. محمود اسماعيل. المدخل الى العلوم السياسية. الكويت، مكتبة الفلاح ١٩٨٦ ص ٣٠١-٣٠٢.

<sup>٩</sup> - د. محمد لبيب شقير. الوحدة الاقتصادية العربية، تجاربها وتوقعاتها، ج ٢. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٦ ص ٨٤٠-٨٤٢.

<sup>١٠</sup> - لؤي بحري. المصدر السابق ص ١٤١.

- ٢- تفكك دول بسيطة الى عدة دويلات صغيرة، مع رغبتها في الاستمرار معا بشكل اتحاد مركزي فيدرالي كالمكسيك والبرازيل والارجنتين<sup>١١</sup>.
  - ٣- قيام حكومة مركزية لدولة بسيطة موحدة باقامة الاتحاد الفيدرالي بين اقاليمها كاستراليا، وكندا، وجنوب افريقيا<sup>١٢</sup>.
  - ٤- التحول من اتحاد كونفيدرالي الى اتحاد فيدرالي كما حدث للولايات المتحدة عام ١٧٨٧ بموجب الدستور الاتحادي<sup>١٣</sup>.
  - ٥- قيام الدول الاستعمارية باقامة اتحاد بين مستعمراتها. كاتحاد الجنوب العربي الذي ضم عدن والامارات المجاورة لها، والتي قامت بريطانيا باقامتها عام ١٩٥٩<sup>١٤</sup>.
  - ٦- اتفاق مجموعة اقاليم على لقامة اتحاد بينها عشية الاستقلال، كاتفاق الامارات للعربية السبعة على اقامة دولة الامارات العربية المتحدة عام ١٩٧١<sup>١٥</sup>.
  - ٧- قيام الامم المتحدة باعلان الاتحاد الفيدرالي، استنادا الى رغبة الشعب في الاستقلال عن الاستعمار وتحقيق الاتحاد، وهو ما حدث عام ١٩٥١ حين اعلن عن قيام المملكة الليبية المتحدة<sup>١٦</sup>.
- ان النظرية الفيدرالية تستند الى التوفيق بين تناقضين هما:
- أ. الحرص على الذاتية.
- ب. السعي لتنظيم جماعي يشمل الجماعات الذاتية (الدول والاقاليم)

<sup>١١</sup> هشام ال شاوي. مقدمة في علم السياسة. الموصل، مطابع دار الكتب ١٩٧٠ ص ١٥١.

<sup>١٢</sup> ريموند كارثيل كوتيل. العلوم السياسية. ج ٢، ترجمة د. فاضل زكي محمد. بغداد، مكتبة النهضة ١٩٦٣ ص ٣٠٧.

<sup>١٣</sup> ميشيل ستينوارت. نظم الحكم الحديثة، ترجمة احمد كامل. القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٢ ص ١٣١.

<sup>١٤</sup> جيليان كينج. اهداف الاستعمار في عدن، ترجمة خيرى حماد. القاهرة، الدار القومية ١٩٦٦ ص ٨٢.

<sup>١٥</sup> د. عبد الله حسن الاشعل، اتحاد الامارات العربية، رسالة ماجستير - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة ١٩٧٦ ص ٣٧-٣٨.

<sup>١٦</sup> احمد طريبن . التجزئة العربية كيف تحققت تاريخيا. بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٧ ص ٢٠٠. انظر ايضا:

محمد فرج . الامة العربية على الطريق الى وحدة الهدف. القاهرة، دار الفكر العربي ١٩٦٤ ص ٣٣٧.



وهذا التوفيق يطرح نفسه بصيغة دستورية وقانونية في الظاهرة الفيدرالية التي يحكمها قانونان علميان هما:

أ. قانون التراكب.

وهو وجود أنظمة كلية باختصاص شامل للجماعة الفيدرالية المركبة، وهي الأنظمة تميل لأن تكون فوق الأنظمة الخاصة بالجماعات المؤلفة للجماعة الكلية.

ب. قانون الذاتية.

وهو أن الجماعات المؤلفة للفيدرالية المركبة تتمتع كل واحدة منها باختصاص ذاتي خالص لا تخضع فيه لرقابة من جانب الأنظمة الكلية، وهي بهذه الصفة تتميز عن غيرها من الهيئات والجماعات اللامركزية في الدولة الموحدة<sup>17</sup>.

وعلى هذين القانونين ينهض كل نظام فيدرالي، وبهما معا تتحدد حالة التوازن فيه، وعلى أساس مدى غلبة كل من القانونين إزاء الآخر تتعدد نماذج النظم الفيدرالية، ونماذج النظم الكونفيدرالية، ففي الأول ترجح كفة قانون التراكب إزاء قانون الذاتية، بينما في الثاني تكون الغلبة لقانون الذاتية على قانون التراكب<sup>18</sup>، وهذا يعني أن السيادة بين السلطة الاتحادية (الفيدرالية) والسلطات الإقليمية ليست متعادلة، أو متساوية، وإنما تكون اليد العليا في القرارات الرئيسية للسلطة الاتحادية، أي أنها ليست ندية، وإنما يخضع إقليم الدولة ورعاياها للقوانين الاتحادية دون حاجة إلى موافقة حكومات الأقاليم، في حين أن قوانين الإقليم لا تلزم السلطة الاتحادية، ولا سلطات الأقاليم الأخرى. وفي الدستور الأمريكي الاتحادي تكون النصوص الدستورية والقوانين الاتحادية والمعاهدات والاتفاقيات التي تبرمها الحكومة الاتحادية للقانون الأعلى للبلاد، بمعنى آخر أن سمو للقواعد الدستورية الفيدرالية على قوانين الولايات هو روح الرابطة الاتحادية ومن أهم سمات الدولة الفيدرالية<sup>19</sup>.

وفي الحقيقة أن نظرية سيادة الدولة للفيدرالية دون الولايات أو الأقاليم تؤكد ممارستها السياسية للدول الفيدرالية المعتمدة إلى الدستور الاتحادي، ويدافع العديد من

17- د. محمد طه بدوي. أصول علم السياسة، ط٢. الاسكندرية، المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر ١٩٦٥ ص ١٨٨.

18- المصدر السابق ص ١٨٩.

19- بول روتيه. التنظيمات الدولية، ترجمة أحمد رضا. القاهرة. دار المعرفة ١٩٧٨ ص ٢١٥-٢١٧. انظر أيضاً:

د. محمد أنور عبد السلام. التجربة الاتحادية الأمريكية وقیمتها للوحدة العربية. القاهرة، مكتبة الانجلو مصرية ١٩٧٤ ص ١٣٦.

الفقهاء القانونيين والميادينيين عنها لأنها تمثل الواقع السياسي<sup>20</sup>. أما نظريات تجزئة السلطة بين السلطة الاتحادية وسلطات الاقاليم، أو نظرية الابطال التي تعتقد ان السلطة بيد الاقاليم، وان السلطة الاتحادية ليست سوى تجميع لسلطات الاقاليم، فهي لا تمثل الا اراء القلة، والتي لا تجد لها سنداً واضحاً في الواقع السياسي<sup>21</sup>.

وبناء على ذلك فان اختصاصات السلطة الاتحادية (التفذية والتشريعية والقضائية) تابعة من كونها تمثل الشخصية الدولية للاتحاد وكل مايتعلق بالسيادة والاستقلال والسياسة الخارجية والدفاع، وعقد المعاهدات وعلان الحرب والسلام، والمالية والاقتصاد الفيدرالي، وما يتبعها من المحكمة الفيدرالية واجهزة الامن والمخابرات والعلم الوطني، والعمل الوطني وجوازات السفر وهي صلاحيات مختلفة بين دولة واخرى، فهي تضيق وتتوسع وفقاً للنظم السياسية الليبرالية-الراسمالية، والنظم السياسية الاشتراكية ووفقاً لسماتها<sup>22</sup>، ففي الدول الغربية كالولايات المتحدة وبريطانيا، والمانيا وسويسرا تكون الصلاحيات محدودة بالسياسة الخارجية والدفاع والاقتصاد والعدل<sup>23</sup>، بينما في الدول الاشتراكية كالاتحاد السوفيتي السابق ويوغسلافيا السابقة كانت صلاحية السلطة الاتحادية واسعة<sup>24</sup>.

ان بعض الدول للفيدرالية تحدد الاختصاصات الفيدرالية حصراً في الدستور، سواء بالنسبة للسلطة الاتحادية، أو بالنسبة لسلطات الاقاليم، فاذا حددت بالنسبة للسلطة

20 - انظر على سبيل المثال:

د. الشافعي محمد بخير . نظرية الاتحاد بين الدول وتطبيقاتها بين الدول العربية. الإسكندرية ، منشأة معارف الاسكندرية ١٩٦٣ ص ٣٨.

د. ميشال خطار الرياشي. اسهام في دراسة النظرية التقليدية للدولة الفيدرالية. بيروت - الجامعة اللبنانية ١٩٩٢ ص ٢٩٩.

21 - د. محمد عمر مولود. الفيدرالية وامكانية تطبيقها في العراق، ط٢. اربيل، مؤسسة موكراتي للطباعة والنشر ٢٠٠٣ ص ٢٨٨-٢٩٤. انظر ايضاً:

عبد الله جمعة الحاج. النظام الاتحادي الفيدرالي. الابديت والمفاهيم. في مجلة (العلوم الاجتماعية) العدد (٢) المجلد (٢٦) صيف ١٩٩٥ ص ٧٧.

22 - د. نظام بركات وآخرون. مبادئ علم السياسة. عمان ، دار الكرمل ١٩٨٤ ص ١٦٨. انظر ايضاً:

د. بطرس بطرس غالي ، د. محمود خيرى حيسى . نظم الاتحادات الدولية. القاهرة، الدار القومية ١٩٦٠ ص ٢١-٢٢.

23 - روبرت بوي، وكارل فردريك. دراسات في الدولة الاتحادية، ج٣، ترجمة وايد الخالدي وبرهان جاني، بيروت، نيويورك ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ١٩٦٦ ص ١٨٤.

24 - ميشيل سنوواتر. المصدر السابق ص ٣٦٧-٣٨٣. انظر ايضاً:  
د. عصام الحنية. القانون الدولي العلم ، ط٣. بغداد ، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. جامعة بغداد ، كلية القانون والسياسة ١٩٨٢ ص ٢٤١-٢٤٧.

الاتحادية حصراً، فإن ما دونها تكون لسلطات الاقاليم، فقد حدد الدستور الأمريكي عام ١٧٨٧ اختصاصات الاتحاد بإدارة الشؤون الخارجية، والعسكرية والمحافظة على الامن العام، وامور الجنسية والعمل وتنظيم التجارة مع الدول الاجنبية والعقوبات للجرائم المرتكبة ضد امن الاتحاد، وضد القانون الدولي، وفرض الضرائب الاتحادية. بينما ترك للاقاليم اختصاصات للتصرف بالشؤون ذات الطابع المحلي كإنشاء وتنظيم المصالح المحلية والتربية والصحة والتجارة المحلية والضرائب<sup>25</sup>.

وقد يحدد الدستور اختصاصات الولايات والاقاليم حصراً على ان تكون بقية الاختصاصات للسلطة الاتحادية كما هو في دستور كندا، او ان يحدد للدستور اختصاصات الاتحاد والاقاليم حصراً، وهو اسلوب لايسوعب الحالات التي تتطلب تشريعات دستورية جديدة<sup>26</sup>.

وهناك اختصاصات مشتركة، كأن تكون المحافظة على امن الاقاليم من مسؤوليتها، فإذا أخفقت في ذلك تتدخل السلطة الاتحادية، او ان تخضع حرية تصرف الاقاليم لرقابة اتحادية، او ان تمنح سلطات الاتحاد صلاحيات اختيارية، فإن لم تمارسها اكتسبت الولايات حق تنظيمها<sup>27</sup>.

اما مؤسسات الاتحاد فهي السلطة التنفيذية التي قد تكون رئاسية حيث ينتخب الرئيس من الشعب مباشرة كما في الولايات المتحدة، او برلمانية بمعنى وجود رئاسة جمهورية او ملكية لها صلاحيات شكلية، ومجلس وزراء يبيدها السطة الفعلية نتيجة الفوز في الانتخابات، كما في المملكة المتحدة.

اما السلطة التشريعية الاتحادية فتتكون من مجلسين، احدهما يمثل الشعب في انتخابات حرة عامة، والثاني يمثل الاقاليم بنسبة معينة، كمجلس الشيوخ الأمريكي الذي يضم عضوين من كل ولاية، ومجلس الدول في سويسرا الذي يضم عضوين من كل كانتون<sup>28</sup>، بينما يختلف مجلس الشيوخ في كندا اذ يمثل كل ولاية من (٤-٢٤) ممثلاً طبقاً لعدد السكان<sup>29</sup>، وهي تراقب السلطة التنفيذية في سلوكها وقراراتها في كل المجالات.

وفي الامارات العربية المتحدة هنالك مجلس واحد فقط يمثل كل الامارات السبعة، ولكن اعضاؤها ليسوا متساوين، فالامارات الكبيرة لها ممثلون اكثر من

25- د. حسن الجلبي . القانون الدولي العام ، ج ١ . بغداد ، مطبعة شفيق ١٩٦٤ ص ٢٣٤ .

26- هشام ال شاي . المصدر السابق ص ١٥١-١٥٢ .

27- المصدر السابق ص ١٥٢ .

28- د. علي غالب العاني . مجلس واحد ام مجلسان . بغداد ، مطبعة المعارف ١٩٦١ ص ١٤-١٥ .

29- ميشول ستوارت . المصدر السابق ص ٥٢ .

الامارات الصغيرة في الحجم والسكان، ويجري اختيارهم من قبل الامارات نفسها<sup>30</sup>. وقد جرى اخيرا اعتماد قانون انتخاب نصف الاعضاء من قبل الشعب مباشرة واختيار النصف الآخر من قبل حكام الامارات<sup>31</sup>.

وتعتبر السلطة القضائية الاتحادية هي الاساس في مراقبة السلطتين التنفيذية والتشريعية، وتعتبر المحكمة الفيدرالية العليا ضمانة لأية انتهاكات للدستور، او تجاوزات من قبل رئيس الدولة واعضاء السلطة الاتحادية<sup>32</sup>.

اما السلطات الاقليمية فهي صورة مصغرة للسلطات الاتحادية، اذ يتم انتخاب الحاكم للاقليم، واعضاء السلطة التشريعية الاقليمية عبر الاقتراع الشعبي، ويخضع الحاكم والسلطة التنفيذية لرقابة السلطة التشريعية المنتخبة، وهما معا يخضعان لرقابة السلطة القضائية للاقليم .

ان بعض الدول الفيدرالية التي يحكمها دستور اتحادي تسمح لحكومات الاقاليم بوضع دساتير محلية تنظم شؤونها، ولكنها لا تتعارض مع الدستور الاتحادي، واذا قررت قوانين اقليمية تتعارض مع الدستور الاتحادي الفيدرالي، فانها تلغى او تعدل لضمان الانسجام والتكامل في الدولة الاتحادية الفيدرالية، ومنع الازدواج في القرارات والاحكام.

وليس من حق السلطات الاقليمية ممارسة اية سلطات سيادية ، كالتعامل مع الدول الاجنبية مباشرة الا في حالات استثنائية وفقا لدساتيرها<sup>33</sup>، ومن ذلك دستور الاتحاد السوفيتي السابق لعام ١٩٤٤ الذي سمح للجمهوريات السوفيتية بالتعامل مع الدول الاجنبية، الا ان هذا الحق بقي نظريا، ولم يستخدم عمليا، فقد رفض مجلس السوفيت الأعلى رغبة بعض الدول لاقامة علاقات دبلوماسية مع اوكرانيا، ولكنه سمح لرومبيا البيضاء واورانيا بالانضمام الى الامم المتحدة لضمان صوتيهما لصالحه، ولم يحدث ان صوتتا عكس ارادة الدولة السوفيتية<sup>34</sup>.

اما حق الانفصال فهو غير وارد الا اذا نص الدستور الاتحادي على ذلك، كالدستور السوفيتي الذي سمح للجمهوريات السوفيتية بحق الانفصال، ولكن السلطة

<sup>30</sup> - محمد عثري. معجم بلدان العالم. القاهرة، الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٠ ص ٤٢.

<sup>31</sup> - جريدة الحياة.

<sup>32</sup> - عبد الله جمعة الحاج. المصدر السابق ص ٧٦ - ٧٧.

<sup>33</sup> - د. عبد الواحد عزيز الزنداني. السبر والقانون الدولي. صنعاء ، الاطالق للطباعة والنشر ١٩٩٨ ص ١١٢.

<sup>34</sup> - شابل ديربان. اتحاد الدول والدولة الاتحادية، ترجمة عبد الرحمن شبل حسن. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٣ ص ٤٥ - ٤٦.

السوفيتية الاتحادية لم تسمح لاية جمهورية بالانفصال، بل انهي الاستقلال الذاتي لبعض الجمهوريات كجمهوريات الفويناكا<sup>35</sup>.

اما حجم الاقاليم وشكلها فليس ولحدا، وهذا امر بنديهي، ولكن هل تكون لخصائصاتها ونشاطاتها متساوية؟ في الحقيقة، ان ما هو سائد هو مساواتها جميعا سواء في التمثيل او الاختصاصات ، ولكن بعض الاتحادات لا تساوي بينها، فالامارات الكبيرة حجما ومكانا في دولة الامارات لها مقاعد اكثر في المجلس الاتحادي، ودور اكبر في السلطة التنفيذية.

كما ان الاقاليم نفسها ليست على درجة واحدة في الادارة والاهمية ، فالاتحاد الروسي وفقا لدستور ١٩٩٣ يتكون من (٨٩) منطقة ادارية منها (٢١) جمهورية و(٦) مقاطعات و(٤٩) ولاية و(١٠) مقاطعات حكم ذاتي ومدينتان فيدراليان، واقليم يتمتع بالحكم الذاتي<sup>36</sup>.

ان الدولة الفيدرالية بطبيعتها دولة ديمقراطية لانها قائمة على فصل السلطات وتوزيعها بين السلطة الفيدرالية وسلطات الاقاليم، ولانها توفر للاقاليم ممارسة الشؤون الداخلية باستقلالية عن السلطة الاتحادية، ولكنها ليست كذلك بالملق، اذ ان للممارسة الديمقراطية قد تكون بدرجات متفاوتة، كالمجلس التشريعي الاتحادي في الامارات العربية المتحدة الذي هو مجلس معين، وليس منتخبا على سبيل المثال، بينما تتركز السلطة في يد الجمعية الوطنية السويسرية بدلا من فصل السلطات وتوازنها<sup>37</sup>.

ودراءً للانفصال فان معظم دساتير الاتحادات الفيدرالية هي دساتير جامدة، يتطلب تعديلها اجراءات معقدة، كاشتراط الاغلبية المطلقة، او اغلبية الثلثين في السلطة التشريعية الاتحادية، ومن ثم عرض التعديل على الاستفتاء الشعبي<sup>38</sup>.

ان الاتحاد الفيدرالي يعد من اقوى الاتحادات في العالم، واكثرها استقرارا وتكاملا، اما تفكك بعض التجارب الفيدرالية في يوغوسلافيا والاتحاد السوفيتي بعد استمرارها لفترة اكثر من نصف قرن فقد كان لاسباب عديدة اهمها النزعة القومية والوطنية التي كانت مكبوتة طيلة الفترة السابقة، وقد نهارت بعد انهيار الرابطة التي كانت تجمعها وهي الرابطة الاشتراكية، فضلا عن استمرار استخدام القوة والعنف لمنع اية حركات انفصالية، ومن الامثلة على ذلك المانيا الشرقية التي انتفضت على اشتراكيته، وفضلت قوميتها عليها، والاتحاد مع المانيا الغربية، وقد بدأ الصراع

<sup>35</sup>- د. حسن الجليلي. المصدر السابق ص ٢٤٤-٢٤٥.

<sup>36</sup>- محمد عترين. المصدر السابق ص ٢٤٩.

<sup>37</sup>- د. بدیع شریف. الفدرال، بحث في نظام الاتحاد السويسري. بغداد منشورات مكتبة المثنى ١٩٤٩ ص ١٧-١٩.

<sup>38</sup>- شارل ديران. المصدر السابق ص ١٠١-١١١.

القومي في الاتحاد السوفيتي قبل انهيارها بين ارمينيا واذريجان، وكانت النتيجة الطبيعية تفكك البلاد، ونشوء مجموعة دول قومية بدلا منه<sup>39</sup>.

وينبغي الإشارة هنا الى ان بعض الاتحادات الفيدرالية تحولت الى دول موحدة بسيطة كالاتحاد الالماني (١٩١٩-١٩٣٣). والمملكة الليبية المتحدة عام ١٩٥١ التي أصبحت دولة بسيطة عام ١٩٦٤<sup>40</sup>.

### ثانيا: نظرية الاتحاد الكونفيدرالي

الكونفيدرالية مصطلح لاتيني (Confederation) يقصد به الاتحاد التعاهدي بين الدول، أو الاتحاد (الاستقلالي) لان اعضاء الاتحاد من الدول مستقلة بعضها عن البعض الآخر ولكنها تتعاهد مع بعضها على الاتحاد في امور معينة تحديدا، وتحفظ كل دولة بسيادتها الداخلية والخارجية<sup>41</sup>، وتتفق على تشكيل هيئة مشتركة لها صلاحيات محدودة، سيما في الامور الدفاعية والسياسة الخارجية، ولية امور اخرى يتم الاتفاق عليها.

ان الحاجة لمثل هذه الاتحادات كانت ولا زالت ضرورية للدول التي تعاني من الضعف الامني تجاه دول اخرى اقوى منها، او لاسباب سياسية تقتضيها المتغيرات الدولية والاقليمية، او للمصالح الاقتصادية بين الدول، او وجود تهديدات تمس الامن الداخلي والخارجي، او وجود عدو مشترك، او التمهيد لاقامة اتحادات اقوى في

39- عوض جسة رضوان . يوغسلافيا وصراع القوميات. مصراته، الدار الجماهيرية للنشر ١٩٩٣ ص ٩٢-٩٣. انظر ايضا:

محمد عريس. المصدر السابق ص ٢٥١-٢٥٤ .

40- د. قحطان احمد سليمان الحمداني . الوحدة العربية ، دراسة سياسية تحليلية لتجاربها واقعا ومستقبلا - رسالة دكتوراه غير منشورة - كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد ١٩٨٩ ص ١٥٧ . انظر ايضا:

جون فورد جولاي. انشاء جمهورية الملقيا الاتحادية ، ترجمة حسين الحوت . القاهرة ، الدار القومية ١٩٦٢ ص ٧ .

41- د. احمد زكي. المصدر السابق ص ٣٢. انظر ايضا:

حسن عيد الله . المصدر السابق ص ٥٥ .

جيوفري روبرتز، والسفر الوارنر. المصدر السابق ص ٩٠-٩١ .

المستقبل بين الدول المتجاورة التي ترتبط مع بعضها بوشائج اللغة والتاريخ والدين وغيرها<sup>42</sup>. ويمكن الوصول الى هذا الاتحاد بالطرق التالية:

١- اتفاق دولتين او اكثر من الدول المستقلة لاقامة الرابطة الاتحادية بينها خدمة لمصالحها، او تلبية لارادة شعوبها التي لها صلات مع بعضها من النواحي التاريخية والقومية والجغرافية والدينية والاجتماعية والسياسية وغير ذلك، ومن الامثلة على ذلك الاتحاد للكونفدرالي الامريكي عام ١٧٧٦ بين (١٣) دولة امريكية تعاهدت على مقاومة الاستعمار للبريطاني، وتحقيق الاستقلال، وقد نجحت في ذلك.

٢- رغبة الدول الاستعمارية لاقامة الاتحاد للكونفدرالي بين مستعمراتها، كرابطة الدومينيون للبريطاني في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي تطورت الى رابطة الكومنويلث بعد الحرب العالمية الثانية، وهي رابطة اتحادية لكل ارتباطا من الاتحاد للكونفدرالي<sup>43</sup>.

٣- تفكك الاتحاد الفيدرالي، وتحوله الى اتحاد كونفدرالي بناءً على اتفاق مسبق، او نتيجة للظروف الداخلية او الخارجية، كما حدث للاتحاد السوفيتي الذي تفكك نهاية عام ١٩٩١ واقامت بدله (رابطة الدول المستقلة)<sup>44</sup>.

اما صيغة النشأة فقد تكون بموجب ميثاق او معاهدة او اتفاقية دولية بين الدول المعنية والتي تنوه باسباب الاتحاد واهدافه وهياكله، وتحدد الهيئة او الجمعية المشتركة من الدول التي تتولى مسؤولية الاتحاد، وتتحدد اختصاصاتها بما يتم الاتفاق عليها كان تكون في الشؤون الخارجية والدفاع والاقتصاد والامن الوطني، والتنسيق بينها خدمة لدولها، واتخاذ القرارات اللازمة حول مختلف القضايا المطروحة عبر اجتماعات دورية او غير عادية، والعمل على مواكبة التطورات الداخلية والخارجية لدول الاتحاد وللدول الاخرى اقليميا وعالميا وتنفيذ القرارات التي يتم الاتفاق عليها، غير ان قرارات الهيئة او الجمعية المشتركة لا تكون ملزمة لعضائها، ولما يتطلب الامر الحصول على موافقة الهيئات الدستورية المختصة في كل منها كي تصبح نافذة وملزمة، بمعنى اخر ان القرارات الاتحادية للكونفدرالية لا تتخذ مباشرة في دولها حتى

42- د. عبد المجيد حرمي، العزام، ود. محمود سامي الزعبي، دراسات في علم السياسة. عمان، دار الحامد ١٩٨٨ ص ١٥٠.

43- د. بطرس بطرس غالي، د. محمود خيرى عيسى، المصدر السابق ص ٤٤-٤٩.

44- د. قحطان احمد سليمان الحمادي، الاساس في العلوم السياسية. عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع ٢٠٠٤ ص ٢٣٠.

لو وافق ممثلوها في الهيئة المشتركة على ذلك، لما الدول الراضية لقرارات الهيئة المشتركة فمن البديهي أنها لا تلتزم بها، ولا تعرضها على مؤسساتها الدستورية<sup>45</sup>. ان الاتحاد الكونفدرالي لا يتمتع بالشخصية الدولية كما هو الحال في الاتحاد الفيدرالي، لان تكوينه قائم على المعاهدات الدولية وليس الى الدستور، وبالتالي فليس له سيادة دولية، او حق عقد المعاهدات، وعلان الحرب والسلام، وليست لمؤسساته سلطة عليا على دوله، وان ادارة هيئاتها واعمالها لا تمثل حقيقة الاتحاد وفعاليته، لان ارادة الاتحاد تتكون من مجموع ارادات الدول الاعضاء فيه، وبالتالي فان الاتحاد الكونفدرالي ليس دولة، وانما مجموعة دول تحتفظ بسيادتها الخارجية واستقلالها الداخلي<sup>46</sup>. وينسحب على ذلك ان للمعاهدات المعقودة بين دوله لا تسري على الاتحاد واعضائه وانما على الدول المرتبطة بها والموقعة لها فعلا، سواء كانت احلافا عسكرية او معاهدات صداقة، او اتفاقات اقتصادية. كما ان اعضاء الاتحاد بإمكانهم الدخول في اتفاقيات او معاهدات مع الدول الاخرى او للمنظمات الدولية بكل حرية واستقلال عن الاتحاد واطراف الاتحاد<sup>47</sup>، مادامت تلك الاتفاقيات لا تمس اهداف ومبادئ وقرارات الاتحاد.

لما اعضاء الهيئة المشتركة او المجلس المشترك او الجمعية المشتركة فيتم اختيارهم من قبل حكوماتهم، وليس من قبل الشعب كاعضاء منتخبين<sup>48</sup>، اما رئاسة الاتحاد فيتم الاتفاق عليها من قبل دول الاتحاد، فقد يكون شخصا واحدا، كان يكون رئيس احدى الدول الاعضاء، او هيئة رئاسة مكونة من رئيس ونواب له كما في اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة (سوريا، مصر، ليبيا)، وقد تتوسع لجان الاتحاد واعماله ونشاطاته او تنقلص وفقا لظروفه وتطور الاحداث فيه<sup>49</sup>.

ان الميثاق او المعاهدة الدولية التي تشكل الاتحاد الكونفدرالي لما هي حصيلة توافق ارادات الدول المكونة له، وفقا لقانوني التراكب والذاتية، ولكن قانون الذاتية له الارحية على قانون التراكب او الترابط بسبب رغبات الدول الاعضاء في استمرار الاستقلالية في الميادين الداخلية والخارجية، وعلى اساس التعاقد او التعاقد من مطلق استقلالي، وبالتالي البدء من نقطة الصفر لتوسيع اطار الاتفاق وترصينه، ومن

45- د. محمد طه بدوي. المصدر السابق ص ١٩١.

46- د. محمد عمر مولود. المصدر السابق ص ٣٢٠-٣٢١.

47- د. لؤي بحري. المصدر السابق ص ١٣٣.

48- المصدر السابق ١٣.

49- د. محمد انور عبد السلام. المصدر السابق ص ١٩٢-١٩٥.



هنا فان تعديل الميثاق المؤسس للاتحاد لو المعاهدة الدولية يحتاج الى الاجماع لانه يمثل ارادة الجميع<sup>50</sup>.

ومعظم موثائق الاتحادات الكونفيدرالية تسمح للدول الاعضاء بحق الانفصال في حالة اقتناعها ورغبتها بان استمرارها في الاتحاد يخل بسيادتها ومصالحها، والقليل من تلك الاتحادات تمنع الخروج منه كالاتحاد الكونفيدرالي الالمانى<sup>51</sup>.

اما المنازعات بين الدول الاعضاء فانها منازعات بين الدول، ويحاول الاتحاد حله بالطرق السلمية، ولكنه لا يحمل اية لية اتحادية للفصل في المنازعات، فلا توجد محكمة دستورية عليا<sup>52</sup>، ولكن بعض هذه الاتحادات انشأت مؤسسات قضائية للبت في تلك المنازعات كاتحاد الجمهوريات العربية عام ١٩٧١<sup>53</sup>. وقد حدث نزاع على الحدود بين قطر والبحرين، وهما عضوان في مجلس التعاون لدول الخليج العربية دون ان يتمكن المجلس من حل خلافتهما بسبب عدم وجود نص والية ترغهما على الانصياع لقرارات المجلس. وقد انتبعت جامعة الدول العربية مؤخرًا الى ضرورة اقامة محكمة عدل عربية للنظر في منازعات الدول العربية، دون ان تظهر في ارض الواقع، رغم مرور اكثر من ٦٠ سنة على انشاء الجامعة وافشلها في حل نزاعات كثيرة بين الدول الاعضاء<sup>54</sup>.

ان الاتحاد الكونفيدرالي هو اتحاد واد، وقد اثبتت التجارب الاتحادية الكونفيدرالية ان مالها اما الى اتحاد فيدرالي قوي، وهو ما حدث في اميركا حين تحول الاتحاد الكونفيدرالي الامريكي الى الاتحاد الفيدرالي (الولايات المتحدة الامريكية) وفقا لمستور ١٧٨٧، او الى الانفصال كالاتحاد الالمانى عام ١٨١٥ والذي انتهى الى الانفصال عام ١٨٦٦، وكذلك لفصل اتحاد (الدول العربية المتحدة) بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة ١٩٥٨-١٩٦١<sup>55</sup>. ومع ذلك فان بعض الاتحادات الكونفيدرالية استمرت لمدة طويلة كجامعة الدول العربية المستمرة منذ عام ١٩٤٥ ومجلس التعاون لدول الخليج العربي الذي استمر منذ عام ١٩٨١، وربما يتحول الاخير الى اتحاد فيدرالي سيما بعد للقرارات الاخيرة لاقامة وحدة اقتصادية وعملة خليجية ولحدة في المستقبل القريب.

50- د. محمد عمر موالود. المصدر السابق ص ٣٢١.

51- المصدر السابق.

52- المصدر السابق.

53- د. محمد الور عبد السلام. المصدر السابق ص ١٩٣.

54- انظر قرارات القمة العربية في تونس في مجلة (الحوادث) ١٩-٢٥ آذار ٢٠٠٤ ص ٢٢.

55- طهية الجرف. نظرية الدولة والاسس العلمية للتنظيم السياسي. القاهرة، مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٧٣ ص ١٩٠-١٩١.

## ثالثاً: نظرية الاتحاد المختلط

ان النظريتين السابقتين (الفيدرالية والكونفيدرالية) هما المعولتان عليهما في النظم السياسية في الماضي والحاضر، ومعظم الكتاب والمفكرين يعتقدون انهما الاساس في التعامل الدولي من خلال المبادئ والاهداف وبالتالي التطوير السياسي لهما، ومن ثم للتطبيق الفعلي في مختلف انحاء العالم، غير ان الواقع السياسي والممارسة السياسية يختلفان في كثير من الاحيان بقليل او كثير، بل ان التطور المستمر في النظم السياسية اوجد اتحادات غير مقيدة بهما بشكل عام، فقد اخذت هذه الاتحادات ما يلائمها من المبادئ والنصوص الدستورية وفقاً لمصالحها التي تختلف باختلاف ظروفها السياسية والاقتصادية. ومن هنا يمكننا القول بان نظرية جديدة بدأت بالتشكل خلال الفترات الماضية وهي التي يمكن ان نطلق عليها بنظرية الاتحاد المختلط لانها تجمع بين خصائص الاتحادات السابقة التي تضم نصوصاً فيدرالية واخرى كونفيدرالية، بل الاكثر من ذلك انها تتضمن بنوداً للاتحادات المركبة والبسيطة في ان واحد، بمعنى اخر ان قانوني للتركيب والذاتية اللذان نوهنا عنهما بتوازنان دون ارجحية احدهما على الاخر. ان الفقه الدستوري المعاصر لا يمكن ان يتوقع على مبادئ معينة تكبل الدول في علاقاتها وتوجهاتها الاتحادية، وان اختيار افضل الصيغ الاتحادية حق للدول المتحدة ما دامت ترغب في ايجاد اسس قوية للاتحاد تكفل استمراره، وبهذا المعنى فالنا نقر بان الممارسة الفعلية لاتحادات جديدة لابد ان توظف نظريات جديدة ثلاثم التطور الدستوري وصولاً الى الافضل.

واذا اردنا البحث عن امثلة هذا النوع الجديد من الاتحاد فسوف نجد ان العديد من الدول والاتحادات مارست اشكالا لم تكن مألوفة سابقاً، فقد احتوى دستور الاتحاد العربي بين العراق والاردن والصادر في اذار ١٩٥٨ نصوصاً قانونية توحى بان هذا الاتحاد هو اتحاد فيدرالي كتحديد السلطة الاتحادية باختصاصات الخارجية والدفاع والاقتصاد والمالية، وترك الاختصاصات الداخلية الاخرى للقطرين (اي السلطات الاقليمية)، ولكن الدستور نفسه نص على احتفاظ كل من للعراق والاردن بشخصيتهما الدولية، وعدم سريان الاتفاقيات السابقة لكل منهما على دولة الاتحاد العربي، وهذا مظهر كونفيدرالي<sup>56</sup>. وينطبق الاتحاد المختلط على (الجمهورية العربية المتحدة) بين سوريا ومصر ١٩٥٨-١٩٦١، فقد حدد دستورهما مواصفات الاتحاد الفيدرالي من خلال تحديد اختصاصات السلطة الاتحادية الرئيسية، واختصاصات سلطات الاقليمين السوري والمصري وهي الامور الثلاثة<sup>57</sup>. ولكن الغاء المجلسين عام ١٩٦١<sup>58</sup>،

<sup>56</sup> الحكومة العراقية. دستور الاتحاد العربي. بغداد، مطبعة الحكومة ١٩٥٨ ص ٢ وما بعدها.

<sup>57</sup> انظر نص الدستور في كتاب (المشاريع الوحدوية العربية ١٩١٣-١٩٨٠) اعداد د. يوسف خوري. بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٨ ص ٣٦٦.

وممارسة السلطة المباشرة جعلت الاتحاد وحدة اندماجية بسيطة، اما من الناحية الواقعية فان اجراءات الوحدة لم تستكمل<sup>59</sup>.

وفي الحقيقة ان هذا النوع من الاتحاد الذي فرضته الظروف الخاصة للدول المتحدة داخليا واقليميا ودوليا مرشح للتوسع والانتشار لانه اضمن للمصالح الدولية لولا ولاته مفتوح للتطور وعدم التقيد بأية لشكال اتحادية ثانيا ولانه تعبير عن حقيقة التطور السياسي للنظم والاتحادات الدولية باتجاه المنفعة والخدمة.

#### رابعا: نظرية الاتحادات ذات الطبيعة الخاصة

ان هذه النظرية تتبع من ملاحظة وجود لتحادات ضعيفة بين الدول المستقلة في سياساتها الداخلية والخارجية والتي تضم نظاما سياسية مختلفة كالانظمة الملكية والانظمة الجمهورية، والانظمة للرئاسة والانظمة البرلمانية، ولكنها مرتبطة مع بعضها بروابط معينة كاللغة والثقافة، والارتباط السابق باحدى الدول الاستعمارية السابقة. ومن امثلتها رابطة الشعوب البريطانية (الكومنويلث) والتي تضم اكثر من (٤٠) دولة كانت خاضعة للاستعمار البريطاني ثم استقلت، ولكنها بقيت مرتبطة مع بريطانيا بالولاء والتعاون، وهذه الدول تتشاور على اساس الاستقلال والمساواة، وتبادل المعلومات في الشؤون المشتركة، والتتسيق السياسي، وتقديم تسهيلات لمواطنيها في مجالات العمل والدراسة، كما انها تجتمع في مؤتمرات قمة ومؤتمرات وزارية بشكل دوري<sup>60</sup>.

كما ان الجماعة الفرنسية (الفرنكفونية) هي اتحاد للدول الناطقة باللغة الفرنسية والتي ترتبط مع بعضها بروابط اللغة والثقافة والتعاون في شتى المجالات، فضلا عن ارتباطها السابق بالاستعمار الفرنسي<sup>61</sup>.

وهناك مجموعة الدول الناطقة باللغة البرتغالية، سيما في امريكا اللاتينية، ومجموعة الشعوب الناطقة باللغة الاسبانية، وهي اتحادات على غرار الكومنويلث البريطاني والرابطة للفرنكفونية.

اما (رابطة الدول المستقلة) والتي تقيمت عام ١٩٩١ اثر تفكك الاتحاد السوفيتي فهي تضم كل الدول التي انسلخت من الاتحاد السوفيتي والتي تحتفظ مع بعضها بروابط اقتصادية وعسكرية قوية كعملة الروبل السائدة في دولها، والقوات

58- محمود رياض. مذكرات محمود رياض، ج٢. القاهرة، دار المستقبل العربي ١٩٨٦ ص ٢٤٤.

59- محمد حسنين هيكل. مالذي جرى في سوريا؟ القاهرة ١٩٩١ ص ٧.

60- د. حسن الجبلي. المصدر السابق ص ٢٤٧ - ٢٦٤.

61- فيبي ماز، ووليام لويس. امتطاء النمر، تحدي الشرق الاوسط بعد الحرب الباردة، ترجمة عبد الله جمعة الحاج. ابو ظبي. مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٦ ص ٣٩-٤٧.

العسكرية الرومية المتواجدة فيها، وهذه الدول تتعاون سياسيا وامنيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا، ولكنها مستقلة في سياساتها الداخلية والخارجية<sup>62</sup>. غير ان هذا الاتحاد اقوى من الاتحادات السابقة (الكومنويلثات) لكنها غير متضامنة مع بعضها، بل ان الخلافات مستحكمة بينها كجورجيا وروسيا الاتحادية، وارمينيا وانريجان، ومعظمها تعاني من حركات انفصالية للمكونات القومية فيها.

ان نظرية هذه الاتحادات قائمة على غلبة العامل الذاتي على العامل للتراكمي، بمعنى السيادة الداخلية والخارجية دون قيود تذكر، والاتحاد في امور ثقافية ولغوية ومصالح اقتصادية وسياسية، ومادامت هذه الاتحادات لا تضر مصالح هذه الدول بشكل مباشر فانها مرشحة للاستمرار، ولكنها ايضا تسمح للخروج منها عندما تتعارض تلك المصالح بينها، ولا يمكن عدم توقع قيام اتحادات فيدرالية مع بعضها في حالة التوافق، والتعرض لاطوار خارجية محتملة او اخطار داخلية.

<sup>62</sup> - لمي خليل زادة التقييم الاستراتيجي. ابو ضبي، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٣ ص ٢٢٦-٣٧٢.

الذكور

علي عباس مراد<sup>(١)</sup>

تمهيد..

منذ أن شهد القرن العشرين ظهور مجموعة الدول حديثة الاستقلال والمعروفة أيضاً بـ(دول العالم الثالث) نسبة إلى نشأتها التاريخية اللاحقة لنشأة العالمين الأول (الرأسمالي) والثاني (الاشتراكي)، تلقى أوضاع هذه الدول وظروفها العامة والخاصة عناية الساسة والأكاديميين واهتمامهم في الداخل والخارج بقصد تحديد خصائصها والكشف عن مشكلاتها والتعرف على أسباب تدلي قدراتها ومنجزاتها في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والتقنية مقارنة بمثيلاتها في الدول الرأسمالية الغربية. إلا أن مرور عقود عديدة تراكت فيها نتائج ذلك الاهتمام وتتابعت السياسات العملية المرتبطة به لم يأت معه جديد. فلم يتغير شيء حقيقي في أوضاع هذه الدول، ولم تحل أي من مشكلاتها التي ولدت معها إن لم تصبح تلك المشكلات أكثر اتساعاً وعمقا من ذي قبل وأشد تعقيدا وأعصى على المعالجة مما كانت عليه في بدايتها. وفي سياق الجهود النظرية والعملية لمقاربة مشكلات العالم الثالث والتعاطي معها، جاءت نشأة مفهوم (التخلف) كصياغة اصطلاحية تعكس الطبيعة السلبية لتلك المشكلات وتعتبر عنها، ثم شاع استخدامه كصفة سلبية لصيقة بالدول التي تعاني مثل هذه المشكلات لتظهر في الأدبيات السياسية مسميات مثل (الدول المتخلفة) و (المجتمعات المتخلفة). وبإحاطت الدول المتخلفة تجاوز مشكلاتها وإيجاد الحلول والمعالجات لها، فقد أدى ذلك إلى إنتاج مفهوم "التنمية" كصياغة اصطلاحية تعكس الطبيعة الإيجابية لهذه المحاولات وتعتبر عنها، ثم شاع استخدامه بعد ذلك كصفة إيجابية للدول التي تحتاج إلى تلك المحاولات وتعتمدها، لتظهر في الأدبيات السياسية تسمية (الدول النامية) كصيغة معدلة أو ملطفة للتسمية الأولى (الدول المتخلفة).

ومن منظور ظاهرة التخلف الشامل، ونقيضها ظاهرة التنمية الشاملة، تقارب هذه الدراسة موضوعها (المشاركة السياسية) وتعالجها انطلاقاً من فرضية مفادها: إن أحد أهم أسباب التخلف الشامل في البلدان المتخلفة هو التخلف السياسي الناتج عن غياب المشاركة السياسية أو شكليتها وانعدام فاعليتها، وعليه فإن معالجة التخلف الشامل في هذه البلدان مرهون بمعالجة التخلف السياسي فيها والمرهون بدوره

<sup>(١)</sup>كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد.

بتحقيق المشاركة السياسية في هذه البلدان.  
أو بعبارة أخرى، إن تحقيق المشاركة السياسية وتفعيلها في البلدان المتخلفة هو شرط تحقيقها للتنمية الشاملة، وبذلك نكون أمام معادلتين تعبران عن علاقة ارتباطية واحدة بصورتين متعاكستين:  
**المعادلة الأولى:**

أزمة المشاركة السياسية ← أزمة التخلف السياسي ← التخلف الشامل  
**المعادلة الثانية:**

المشاركة السياسية ← التنمية السياسية ← التنمية الشاملة  
ويتساوي أطراف هاتين المعادلتين وتماثل نتائجهما عكسيا، ستكون أزمة المشاركة السياسية في المعادلة الأولى، سبب أزمة التخلف الشامل ومصدرها، متما أن المشاركة السياسية في المعادلة الثانية هي شرط للتنمية الشاملة وقاعدتها. وقد انعكس المنظور المركب لهذه الفرضية ومعادلاتها، على منهجية الدراسة التي كان لابد لها من أن تستجيب لاجتماع وتفاعل الجزئي والكلّي/ الفرعي والأساسي والحركة المتناوبة بينهما بجمعها بين المنهجين الاستنباطي والاستقرائي بقصد الانطلاق من الكل إلى الجزء ثم العودة من الجزء إلى الكل في دورة حركية متناوبة عالجت موضوعها في ثلاثة محاور هي: التخلف والتنمية، التنمية السياسية، المشاركة السياسية.

### التخلف والتنمية..

نقدم القول بأن ظهور مفهوم (التنمية) أمر استدعاه الظهور الأسبق لمفهوم (التخلف) الذي يشير إجمالا إلى ظاهرة ذات بعدين:

**الأول:** التشوهات التركيبية والاختلالات البنيوية والوظيفية في بلدان العالم المتخلفة (العالم الثالث) بحكم معاناتها من الآثار السلبية الناجمة عن المسارات السلبية لسياقات تطورها التاريخي وظروفها الذاتية من جهة، وخضوعها من جهة أخرى للظاهرة الاستعمارية في صورها القديمة والجديدة المباشرة وغير المباشرة.

**الثاني:** إيجابية الأوضاع في الدول الرأسمالية الغربية وسلبيتها في الدول حديثة الاستقلال، والمقارنة بينهما على أساس أن الإيجابي هو النموذج القياسي والأداء المعياري للسلبى لتكون نتيجة ذلك هي التمييز بين الأولى كنول (متقدمة) والثانية كنول (متخلفة).

أما محصلة ذلك فهي الحضور المؤثر للدول الرأسمالية الغربية وسياساتها الاستعمارية ونزعة مركزية الذات الأوروبية لديها في ظاهرة التخلف مرتين، الأولى لأن هذه الدول وسياساتها من أهم أسباب تبلور ظاهرة التخلف واتساع نطاقها وتفاقم مظاهرها وآثارها، والثانية لأن أوضاعها ومنجزاتها هي النموذج المعياري أو الأداة القياسية التي تقاس بدلائلها مستويات التطور والنمو في المجتمعات الأخرى لتصنف وتوصف باعتبارها بلداناً متقدمة أو متخلفة. وقد جعل ذلك من مفهوم التخلف (مفهوما نسبياً) لأنه في الجانب الأساسي منه تخلف مصنوع تبلورت ملامحه وتجزأت نتائجه بفعل مؤثرات وقوى خارجية، ولأنه أيضاً (تخلف بالنسبة إلى ما أنجزته الرأسمالية، ناهيك عن الاشتراكية، من نمو لقتصادي ولجتماعي شامل...معنى هذا أنه لا يوجد تخلف مطلق)<sup>١</sup>. وفي ضوء ذلك يمكن القول إن تخلف أي مجتمع (لا يعني عدم التطور لأن المجتمعات كلها حصيلة آلاف من سنوات التطور. إنها متخلفة بالنسبة إلي الأقطار الصناعية المتقدمة.. إن تخلفها اليوم ليس أمراً طبيعياً، بل حالة غير طبيعية، أي حالة اجتماعية هي نتاج للتاريخ)<sup>٢</sup>.

وإذا كان هناك من اختلاف بشأن حدود التخلف ومعاييره ومظاهره، فمن المؤكد أن هناك اتفاقاً على طبيعته الشاملة والمركبة كظاهرة مرضية تعم بآثارها الضارة كل أنظمة المجتمع ومؤسساته أفقياً وعمودياً، وتشمل بنتائجها السلبية كافة نواحي الحياة الإنسانية وفي كل مفرداتها الأساسية والفرعية. لذلك يمثل التخلف بالنسبة للمجتمعات التي تعاني منه تحدياً شاملاً لا مناص لها من مواجهته مواجهة شاملة بما يتناسب مع طبيعته ويستجيب لمتطلباته، وتحت مفهوم (التنمية) اجتمعت الصيغ المتنوعة والأشكال المختلفة لهذه المواجهة. ولأن التخلف (ظاهرة كلية شمولية أو حقيقة مركبة تتناول كافة جوانب البناء الاجتماعي..لذلك يجب التأكيد على أن قضية التنمية هي قضية تغيير حضاري شامل يتناول كافة أبنية المجتمع وأدواره، وتتضمن جوانبه المادية وغير المادية)<sup>٣</sup>. وإذا لا سبيل لحل المشكلات الشاملة إلا بالمعالجات الشاملة، فلا بد أن تكون تطبيقات التنمية ونتائجها كفعل إرادي غائي لمواجهة التخلف ومعالجة مشكلاته ذات طبيعة كلية شاملة تمتد أفقياً وعمودياً لتشمل كل أنظمة المجتمع ومؤسساته. فالتنمية (ليست مجرد رفع مستوى الدخل، وليست مجرد تحقيق أهداف اقتصادية، بل أن النجاح في رفع مستوى الدخل لا يتوقف على ظروف اقتصادية

<sup>١</sup> فؤاد مرسى. التخلف والتنمية.. دراسة في التطور الاقتصادي. دار الوحدة. بيروت. ط١. ١٩٨٢. ص١٣.

<sup>٢</sup> بيتر وورسلي. العوالم الثلاث. دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد. ط١. ١٩٨٧. ج١. ص٢٤-٢٥.

<sup>٣</sup> علي الدين هلال. نحو إطار نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي. مجلة قضايا عربية. بيروت. عدد١. ص٨. ١٩٨١.

وحسب بقدر ارتباطه بظروف اجتماعية عامة تتعلق بالقيم والتعليم والأخلاق والنظام السياسي والاجتماعي والسياسة الخارجية إلى غير ذلك من اعتبارات<sup>٤</sup>، وطالما أن شمولية التحدي (التخلف) تفرض شمولية الاستجابة (التنمية)، فمن الواجب أن تكون هذه التنمية (أشمل من مجرد التنمية الاقتصادية التي تعتبر جزء لا يمكن عزله عن الجوانب السياسية والاجتماعية والثقافية في المجتمع، وأن تنمية البني التحتية... لا يمكن أن تتم بمعزل عن تنمية البني الفوقية.. بل أنه إذا لم تكن الثانية شرطاً لتنمية الأولى، فلا أقل من أن تتزامن وتتوازى معها في الكم والكيف)<sup>٥</sup>. ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن التنمية هي المجموع الكلي المتفاعل للأنشطة الفرعية المتخصصة والمسؤولة عن تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. وبذلك ستكون التنمية الكلية الشاملة هي محصلة المنجزات المتكاملة والمتفاعلة لمجموع الأنشطة التنموية الفرعية التي تمس كل جوانب الحياة الاجتماعية وتعيد تشكيلها وفقاً للنموذج التنموي المعتمد. وإن يؤكد جابريل المولد أن الأوساط الأكاديمية سادت فيها فئاعة مبكرة تفيد بأن التنمية في بلدان العالم الثالث المتخلفة لا تتطلب سياسات اقتصادية فقط بل وتتطلب أيضاً وجود مؤسسات سياسية قادرة على تعبئة وتنمية الموارد البشرية والمالية بفعل تمتع المتغيرات السياسية في هذه البلدان بنفس أهمية المتغيرات الاقتصادية. فإنه بذلك يجعل تحقيق التنمية الاقتصادية أمراً متعزلاً في غياب التنمية السياسية<sup>٦</sup>، ووفقاً للمفهوم السابق للتنمية العامة والشاملة فإن التنمية السياسية وبشكل عام هي نشاط تنموي فرعي متخصص مسئول عن تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته السياسية. كما تتأكد أهمية التنمية السياسية وضرورتها وأولويتها لتحقيق التنمية بفعل عاملين آخرين هما:

١. إن غالبية المجتمعات المتخلفة تخوض لأول مرة تجربة بناء الدولة العصرية وفقاً للنموذج الغربي مما يقتضي ابتداء هذه المجتمعات ببناء الأفكار والقيم والمؤسسات الجديدة اللازمة لذلك من جهة، ومن جهة ثانية إعادة بناء الأفكار والقيم والمؤسسات التقليدية فيها بما يناسب متطلبات إقامة هذه الدولة.
٢. إن التنمية من حيث علاقتها بالسياسة وتأثيرها بها خيار/قرار هو لابتداء

<sup>٤</sup> المرجع السابق؛ انظر أيضاً: اتونوبوس كرم. العرب أمام تحديات التكنولوجيا. سلسلة عالم المعرفة. الكويت. ١٩٨٢. ص ١٦٠-١٧٦.

<sup>٥</sup> عمر إبراهيم الخطيب. التنمية والمشاركة في قطر الخليج العربية. مجلة المستقبل العربي. بيروت. عدد ٤٠. ١٩٨٢.

<sup>٦</sup> محمد زاهي بشير المغربي. التنمية السياسية والسياسة المقارنة. قراءات مختارة. جامعة قارونس. بنغازي. ط١. ١٩٩٨. ص ٣٣.



وبالأصل خيار/قرار سياسي، ومن ثم فإن التنمية في جوهرها (تخطيط والتخطيط بدوره هو إرادة سياسية تتبع من مفهوم الاختيار من جانب والفاعلية النظامية من جانب آخر)<sup>٧</sup>، وبذلك تكون مشكلة التنمية أولا وقبل كل شيء (مشكلة سياسية)<sup>٨</sup>. وعلى هذا الأساس فإن الإرادة السياسية ومؤسساتها هي للمسئولة نظريا وعمليا عن اتخاذ قرار التنمية وتعيين نموذجها التطبيقي وتوفير متطلباتها المادية والمعنوية وتنفيذها وتحقيق أهدافها. وطالما أن قرار التنمية أخيرا وفي النهاية قرار سياسي، فسيكون تحقيق التنمية الشاملة مشروطا (بقيام مؤسسات سياسية تؤمن بفلسفة التغيير الدائم والطور المستمر والتقدم المتواصل، وتضع المخططات العملية لتطبيق هذه الفلسفة)<sup>٩</sup>، فهذه المؤسسات هي وحدها القادرة على اتخاذ قرار التنمية وتنفيذه وتوفير متطلبات نجاحه ماديا ومعنويا. وإذا لا يمكن للسياسة أن تحقق التنمية ما لم تتحقق التنمية في السياسة التي هي صاحبة قرار التنمية ومنفذته، فلا بد للتنمية السياسية من أن تتمتع بالأولوية على باقي الأنشطة التنموية الفرعية وتحصل موقع الصدارة بينها. ولفهم أوضح للتنمية السياسية وعلاقتها بالتنمية الشاملة وضرورتها لتحقيقها واشتراطها لإنجازها، لابد من تحديد النطاق التخصصي للتنمية السياسية وتعيين شروطها وممتزجاتها والمشكلات التي تسعى لحلها ومعالجتها.

<sup>٧</sup> حامد ربيع. الظاهرة الإيمانية والتطور الوحدوي.. حول بناء نظام إسلامي عربي جديد. مجلة شؤون عربية. بيروت، عدد ٣، ص ١. ١٩٨١.

<sup>٨</sup> المرجع السابق.

<sup>٩</sup> محمد المجنوب. الإتمام والأنظمة السياسية العربية. مجلة قضايا عربية. بيروت. عدد ٣ ((خاص)). ص ٦. ١٩٧٩.

## التنمية السياسية..

لما كانت (التنمية السياسية) مفهوما تطبيقيا فرعيا مشتقا من مفهوم (التنمية) ومرتبطا به، فمن الطبيعي أن تأتي نشأة المفهوم الفرعي لاحقة لنشأة المفهوم الأساسي الذي يحتويه ويؤطره، وهو ما حدث فعليا بعد أن انتضحت الأبعاد السياسية لعملية التنمية الشاملة على مستوى المقدمات والنتائج وتأكد ارتئان إنجاز هذه العملية بتنمية الأفكار والقيم والمؤسسات والأنشطة السياسية في المجتمعات المتخلفة (النامية). ولأن الأصل وهو التنمية نشاط يستهدف معالجة مشكلات التخلف العامة، فإن الفرع وهو التنمية السياسية نشاط يستهدف معالجة مشكلات التخلف السياسي الخاصة التي لاحظ العديد من الباحثين اتساع نطاقها وتنوع مظاهرها وأبعادها وتعدد آثارها السلبية وأضرارها. فالمجتمعات المتخلفة تعاني من قائمة طويلة من مشكلات التخلف السياسي التي تشمل فقدان للنظم السياسية فيها للشرعية وعدم استقرارها ومحدودية تخصصها الوظيفي وضعفها وقلة فاعليتها وافتقارها إلى الإجراءات المؤسسية القانونية والسلمية والمستقرة لممارسة السلطة وتداولها والقواعد العادلة لتوزيع الأدوار والموارد وتنظيم علاقات الحقوق والواجبات مجتمعيا وسلطويا، وحظرها أو تعطيلها لصيغ المشاركة السياسية وآلياتها، وعجزها عن تجسيد المصالح العامة لمواطنيها، وتدخلها المفرط في حركة المجتمع ونشاطاته، مروراً بتبعيتها للإرادات والمصالح الخارجية وعدم قدرتها على صنع سياسات مستقلة عنها، وفشلها في خلق الهوية الوطنية الموحدة... الخ<sup>١٠</sup>. وقد تعددت المسميات التي أطلقت على المشكلات السياسية للبلدان المتخلفة وتنوعت تصنيفاتها، فأسماها جابريل الموند (تحديات Challenges التنمية السياسية) وصنفها إلى أربعة تحديات هي (بناء الأمة، بناء الدولة، المشاركة، والتوزيع)<sup>١١</sup>. وأطلق عليها روستو تسمية (متطلبات Requirements التنمية السياسية) وصنفها إلى ثلاثة متطلبات هي (الهوية للأمة، السلطة للدولة، المساواة للحدائق)<sup>١٢</sup>. واتفق لوسيان باي و لجنة السياسة المقارنة الأمريكية على النظر إلى تلك المشكلات بوصفها (أزمات Crises التنمية السياسية)<sup>١٣</sup>، وقد حددتها اللجنة بخمس أزمات هي (أزمة الهوية، أزمة الشرعية، أزمة المشاركة، أزمة للتوزيع، أزمة التخلف) وأضاف إليها باي أزمة (الاندماج) ليجعلها ست أزمات بدلا من خمس. ويتجسد محتوى هذه الأزمات في:

<sup>١٠</sup> مايرون فينر، التغير السياسي.. آسيا، أفريقيا، الشرق الأوسط، عن: محمد زاهي بشير المغربي، التنمية السياسية والسياسة المقارنة، مرجع سبق ذكره، ص ١١١-١٤٣.

<sup>١١</sup> محمد زاهي المغربي، التنمية السياسية والسياسة المقارنة، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

<sup>١٢</sup> المرجع السابق، ص ١٨٦.

<sup>١٣</sup> المرجع السابق، ص ١٨٦.

### أزمة الهوية:

وهي الأزمة الناجمة عن غياب الهوية السياسية الوطنية الموحدة والمشاركة بين أفراد المجتمع السياسي/الدولة مما يُضعف أو يُغيب لديهم الإحساس بالانتماء لهذه الدولة والولاء لها في مقابل حضور وقوة إحساسهم بالانتماء والولاء للجماعات الاجتماعية الفرعية التي يرتبطون بها (الاثنيات، القبائل، الديانات، المذاهب، الطوائف، الطبقات، الأقاليم)، فتضعف أو تغيب لديهم نتيجة لذلك مشاعر المواطنة والولاء القومي أو السياسي المركزي.

### أزمة الشرعية:

وهي الأزمة الناجمة عن افتقار النظام السياسي للشرعية في صورها المجتمعية أو القانونية أو الإنجازية أو كلها معاً، وعجزه عن تجسيد الإرادة الاجتماعية والتعبير عنها لعدم صدوره عن هذه الإرادة ابتداءً، أو فشله في تحقيق قيمها وأهدافها لاحقاً مما يشوب في رفض المجتمع للخضوع الإرادي لسياسات هذا النظام وقطيعة معه ومعارضته له. وحيث إن الدولة مفهوم مجرد يجسده النظام السياسي ويعبر عنه من خلال شخصوه وأفكاره ومؤسساته ونشاطاته، فإن غياب الشرعية عن هذا النظام ينسحب بآثاره في الكثير من الأحيان على الدولة نفسها لتعاني هي الأخرى من غياب شرعية الوجود والاستمرار والفعل.

### أزمة للمشاركة:

وهي الأزمة الناجمة عن شكلية أو انعدام التشريعات والمؤسسات والآليات الضامنة للمشاركة الشعبية في العملية السياسية كنتيجة لعدم استجابة النظام السياسي للمطالب المتزايدة لتحقيق هذه المشاركة أو تفعيلها أو استجابته لها بصيغ شكلية تجردها من كل محتوى حقيقي، لتصبح العملية السياسية نتيجة لذلك منفصلة عن الإرادة الشعبية ومتعارضة معها. وبذلك يكون القمع والخوف، أو ما يسميه جون لوك (سلام المقابر)، هو أساس العلاقة بين السلطة والمجتمع في الأنظمة الاستبدادية فتغيب السياسة فكرياً وممارسة وينعدم وجودها كأساس ومركز لهذه العلاقة.

### أزمة التوزيع:

وهي الأزمة الناجمة عن التوزيع غير العادل للأولر والموارد والحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع وجماعته وأقاليمه بفعل استئثار فرد أو جماعة أو إقليم بالحصة الأساسية من كل ذلك على حساب حصص باقي الأفراد والجماعات والأقاليم.

والنتيجة الطبيعية لذلك هي استخدام النظام السياسي لسلطته وقدراته لانتهاك مبادئ المواطنة والعدالة والمساواة بين الأفراد والجماعات وليس لتحقيقها وضمانها، ومن ثم اختلال التركيبة المجتمعية جراء الشعور بالظلم والغبن وضياح الحقوق وعدم المساواة.

#### أزمة التثقل:

وهي الأزمة الناجمة عن عجز النظام السياسي ومؤسساته وأجهزته عن تجسيد الإرادة المجتمعية والتعبير عنها مما يؤدي إلى عجزه عن ممارسة أدواره على كامل الامتداد الجغرافي للوحدة السياسية لفقيا أو في كامل مستويات البنية المجتمعية عموديا. ويرترب على ذلك عجز هذا النظام عن إنجاز وظائفه والقيام بمسؤولياته ومن ثم غيابته عن تفاعلات الحياة الاجتماعية إلا بقدر ما يفرض نفسه عليها بالقوة ويضمن وجوده واستمراره فيها قسريا.

#### أزمة الانسجام:

وهي الأزمة الناجمة عن عدم تحقيق النظام السياسي للاندماج والتكامل الاجتماعي، جزئيا أو كليا، لعجزه عن تجسيد الإرادة المجتمعية والتعبير عنها وفشله في توحيد قيمها وأهدافها مما يوقع للقطيعة بينه وبين المجتمع ويجعل الصدام بينهما هو الاحتمال الأكثر ترجيحاً.

وتأسيسا على ما تقدم فقد استلزم ظهور مفهوم التنمية السياسية وتعيين أزماتها والحلول المناسبة لها تقديم معالجات نظرية مستقلة تعبر عن مضمون هذه التنمية وتحدد مقوماتها. إلا أن هذه المعالجات النظرية ما كان لها أن تولد من فراغ ولا أن تتطور في فراغ، فعلاقة النقرع والاستتباع بين التنمية السياسية (الفرع/الجزء) والتنمية الشاملة (الأصل/الكل) فرضت على تلك المعالجات أن تبدأ من الكلي وصولا إلى الجزئي مؤسسة بالتنمية الشاملة للتنمية السياسية لتصبح مراحل نشأة مفاهيم التنمية السياسية وتطورها جزءاً من مراحل تطور مفاهيم التنمية الشاملة ونظرياتها، وتشمل هذه المراحل<sup>14</sup>:

- مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة خصائص المأسسة والشرعية والانسجام والأخذ بالنموذج الغربي للديمقراطية الليبرالية في نطاق الممارسة

<sup>14</sup> المرجع السابق. ص ١٤-٢٣؛ انظر لمزيد من التفصيل حول مفاهيم التنشئة السياسية ومعالجاتها المتعددة:

### السياسية.

• مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة قدرة النظام السياسي على حماية النظام العام (Order) وكبح التوترات الناجمة عن الحركة الاجتماعية ومطالب المشاركة السياسية ومدى تحكم النظام السياسي بتلك التوترات وقدرته على ضبطها وتوجيهها.

• مرحلة تحديد مفهوم التنمية السياسية بدلالة قدرة النظام السياسي على الجمع بين حماية النظام العام (Order) وإمكانية صنع السياسات العامة العقلانية الرشيدة وتنفيذها.

وظهرت في إطار هذه المراحل صيغ متعددة ومتنوعة لتحديد مفهوم التنمية السياسية وتعيين أركانها. حيث رأى كورجانسكي أن التنمية السياسية تتمثل في (زيادة الكفاءة للحكومة على استخدام الموارد البشرية والمادية اللازمة لتحقيق الأهداف القومية، وهي جانب من جوانب التنمية الاجتماعية)<sup>15</sup>. وذهب المولد و بويل في كتابهما (السياسة المقارنة مدخل تيموي) إلى أنها تتجسد في (استجابة النظام السياسي للتغيرات في البيئة المجتمعية والدولية، وتحديد استجابة النظام لتحديات بناء الدولة وبناء الأمة والمشاركة والتوزيع)<sup>16</sup>، مؤكدين أن التنمية السياسية هي التحديث السياسي وأن معايير إنجازها هي التمايز البنيوي واستقلالية النظم الفرعية وعلانية الثقافة. وقدم لوسيان باي قائمة بعشرة تعريفات أساسية للتنمية السياسية هي<sup>17</sup>:

- التنمية السياسية هي المتطلب السياسي للتنمية الاقتصادية.
- التنمية السياسية هي السياسة كما تمتاز بها المجتمعات الصناعية.
- التنمية السياسية هي التحديث السياسي.
- التنمية السياسية هي بناء وإرادة للدولة القومية.
- التنمية السياسية هي التنمية الإدارية والقانونية.
- التنمية السياسية هي للتنمية والمشاركة الشعبية.
- التنمية السياسية هي الاستقرار والتغير المنظم.
- التنمية السياسية هي بناء الديمقراطية.
- التنمية السياسية هي التعبئة والقوة.

<sup>15</sup> A. F. ORGANSKI, THE STAGE OF POLITICAL DEVELOPMENT. NEW YORK. 1965. PP 45-66.

<sup>16</sup> محمد زاهي المغربي، التنمية السياسية والمشاركة المقارنة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧١.

<sup>17</sup> LUCIANW PYE. OP. CIT. PP 45-66.

- التنمية السياسية هي جانب من جوانب عملية التغير الاجتماعي المتعدد الأبعاد. واستخلص باي العناصر المشتركة بين هذه التعريفات والتي رأى أنها تمثل أسس التنمية السياسية ومركزاتها، وهذه العناصر هي:
  - المساواة بين الأفراد في علاقتهم بالنظام السياسي.
  - تمايز وتخصص البنى والمؤسسات والعمليات السياسية.
  - قدرة النظام السياسي في علاقه مع محيطه.
- وحد صامويل هنتجتون العناصر الأساسية للتنمية السياسية في<sup>١٨</sup>:
  - ترشيد السلطة وعقلنتها.
  - تمايز الوظائف والمؤسسات السياسية وتطويرها وتفعيلها.
  - المشاركة السياسية لخلق علاقة متوازنة ومستقرة بين السلطة والمجتمع.
- ثم استخلص من تعريفات باي أربعة عناصر مشتركة رأى فيها مقومات التنمية السياسية وأركانها وهي (العقلانية، الاندماج القومي، الديمقراطية، التعبئة أو المشاركة).
- والملاحظ على هذه التعريفات موازاتها بين مفهومي (التحديث السياسي والتنمية السياسية) بحكم مطابقتها بين أركان التحديث وشروطه وأركان التنمية السياسية وشروطها. وهذا ما تعكسه أيضا تعريفات التحديث السياسي عند بعض الباحثين مثل كوليمان الذي رأى فيه (العملية التي تبغي تحقيق التمايز بين المؤسسات وإضفاء الطابع العقلاني على الثقافة السياسية بما من شأنه تعزيز قدرة النظام السياسي للمجتمع)<sup>١٩</sup>، وايزنشتاد الذي حدد مظاهر التحديث السياسي في<sup>٢٠</sup>:
  - ترشيد بناء السلطة السياسية.
  - تمايز البنى والوظائف السياسية.
  - تدعيم القدرات المؤسسية والسياسية للنظام السياسي.
  - تسيّد روح المساواة في الحقوق والواجبات واستفراقها المجتمع بأسره.
- وقارب الباحثون العرب المفاهيم الغربية للتنمية السياسية أو التحديث السياسي، فوصفها نبيل السملوطي بأنها (تنمية قدرات الجماهير على إدراك مشكلاتهم بوضوح، وقدرتهم على تعبئة كل الإمكانيات المتاحة لمواجهة هذه المشكلات... إلى جانب تمثيل

<sup>18</sup> SUMUEL P.HUNTINGTON. POLITICAL ORDER IN CHANGING SOCIETIES NEW HEAVEN.YALE UNIVERSITY. 1976. PP 32-35.

<sup>19</sup> السيد الزيات. التحديث السياسي والمساواة الديمقراطية. مجلة الوحدة. الرباط عدد ٨. سنة ٨٠.

١٩٩١.

<sup>20</sup> المرجع السابق.

الجماهير لقيم الديمقراطية وتحقيق المساواة السياسية بين أبناء المجتمع<sup>٢١</sup>. ورأى عبد المطلب شاتم أن التنمية السياسية (هي مجموعة التغييرات المخططة التي يتم تنفيذها للأبنية أو العمليات المجتمعية، بغرض زيادة قدرات النظام السياسي وزيادة استجابته للنظم المجتمعية وزيادة إسهامه في زيادة قدرات النظم المجتمعية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية)<sup>٢٢</sup>. وطابق محمد علي محمد بين التنمية السياسية والتحديث السياسي من حيث إن التنمية السياسية جزء من التنمية الشاملة ومن ثم فهي (العملية التي يحدث بمقتضاها تغير في القيم والاتجاهات السياسية والنظم والبناءات، وتدعيم ثقافة سياسية جديدة بحيث يؤدي ذلك كله إلى مزيد من التكامل للنسق السياسي)<sup>٢٣</sup>. ومضى صادق الأسود في ذات الاتجاه مؤكدا أن (الدراسات الحديثة في التنمية السياسية تنصب بصورة مباشرة على النظام السياسي بحد ذاته باعتباره مجموعة بنى متميزة عن البنى الأخرى الاجتماعية والاقتصادية. فكما أن النظام الاقتصادي مثلا تجري عليه تعديلات فيخضع عسريا، كذلك النظام السياسي يتطور ويحول ويتكامل. ففما وراء عملية التنمية الاجتماعية الاقتصادية توجد عملية أخرى معقدة هي التنمية السياسية... وهذه العملية الأخيرة التي يمر عنها عناصر متعددة تؤثر مرور نظام سياسي تقليدي إلى نظام سياسي عصري)<sup>٢٤</sup>. ونظر عبد اللطيف القصير إلى التنمية السياسية من حيث هي فعالية تهدف إلى (زيادة جدوى للنظام السياسي وفاعليته في مواجهة المشكلات التي تعترضه عبر إعادة جدولة القيم والافضليات وفقا للإطار الفكري للنظام القائم، وبالتالي توسيع النشاط المتعاون عن طريق بلورة دور المواطنين في المشاركة في وضع جدولة القيم والافضليات تلك)<sup>٢٥</sup>. وقال علي السنين هلال إن التنمية السياسية هي (تطور حركي) يتضمن (زيادة قدرة للنسق السياسي.. على التأثير على باقي النسق الفرعية للمجتمع، فالنظام المتقدم يفترض قدرات أكبر لمؤسسات النسق السياسي في مجالات الأداء والإنجاز والفاعلية والتفويض المحكم.. ويتضمن ثلاثة عناصر أساسية أولها التنمية وتفترض نظاما قانونيا له طابع العمومية والتجريد ينطبق

٢١ نبيل السمالوطي. بناء القوة والتنمية السياسية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٧٨. ص ١٤٩.

٢٢ عبد المطلب غالم. دراسات في التنمية السياسية. مكتبة نهضة الشرق. القاهرة. ١٩٨١. ص ١٣٥.

٢٣ محمد عتي محمد. علم الاجتماع السياسي. دار الجامعات المصرية. الإسكندرية. ١٩٧٥. ص ٢٩٠.

٢٤ صادق الأسود. علم الاجتماع السياسي.. أسسه وأبعاده. كلية القانون والسياسة. جامعة بغداد. ١٩٨٦. ص ٢٨١.

٢٥ عبد اللطيف القصير. التنمية السياسية. محاضرات قسم الدراسات العليا. كلية القانون والسياسة. جامعة بغداد. ١٩٧٨.

على كل الأفراد.. ويفرض نوعا من المساواة عليهم أمام القانون. وثانيها إن التجنيد للمناصب العامة يعكس معايير الإنجاز والعمل ويقوم على عنصرَي الكفاءة والتفوق وليس على اعتبارات القرابة والنسب والعلاقات الاجتماعية، وثالثها إن التنمية السياسية تتضمن مزيدا من المشاركة الجماهيرية والإسهام الشعبي في العملية السياسية<sup>٢٦</sup>.  
إن التعريفات السابقة للتنمية السياسية يمكن أن تزودنا بالأركان الأساسية لهذه التنمية إذا ما استخلصنا العناصر المشتركة بينها والتي هي:

- تمييز البنى والمؤسسات السياسية وتخصصها الوظيفي.
- تفعيل البنى والمؤسسات السياسية وزرع قدراتها الإنجازية.
- ترشيد الممارسة السياسية وبناءها على أسس عقلانية وضعية.
- المشاركة الشعبية في العملية السياسية.

وتأسيسا على هذه الأركان/العناصر فإن التنمية السياسية وبشكل تفصيلي يتضمن أركانها الأساسية هي عملية متخصصة متفرعة عن التنمية الشاملة وتستهدف تحديث وتطوير وتفعيل أفكار المجتمع وقيمه ومؤسساته وأنشطته السياسية لإقامة نظام سياسي متميز بنويًا ومؤسسيًا ومتخصص وظيفيًا وقادر وفاعل إنجازيًا يمارس سياسة وضعية عقلانية أساسها المشاركة الشعبية في العملية السياسية لبلوغ مستوى الاستخدام الأمثل للموارد المادية والبشرية والاستجابة الفعالة للمطالب والمتغيرات الداخلية والخارجية، وعليه فإن تحقيق التنمية السياسية يشترط:

١. استقلالية البنى والمؤسسات السياسية وتمايزها عن باقي البنى والمؤسسات الاجتماعية وتخصصها بالوظائف السياسية حصراً.
٢. قدرة المؤسسات السياسية على صنع قراراتها وتنفيذ سياساتها وبرامجها وتحقيق أهدافها بشكل فاعل ومؤثر.
٣. ممارسة سياسية وضعية عقلانية تحدد الإرادة الإنسانية الحرة والواعية أسسها وأركانها وفقاً للمسايق الاجتماعية-التاريخية الخاصة بهذه الإرادة ودون أي تدخل من المرجعيات الأخرى سواء الغيبية المقدسة أو الإنسانية القسرية. لتكون هذه الإرادة هي وحدها القادرة على تعيين غايات للممارسة السياسية ووسائلها وأساليبها وأهدافها تعبيراً عن المصالح العامة للجماعة السياسية وبعيداً عن المعايير والتفضيلات للفردية الخاصة أو للفئوية الضيقة.
٤. مشاركة سياسية تضمن أوسع صيغ الإسهام المجتمعي في بناء الأنظمة السياسية واختيار أفكارها وبرامجها وسياساتها ومؤسساتها وتخصيصها وتحديد أهدافها

<sup>26</sup> علي الدين هلال، نحو إطار نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي، مرجع سبق ذكره.



ووسائلها وأساليبها. وبذلك يكون للإرادة المجتمعية وحدها الحق في مراقبة هذه النظم والسياسات والمؤسسات والأشخاص ومحاسبتها وتغييرها استنادا إلى مبدأ المساواة القانونية والفعلية بين المواطنين في الأدوار والحقوق والواجبات المدنية والسياسية في إطار النظام السياسي وفي موجهته ضمنا لحضور المجتمع المدني في العملية السياسية وفاعليته فيها، فالمساواة كما يقول/أرسطو (هي بالضبط أن إرادة الأكثرية هي السائدة)<sup>٢٧</sup>.

وباستحضار كل ما تقدم بشأن التنمية من حيث هي:

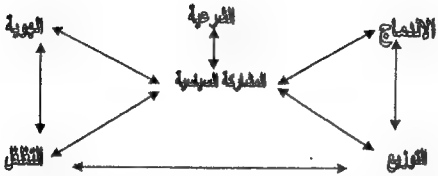
- نشاط كلي شامل تفسر شروطه وتطبيقاته ونتائجه كل جوانب الحياة وعناصرها وتؤثر فيها تبعا لطبيعة نتائجها إن سلبا أو إيجابا فإيجابا.

- قرار/ خيار سياسي تتخذه المؤسسات السياسية وفقا لأليات عملها القانونية والإجرائية وتكون مسئولة عن توفير متطلباته وتنفيذه سياساته وتحقيق أهدافه ومتابعة نتائجه.

فمن الطبيعي أن تكون للمشاركة السياسية مكانة خاصة في عملية التنمية ولن تشغل فيها موقعا مميزا يجعل منها شرطا لازما وضرورة حتمية لتحقيق التنمية السياسية، وحيث إن التنمية السياسية بدورها شرط لازم وضرورة حتمية لتحقيق التنمية، فستكون المشاركة السياسية شرط للتنمية الأول وضرورتها الحتمية من حيث هي الإطار والآلية الأقر والأنسب لتحقيق أوسع مشاركة ممكنة للمجتمع المدني بأفراده ومؤسساته في اتخاذ القرارات المتعلقة بحياته حاضرا ومستقبلا وفي مقدمتها أكثر القرارات مساسا بكل عناصر الحياة وجوانبها:

- قرار التنمية ونموذجها التطبيقي.
- قرار توفير واستخدام الموارد المادية والبشرية اللازمة لتطبيق النموذج للتنموي.

فمن خلال المشاركة السياسية وبواسطتها وفي إطارها يمارس المجتمع المدني حقه ودوره في رسم مسارات حياته واتخاذ القرارات التي تحدد توجهاته بما في ذلك ما يتعلق منها بالتنمية ونماذجها وعملياتها الفرعية، السياسية وغير السياسية، فلا يكون أي من تلك القرارات مفروضا عليه قسرا ودون موافقته، ولا ينفذ دون علمه أو دون مشاركته، ليكون للمشاركة السياسية بذلك موقع القلب بالنسبة لباقي شروط / أزمات التنمية السياسية مثلما يوضح الشكل التالي:



وإذ يرتكز تحقيق التنمية الشاملة بتحقيق للتنمية السياسية المرتبطة أصلاً بتحقيق المشاركة السياسية، فإن ذلك يجعل تحقيق التنمية الشاملة مرهوناً أولاً وأساساً بنجاح المجتمع المدني والنظام السياسي في الوصول إلى الصيغة اللازمة والمناسبة لتحقيق المشاركة السياسية وحل أزماتها المستعصية في البلدان المختلفة. فما هي المشاركة السياسية؟ هذا الشرط الوجوبي لاختيار الأهداف المجتمعية وإنجازها بإرادة مجتمعية حرة وعقلانية ووضعية، تجسدها وتعتبر عنها قرارات مجتمعية تضمن تحقيق التنمية السياسية وصولاً إلى التنمية الشاملة.

#### المشاركة السياسية..

تعد المشاركة السياسية من أقدم محاور الاهتمام الإنساني وأكثرها استحواداً على النشاطات النظرية والعملية للأفراد والجماعات. وبقدر ما سعت الشعوب لتحقيق هذه المشاركة وعملت من أجلها لأنها سبيلها للمساهمة الفاعلة في تحديد قيمها وأهدافها وصنع سياساتها واختيار حكامها ومراقبتهم ومحاسبتهم وتغييرهم، بقدر ما تجنبها الحكام وعملوا على تعطيلها لأنها تقيد سلطاتهم وتمنعهم من الأفراد بتحديد قيم وأهداف مجتمعاتهم وصنع سياساتها دون الخشية من المراقبة والمحاسبة والتغيير. لذلك فقد أصبح لمصطلح (المشاركة السياسية) حضور واسع ومكثف في الدراسات الاجتماعية عامة والسياسية خاصة، وبشكل مباشر في أحيان قليلة وبشكل غير مباشر في أحيان كثيرة من خلال استخدام مصطلحات أخرى مرادفة تعكس مضمونه جزئياً أو كلياً مثل (الديمقراطية، التعبئة الجماهيرية، المساهمة الشعبية). يعكس هذا ويجسد الإدراك العميق لضرورة المشاركة السياسية وخطورتها بالنسبة للعملية السياسية بفعل دورها في نجاح هذه العملية أو فشلها في تنفيذ سياساتها وتحقيق أهدافها انطلاقاً من حقيقتين:

الأولى: إن ظاهرة الاستبداد والبطلة المطلقة تنتج أساساً عن غياب المشاركة المجتمعية في العملية السياسية أو تقييد هذه المشاركة أو شكليتها. وهذه من أخطر المشكلات التي تواجهها الدول والمجتمعات المتخلفة التي تعاني ليس من الآثار السلبية

لهذه الظاهرة فحسب بل ومن لتمامها وتفاقمها المستمرين أيضا. فكما يقول لورد/كتون (إن السلطة مفسدة، وإن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة)<sup>٢٨</sup>. ويقول عنها رأي آخر (السلطة تقصد دائما أولئك الذين يمارسونها وتجعل المواطن ينتصب ضد السلطات)<sup>٢٩</sup>. الثانية: إن الأخذ بالمشاركة السياسية وفعاليتها التطبيقية باتت معايير أساسية للتمييز بين المجتمعات المتقدمة والمجتمعات المتخلفة التي تغيب هذه المشاركة فيها وعنها أو يكون حضورها فيها شكليا ودون فاعلية تطبيقية.

ويأتي مصطلح (المشاركة السياسية) عند العديد من الباحثين بصيغ ومضامين على قدر كبير من التقارب في عناصرها ومقوماتها وإن تباعدت صياغاتها وتعبيراتها. فيقول منتكثون بأنها تعني (أن تصدر القرارات العليا تعبيرا عن الإجماع الشعبي ممثلا في المناقشة والتدبير الشعبي)<sup>٣٠</sup>. وهي عند باي والموند (مساهمة أعداد كبيرة من الأفراد والجماعات في الحياة السياسية)<sup>٣١</sup>. ويرى عمر الخطيب في المشاركة السياسية بمعناها العام والبسيط مرادفا للديمقراطية لأنها هي أيضا تعني (حكم الشعب من الشعب وإلى الشعب... إنها ذلك الشكل من الممارسة السياسية الذي يتسبح لأفراد الشعب، وبلا تمييز حق المشاركة في صنع السياسة العامة للبلاد، وحق المشاركة في اتخاذ القرارات وصناعتها)<sup>٣٢</sup>. ويذهب علي الدين هلال إلى إنها (المشاركة الجماهيرية والإسهام الشعبي في العملية السياسية، وهذه المشاركة يمكن أن تأخذ إما شكل المشاركة الديمقراطية. وإما شكل التعبئة الشمولية)<sup>٣٣</sup>. ويعتقد سعد الدين إبراهيم أن المشاركة السياسية هي (قدرة المواطنين على التعبير والتأثير العلني والحر في عملية اتخاذ القرارات بشكل مباشر أو غير مباشر)<sup>٣٤</sup>.

إن مقارنة هذه الصيغ المتعددة والمتنوعة للمشاركة السياسية لمفهوم الديمقراطية ليست أمرا دون مأسوخ أو بلا أساس. فالارتباط بين المفهومين يعود بالأساس إلى أن المشاركة السياسية هي التجسيد العملي الأوضح والأعمق لفكرة الديمقراطية وتطبيقاتها المتنوعة (المباشرة، غير المباشرة، شبه المباشرة، والشعبية)، والتي تدور كلها حول

٢٨ ماريا لويزا برانيري. المدينة الفاضلة عبر التاريخ. سلسلة عالم المعرفة، الكويت. عدد ٢٢٠. ١٩٩٧.

٢٩ روبرت بيلو. المواطن والدولة. منشورات عويدات. بيروت. ط ٣. ١٩٨٣. ص ١٨٢.

٣٠ S. P. HUNTINGTON. OP. Cit.

٣١ L.W. PYE. OP. Cit.

٣٢ عمر الخطيب. التنمية والمشاركة في أقطار الخليج العربية. مرجع سبق ذكره.

٣٣ علي الدين هلال. نحو إطار نظري لتحليل عملية التنمية السياسية في الوطن العربي. مرجع سبق ذكره.

٣٤ سعد الدين إبراهيم. المجتمع والدولة في الوطن العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت. ط ١. ١٩٨٨. ص ١٨٦.

محور أساسي واحد هو إشراك جميع المواطنين بفرص وأدوار متساوية في كل جوانب العملية السياسية ومراحلها<sup>٣٦</sup>، لأن ذلك هو ما يؤمن حكم الشعب لنفسه بنفسه. كما يعود هذا الارتباط إلى أن الديمقراطية هي الإطار الفكري والمؤسسي والإجرائي الضامن لتحقيق المشاركة السياسية وتفعيلها وقدرتها على تأدية مهماتها وتحقيق أهدافها، مثلما أن المشاركة السياسية هي الشرط الأساسي لتطبيق الديمقراطية وتفعيلها وقدرتها على تأدية مهماتها وتحقيق أهدافها. وإذا نستهدف الديمقراطية كنظام سياسي واجتماعي (توسيع المساحة التي يستطيع أعضاء مجتمع ما حكم أنفسهم من خلاله وفي إطاره عن طريق المشاركة بصورة تامة وحررة في تنظيم حياتهم الاجتماعية)<sup>٣٧</sup>، فستكون المشاركة السياسية جوهر النظام الديمقراطي وروحه المتجسدة في (الدور الذي يقوم به الناس لاختيار نموذج الدولة التي تحدد الحقوق والواجبات لكل المواطنين طبقا للتشريعات والقوانين والدستور)<sup>٣٨</sup>. يؤكد ذلك ويثبتة قيام المشاركة السياسية والديمقراطية على ذات الأسس المتمثلة في الاعتراف بالحريات والحقوق المدنية والسياسية المتساوية للشعب /المواطنين/ أفراد للمجتمع المدني ومؤسساته، وفي مقدماتها حقوقهم في:

- المشاركة في اختيار نظام الحكم في مجتمعهم وتحديد قيمه وأهدافه.
- المشاركة في اختيار هياكل النظام السياسي ومؤسساته وشخصه وآليات عمله.
- المشاركة في صنع السياسات العامة وتنظيم قواعد وآليات تنفيذها ومراقبتها وتغييرها سلميا ودوريا.

وفي ضوء عناصر للتطابق هذه بين المشاركة السياسية والديمقراطية والأسس المشتركة بينهما، يمكن القول بأنهما شيء واحد يكون وجوده الحقيقي والفاعل ضرورة حيوية لازمة لشرعية أنظمة الحكم وقدرتها على التعبير عن إرادة مجتمعاتها المدنية وخياراتها الحرة والمتجسدة في مشاركتها في كل مفردات العملية السياسية ومراحلها سواء أكانت هذه المشاركة منظمة أو عفوية، مؤقتة أو متواصلة، شرعية أو

<sup>36</sup> انظر للتفاصيل:

- عبد الهادي الجوهري، أصول علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ٢٥.

- طارق محمد عبد الوهاب، سيكولوجية المشاركة السياسية، دار غريب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٩، ص ١٤٩.

<sup>37</sup> كريم أبو حلاوة، إشكالية مفهوم المجتمع المدني النشأة-التطور-التجليات، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٨، ص ٨٦.

<sup>38</sup> توم بوتومور، علم الاجتماع السياسي، دار الطلوعة، بيروت، ط ١، ١٩٨٦، ص ٣٥.

غير شرعية، ناجحة أو فاشلة، فالمهم في النهاية هو وجود المشاركة وطوعيتها لأنها إن لم تكن طوعية، فقدت معناها وغايتها<sup>٣٨</sup>.

وتكتسب المشاركة السياسية بالنسبة للدول المتخلفة ضرورة أخرى مضافة باعتبارها الإطار الفكري والمؤسسي والإجرائي الأنسب لتلبية متطلبات معالجة مشكلات التخلف فيها، حيث توفر لها (أرضية صلبة لمناقشة هذه المشاكل ويلورة الحلول العقلانية، وتكوين الإجماع الوطني الذي يحتاجه تطبيق هذه الحلول ومواجهة المشكلات)<sup>٣٩</sup>. وفي الظروف الدولية المستجدة باتت للمشاركة السياسية ضرورة أخرى جديدة مصدرها الطابع الديمقراطي الغالب على وقائع العولمة والتغيرات للناجئة عنها والمصاحبة لها والمتمثلة في:

- ديمقراطية التكنولوجيا / الاتصالات.
- ديمقراطية التمويل / الاقتصاد.
- ديمقراطية المعلومات / المعرفة<sup>٤٠</sup>.

فهذه الوقائع والتغيرات التي تغلب عليها وتجمع بينها خاصية الديمقراطية تفرض على المجتمعات والأنظمة السياسية المتعاطية معها والمتعرضة لتأثيراتها امتلاك خصائص ديمقراطية إن لم تكن مطابقة لها فليس أقل من أن تكون متقاربة معها. ناهيك عن التسارع المفرط في تلك الوقائع والتغيرات ودواعي الاستجابة السريعة لها من خلال الأخذ بالمزيد من قيم المشاركة السياسية وتطبيقاتها لأن (الحكومات، بما فيها تلك التي تضم أطيب النوايا، تبدو عاجزة عن توجيه التغيير الوجهة الصحيحة)<sup>٤١</sup>، ويقتضي مثل هذا التفاعل مع التغيرات الراهنة مشاركة الإرادة الحرة للمجتمع في التخطيط لتحديد طبيعة ذلك التفاعل وأهدافه ومسائله وأساليبه، فتسارع التحول في المجتمعات الحديثة وزيادة تعقيدها على مستوى الأفكار والمصالح والعلاقات، يتطلبان المزيد من القدرات والخبرات للمشاركة في اتخاذ القرارات الصائبة والمناسبة التي قد تتجج الأنظمة الحاكمة الفردية أو القومية في اتخاذها أحياناً لكنها لن تتجج في ذلك دائماً. لذلك لابد من مشاركة الإرادة المجتمعية في اتخاذ

<sup>٣٨</sup> انظر للتفاصيل: طارق محمد عبد الوهاب. سيكولوجية المشاركة السياسية. مرجع سبق ذكره.

ص ١٥٠.

<sup>٣٩</sup> برهان غليون. الديمقراطية العربية. جلد الأمة وأفاق النمو. في: برهان غليون وآخرون. حول الخيار الديمقراطي. مركز دراسات الوحدة العربية. بيروت، ط ١، ١٩٩٤، ص ١٤٢.

<sup>٤٠</sup> توماس ل. فريدمان. السيرة ليكسوس وشجرة الزيتون.. محاولة لفهم العولمة. الدار الدولية للنشر والتوزيع. القاهرة، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٧٩.

<sup>٤١</sup> الفين توفلر. صدمة المستقبل.. المتغيرات في عالم الغد. نهضة مصر للطباعة والنشر. القاهرة، ط ٢، ١٩٩٠، ص ٤٧١.

القرارات التي تكون تلك الإرادة أداتها وموضوعها وغايتها، مثلما أنه لا بد من الآليات والوسائل المناسبة للتعاطي مع تلك القرارات وسياساتها ومؤسساتها، فحتى (نفسك بزماء التغيير المتسارع، سوف نحتاج إلى ترتيبات أكثر تقنما وأكثر ديمقراطية لتوفر تدفقا أيسر ودورا أكبر... في صنع القرارات)<sup>٤٢</sup>. وهذا ما يعنيه قول أحد الباحثين الغربيين بأنك في عصر العولمة تحتاج إلى (دولة أفضل، دولة أنكى، ودولة أسرع)<sup>٤٣</sup>، وليست هذه إلا الدولة للديمقراطية إذ (كلما كان مجتمعك أكثر انفتاحا وديمقراطية، زاد ما تحصل عليه دائما من مبرود وكانت فرصتك أفضل لإجراء تصحيحات في منتصف الطريق قبل أن تتعثر في منحدر شاق)<sup>٤٤</sup>. فإذا كان الاستنتاج المستخلص هنا هو أن لا تنمية دون ديمقراطية<sup>٤٥</sup>، والاستنتاج المستخلص أن الديمقراطية هي المشاركة السياسية أو أنها لا تتحقق بدونها، فسيكون الاستنتاج النهائي أن لا تنمية دون مشاركة سياسية شعبية.

(لا أن الدعوات المتزايدة للأخذ بالمشاركة السياسية أو لتفعيلها وتوسيع نطاق مساهمتها في صنع اتجاهات الحياة الإنسانية في الحاضر والمستقبل، قد تبدو في اعتقاد بعضنا ساذجة وغير عملية، وهي في اعتقاد غيرهم مشبوهة ومقلقة. وقد أكدت وقائع العقد الأخير من القرن العشرين والسنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين، وبخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة والحملة الدولية ضد ما يسمى بالإرهاب ثم احتلال أفغانستان والعراق، أكدت كلها تهاافت هذا الاعتقاد والبطان الكامل للأساس الذي يقوم عليه والقاتل بإمكانية استمرار حكم المجتمعات واتخاذ القرارات التي تصنع لتجاهات حياتها بمعزل عن مشاركة هذه المجتمعات أو بخلاف إرادتها. والأكثر من ذلك تهاافتا وطلانا ما تروج له وتدعيه الأنظمة الاستبدادية من أن تطبيق المشاركة السياسية أو حتى مجرد المطالبة بها أمر يخدم مصالح القوى الدولية وأهدافها، فهذا الادعاء يتناقض كليا مع سياق الأحداث ومساراتها التي أثبتت أن آخر ما تريده هذه القوى هو التحقيق الفعلي لأي شكل من المشاركة السياسية لما في ذلك من تهديد مباشر لمصالحها ووجودها في آن ولحد، وفي كل زمان ومكان. أما تعدد عناصر التناظر بين المشاركة السياسية والديمقراطية وتوعد دواعي تفعيلها وتوسيع نطاقها، فهي أدلة مضافة على أن المجتمعات المتخلفة في تطبيقها للمشاركة السياسية ليست ملزمة بالأخذ بأشكالها المعتمدة في النموذج الديمقراطي الليبرالي الغربي. فلهذا النموذج سياقات ولانته وتطوره الخاصة التي لا تبدو متاحة في

٤٢ المرجع السابق، ص ٥٠٣.

٤٣ توماس ل. فريمان. السيارة ليكساس وشجرة الزيتون. مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٣.

٤٤ المرجع السابق، ص ٢٥٦.

٤٥ المرجع السابق، ص ٢٦٠.

ظروف المجتمعات المختلفة، لأن (أشكال الديمقراطية السياسية التي ظهرت في الغرب، لم تظهر لأن قلة من العابرة قد أرادوا لها أن توجد، أو لأن الإنسان قد أظهر غريزة لا تخمد إلى الحرية، بل لأنها ظهرت لأن الضغط التاريخي في اتجاه التوسع الاجتماعي ونحو نظم أسرع قد تطلب تغذية مرتدة لاجتماعية حساسة.. والديمقراطية السياسية بإشراكها أعدادا أكبر فأكبر في صنع القرارات الاجتماعية تيسر هذه التغذية المرتدة)<sup>٤٨</sup>. بذلك تكون المشاركة السياسية في شتى صورها وآلياتها الضامنة لحق المجتمع المدني ودوره في صنع حياته واتخاذ قراراتها غاية ووسيلة وضرورة في أن واحد. فهي الشرط اللازم والوحيد للإيفاء بمتطلبات تنظيم العلاقة بين السلطة السياسية والمجتمع المدني ومقتضيات شرعية هذه العلاقة وتوازنها واستقرارها من جهة، وهي من جهة ثانية الوسيلة الوحيدة لتحديد أهداف هذه العلاقة وحل مشكلاتها وفقا لإرادة المجتمع المدني وتعبيرا عن خصائصه واحتياجاته من خلال المشاركة الإرادية الحرة لأفراده ومؤسساته وألوارهم الإيجابية الفاعلة في كل مفردات النشاط الحياتي العام وتفاصيله. ويفترض تحقيق هذه المشاركة وجود الإنسان الحر الواعي للفاعل الذي تحتاجه وتخلقه التنمية والمشاركة معا وفي أن واحد. فالتنمية تتعلق أولا وأخيرا بالإنسان لأنها تستهدفه وتستخدمه وتوجه نشاطاتها ونتائجها لتؤثر في حياته حاضرا ومستقبلا، وهذا ما يستدعي بل ويستوجب مشاركة الإنسان في اتخاذ قرار التنمية واختيار نموذجها وتوفير متطلباتها وتعيين وسائلها وأساليبها وأهدافها. لتكون المشاركة السياسية في النهاية شرط تحقيق التنمية وركنها التأسيسي والتجسيد العملي للعلاقة العضوية الثابتة بين المشروعين التنمويين الاجتماعيين، الاقتصادي والسياسي، إذ لا يمكن أن يتحقق أي منهما في غياب الآخر أو من دونه.

<sup>٤٨</sup> الفين توفلر. صدمة المستقبل. مرجع سبق ذكره. ص ٥٠٢-٥٠٣.

### Political Participation: A Developmental Perspective

The collapse of the Soviet Union and the disintegration of the Socialist camp have put a decisive end to the dichotomy of the world to be divided into two camps: capitalist and socialist. Yet, it has not brought to an end another dichotomy by which the world had divided into two blocks-advanced and under developed.

No matter how those who are interested in underdevelopment matter may seem to be at odds with its definition and aspects, they still agree that it is a comprehensive and complex phenomenon, the negative effects of which may prevail in all systems and institutions of the society. This imposes on the societies that suffer from underdevelopment to try to confront it and deal with it in a comprehensive and complex way through a process of development.

This study is in line with the prevailing point of view held currently on this issue. It supports the thought that sees the first and most important reason for underdevelopment is political underdevelopment, and that the first and most significant reason for political underdevelopment is the absence or loss of political participation in the underdeveloped countries. Thus, the solution to the crisis of political participation in them would be the basis for solving this crisis.

In addition, the recent circumstances the world is witnessing and which have been arising under the influence of the policies of globalization and their applications, give additional importance to the political participation. Confrontation with these policies and applications imposes on these countries the development of their capabilities, which entails the achievement of political stability that is a prerequisite for achieving development, because the development also entails the existence of efficient regimes, which should be capable of implementing and administering it. However, efficiency is sorely available for dictatorial regimes in which the political participation is very absent. This should provide new additional reasons for emphasizing the importance of political participation and its necessity for achieving development in the underdeveloped countries.



## تأثير القدرة الإيرانية على الترتيبات الأمنية الإقليمية

الدكتور

عزيز جبر شال<sup>(١)</sup>

### المقدمة

مما لا ريب فيه بان الجمهورية الإسلامية الإيرانية تترك جيداً ماتريد من علاقاتها سواء القائم منها او المحتمل مع دول المنطقة ولن لديها صورة واضحة لموقعها في المنطقة ، وان أية ترتيبات أمنية في اية بقعة من العالم وعلى الاخص في منطقة الشرق الاوسط التي تحتفظ باكبر مخزون نفطي معروف في العالم وأمكانات اقتصادية هائلة أخرى فضلاً عن أنها أكبر بؤرة صراع في العصر الراهن، لايمكن أن تتم بمعزل عن أية ترتيبات أمنية عالمية ، وتتأثر سلباً وإيجاباً بصراع المصالح الذي يمثل السمة الرئيسية المميزة للنظام السياسي الدولي.

وأن اعلان إيران امتلاكها قدرات نووية تمكنها من اكتمال دورة الوقود النووي (العصب للرئيس في التكنولوجيا النووية) تمثل إحدى التحديات التي اختلفت بشأنها استجابة دول العالم والمنطقة. ففي الوقت الذي رحبت بهذا الانجاز دول تتوافق سياستها الخارجية مع إيران وهي للأسف قليلة، عارضتها دول أخرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الأمريكية تتبعها الدول الأوروبية، معتبرة أن مثل هذا التطور سيؤدي الى نهوض برنامج تملح نووي يخل بالتوازنات القائمة حالياً وفي المستقبل ، بينما ساد الغموض مواقف دول أخرى فلا هي تؤيد البرنامج النووي الإيراني خشية من أعضاب الولايات المتحدة الأمريكية وبما يؤثر على مكانة تلك الدول إقليمياً وهي المكانة التي تتمتع بها بفضل الدعم الأمريكي والغربي لها ولا تعارض البرنامج النووي الإيراني صراحة خوفاً من ان تصبح شرعية وجود حكوماتها موضع تساؤل وهذا حال دول مجلس التعاون الخليجي، ومن هنا فإن فرضية البحث تنطلق من أن قدرات إيران النووية ستؤدي بالضرورة الى البحث عن ترتيبات أمنية جديدة سواء بتعزيز القائم منها أو إيجاد نظام أو نظم أمنية تتيح التفاعل مع هذا الأمر وبما يتسجم مع آليات النظام السياسي المعاصر.

وتحاول هذه الورقة أن تجيب عن اسئلة مركزية تمثل الأجابة عنها تفسيراً لما يجري من مواقف وبالتالي تقدم مشاهد أو سيناريوهات محتملة لترتيبات أمنية تأخذ بعين الاعتبار حقائق التطور العلمي والتقني الجديد في المنطقة، ويمكن أن تتدرج الأسئلة بما يأتي:

١. هل أن إيران النووية عامل ضعف أو قوة لدول المنطقة؟ ولماذا؟
  ٢. هل أن امتلاك إيران قدرات نووية يمثل خطراً حقيقياً على دول المنطقة؟ وكيف؟
  ٣. ماهو للخطر الذي تخاف منه المنطقة؟ هل هو في امتلاك إيران سلاحاً نووياً أم في مجرد امتلاكها قدرات نووية حتى وأن كانت سلمية فقط؟
  ٤. هل أن مرد هذا الخوف هو استقرار لنوايا إيرانية أم ماتقوم به إيران فعلياً؟
  ٥. ماهي السيناريوهات المحتملة للترتيبات الإقليمية المحتملة ؟
- أن الأجابة عن هذه الأسئلة وغيرها ستتضمنها ورقة البحث وبأماكن القارئ متابعتها والوصول إليها استنتاجاً ومن خلال فصلين يبحث الأول في الترتيبات الأمنية القائمة والثاني يبحث في الترتيبات الأمنية المحتملة ومدى استجابة كل منها للمتطلبات الأمنية لدول المنطقة

## الفصل الأول

### الترتيبات الأمنية القائمة

قبل البحث في موضوع الترتيبات الأمنية القائمة لابد من تحديد امرين الأول يتعلق بمفهوم الأمن والثاني ينصرف الى تحديد العلاقة بين النظام السياسي الدولي وتأثيره في الترتيبات الأمنية للنظم الإقليمية.

وبقدر تعلق الأمر بالموضوع الأول أي الأمن، فإننا نقصد به مايطغى في الخطاب السياسي والأعلامي والعسكري وهو (الأمن القومي) حيث مرّ هذا المفهوم بتطورات عديدة الى أن استقر على مفهوم يكاد أن يكون أكثر قبولاً، إذ يعرفه مجلس الأمن القومي الأمريكي بـ"الحفاظ التام على المؤسسات والقيم الجوهرية للمجتمع"<sup>١</sup> وهذا يعني السعي الدؤوب لتحقيق الأمن النفسي والجسدي للمواطنين عبر استخدام عناصر ومصادر القوة المتنوعة للحيلولة دون تعرضهم لمخاطر داخلية أوخارجية تهدد وجودهم وحياتهم ونمط عيشهم، أن كلمة السعي هنا مختارة بعناية بدلا من

<sup>١</sup> Peter Peterson ; " The Primacy of the Domestic Agenda" In : Graham Allison and Gregory Treierton, Rethinking American to New Order, New York Norton and Security Beyond Cold War Norton, 1992P. 57

للتوصل لأن النظرة الواقعية في الظروف الدولية الراهنة تؤكد على أنه من الصعب الحديث عن أمن كامل ومطلق مهما كانت القوة التي تتمتع بها أية أمة أو دولة، وتوجد للأمن أبعاد مختلفة أهمها "أمن عسكري، أمن معنوي ثقافي، أمن اقتصادي، أمن غذائي، أمن بيئي، أمن صحي، أمن اجتماعي"<sup>٢</sup>. كما أن للأمن مستوياته وهي فردية، وطنية، إقليمية، وعالمية<sup>٣</sup>.

وبناء على ما تقدم فإن موضوع الترتيبات الأمنية ينبغي أن يشمل المعنى للحفاظ على المصالح والقيم الجهرية، وأبعاد الأمن ومستوياته وبالتالي فإن أي توصيف للوضع الأمني الحالي في المنطقة يشير إلى اختلافات كبيرة تتمثل في ربط الداخل بالخارج وأعطاء توكيل صريح أو ضمني للقوى المهيمنة في النظام الدولي المعاصر (الولايات المتحدة الأمريكية) لترتيب أوضاع المنطقة وفقاً لما تعتقده دولها بأنه يمثل مصالحها الجهرية في حين أن الأمريكان وهم ينظمون أوضاع المنطقة إنما يسعون إلى تحقيق الأمن القومي الأمريكي، حيث أن صناعة القرار الأمريكي تتحكم فيها ثلاثة عناصر مترابطة ومتشابكة وهي:

١. المثلث الحديدي للمصالح (المجمع الصناعي-العسكري، المجمع النفطي والمجمع المالي) ولكل من أضلاعه شبكته وتفرعاته، لذا فإن دول المنطقة في سعيها إلى الأمن من خلال الولايات المتحدة الأمريكية تقع في خطأ جسيم إذ أنها تربط عقيدتها العسكرية وتطورها التكنولوجي وثرواتها الطبيعية والمالية بالأمن القومي الأمريكي.
  ٢. المجمع للفكري الذي يصوغ هذه المصالح وينظر لها لدى قدام كل إدارة أمريكية، وهذا المجمع يتمثل بالمعاهد ومراكز البحوث.
  ٣. الإدارة المتابعة والمنفذة والمروجة لهذه المصالح والتي تتدخل بين الجهاز التنفيذي والأعلام والاستشارات.
- أن هذه العناصر مترابطة مع بعضها، ولا يمكن تصور أي فعل سياس أو سلوك حكومي بمعزل عن تأثيرات هذه العناصر، إذ أنها تنتج وتنتج خيارات السياسة الأمريكية وتقدم الصيغ الجدية للحوارات حول القضايا الجهرية وتقدم للرأي العام المعلومات والتحليلات عن الشؤون العالمية، وتساند المساعي الرسمية في مجالات تعنى بالتفاوض وحل النزاعات الإقليمية.

<sup>٢</sup> منذر سليمان: "دولة الأمن القومي وصناعة القرار الأمريكي . تفسيرات ومفاهيم" مجلة المستقبل العربي . العدد ٣٢٥ آذار ٢٠٠٦ ص ٣٢ .

<sup>٣</sup> المصدر نفسه.

<sup>٤</sup> قانون مع المصدر نفسه

<sup>٥</sup> المصدر نفسه. ص ٣٥ .

ومع أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعي أنها تدافع عن المبادئ التي يستند إليها النظام الدولي المعاصر والتي من أبرزها الحرية والمساواة، ونشر الديمقراطية، ومراعاة حقوق الإنسان، والالتزام بالشرعية الدولية، وتفعيل دور الأمم المتحدة بشكل عام ومجلس الأمن بشكل خاص، إلا أن واقع الحال يشير إلى أن الهدف الأمريكي يختلف تماما عن تلك المبادئ، حيث يلاحظ أن الولايات المتحدة تتدخل في شؤون الدول الأخرى باسم حقوق الإنسان تارة وباسم التعددية والديمقراطية تارة أخرى، وتتغافل عن أنظمة تنتهك تلك المبادئ وتمارس دكتاتورية بغضبة، ولعل الدول الفاعلة في النظام الدولي المعاصر تسلك السبل نفسها ففرنسا وبريطانيا ودول أوربية أخرى شكلت ما يعرف بقوات التدخل السريع لاستخدامها في الشمال الأفريقي متى تعرض أمنها القومي للخطر<sup>٦</sup>، كما أن روسيا تستخدم القوة المفرطة في الشيشان الذي يطالب بحريته واستقلاله، وهذا يعني أن الأهداف التي تسعى إليها القوى الفاعلة في النظام الدولي المعاصر تتناقض والمبادئ المعلن عنها. ويمكن تلخيص خصائص هذا النظام بالآتي:

١. نشر وتطبيق الليبرالية والرأسمالية مثل التعددية، نظام السوق، والمجتمع المدني.
٢. الالتزام بمبادئ وقواعد القانون الدولي وعلى الأخص العرفية منها والتي تعكس المصالح الغربية بشكل عام.
٣. اللجوء إلى سياسات التعاون والتحالف التي تخدم المصالح الأمريكية والغربية.
٤. المحافظة على التفوق الغربي، خاصة ما يتعلق بدعم مثل هذا التفوق في المجالات الاقتصادية والعسكرية والتكنولوجية.
٥. نزع السلاح والرقابة على التسلح وعلى الأخص عندما يتعلق الأمر بالدول النامية.
٦. دعم (إسرائيل) والمحافظة على أمنها والعمل على دمجها كنواة قائمة في النظام الإقليمي (الشرق الأوسط الكبير).<sup>٧</sup>

وإذا كانت الولايات المتحدة قد سوقت فكرة أنها القطب الوحيد والأمر النهائي في العالم بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة، إلا أن الواقع يشير إلى

<sup>٦</sup> مصطفى عبد الله أبو القاسم خشم، الشراكة الأوروبية - المتوسطية، ترتيبات ما بعد برشلونة، معهد الأمان العربي، بيروت ٢٠٠٢ ص ١٣٩-١٤٠.

<sup>٧</sup> "توازن القوى في إطار النظام العالمي الجديد" مجلة دراسات السلة الرابعة العدد الثالث عشر ٢٠٠٣ ص ١٢.

فضلها في احتلال هذا الموقع حيث وعلى الرغم من امتلاكها لأكبر قوة عسكرية، وبعد اقتصادها أكبر اقتصاد عالمي إلا أنها مازالت تنفق على بعض عناصر القوة الأخرى التي تمنحها قدرة التأثير في سلوك الآخرين نتيجة لتنامي المشاعر المعادية ضدها في أغلب دول العالم، فضلاً عن فشلها الميداني في أفغانستان والعراق والصومال وفشل وكيلها في المنطقة (إسرائيل) في احتلال جنوب لبنان على الرغم من استخدام أقصى ماله من أسلحة تقليدية متطورة وماتم تزويدها به من ترسانة الأسلحة الأمريكية.

أن تضخيم الدور الأمريكي في النظام العالمي المعاصر يراد منه إقناع دول العال بأن لامناص من التسليم للأمريكان وتنفيذ ما يريدون خلافاً لحقيقة القدرة الأمريكية المتكاملة، إذ أن القناعة بالقطبية الأحادية يعني بالضرورة تحقق ماياتي<sup>٩</sup>:

١. الهيمنة على القواعد والترتيبات التي تحكم العلاقات الدولية ، بحيث أنه بإمكان القطب المهيمن في هذه الحالة أن يجعل الأطراف تفعل مايريد دون الحاجة إلى استخدام للقوة المسلحة.

٢. السيطرة على الاقتصاد العالمي بحيث أن اقتصاد القطب الواحد يكون في هذه الحالة محورياً أو مركزياً بالنسبة للاقتصادات الأخرى.

٣. الهيمنة العسكرية على العالم حيث يتطلب الأمر من القطب الواحد أن تكون له قوت منتشرة في العالم وامكانات استخدام هذه القوات في أية لحظة وبدون مساعدة الآخرين.

٤. السيطرة الثقافية على العالم بحيث أن اطراف النظام العالمي الأخرى تقبل ثقافة القطب المهيمن نظراً لتوقعها وجاذبيتها وعلى أساس أنها الأفضل المتاحة للبشرية جمعاء.

يتضح مما سبق أن الولايات المتحدة الأمريكية لاتمتلك مقومات القطب الأوحد ولكن ساعدها في تسويق فكرتها الزخم الاعلامي الهائل وقناعة بعض الدول وعلى الأخص في منطقتنا بأن أمريكا قادرة على فعل كل شيء، وهذا سهل للولايات المتحدة أن تلعب دور الحامي للمصالح الجوهرية لدول المنطقة . أن تحقيق الأمن يتمثل بالسعي للحفاظ على المصالح الجوهرية ، وهذا يتطلب علاقات تعاون تم التعبير عنها بترتيبات أمنية لم تجد دفعا بسبب لاختلاف مدركات الدول لوسائل السعي للأمن ومن هنا فإن عناصر الشك قد أخذت في النمو في المنطقة بحيث أصبحت تسعى لأمنه من خلال الارتباط بالنظام الدولي بدلا من السعي الى ايجاد ترتيبات أمنية مستقلة، وبناء عليه أضحت قوة لية دولة بمثابة ناقوس خطر يرق في أذان الحكام ليهربوا صوب الخارج لتطمين مخاوفهم ،لذا فإن قوة ايزان النووية أنزركها حكام للمنطقة بأنها عامل

<sup>٩</sup> Barry Buzan: " New Patterns of Global Security in The Twenty – First Century" International Affairs 67, 3, July 1991.

ضعف لهم، ومن هنا فإن الولايات المتحدة وجدت فرصتها الملائمة في إعادة ترتيب أوضاع المنطقة وفقاً لمشروع الشرق الأوسط الكبير.

أن أية ترتيبات أمنية لابد أن تنطلق من بناء الثقة بين أطراف العلاقة وأن تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد الآتية:

١. خصوصية المنطقة وأفرزات الهيمنة الأمريكية عليه والذي يتطلب إيجاد رؤية مشتركة للصراعات الداخلية، النزاعات الحدودية، مسائل تتعلق بالتكامل الإقليمي لبعض دول المنطقة، مشاكل اللاجئين وغيرها من المشاكل التي تسهم في استمرار تطاير المنطقة وفي نفس الوقت الوجود الفعلي للقوات الأجنبية الذي يشكل عامل ضعف، وإذا لم توجد آليات تضمن حل هذه المشاكل فإن الأمور ستتفاقم نحو الأسوأ<sup>١٠</sup>.

٢. أن عسكرة المنطقة بشكل هائل وادخالها ميدان سباق تسلح يؤثر على أية ترتيبات أمنية إذ أن كل دولة ستعمل بمعزل عن دول الأقليم مما يعزز عدم الثقة بين أطراف العلاقة ويدفع بها إلى التعاون مع دول خارجية تجعل من دول المنطقة تابعة لاستراتيجيات لجنبة وعلى الأخص أمريكية، لذا فإن كثيراً من الدول قد استوردت أسلحة وتعاقدت على أخرى بمبالغ ضخمة جداً، دون مراعاة مبدأ القدرة على استيعابها أو استخدامها في الأزمات ولعل حرب الخليج الثانية ١٩٩١ أكدت هذه الحقيقة.

٣. أنه لا تقدم حقيقي يمكن أن يحصل في تلبية الاحتياجات الأمنية مالم يؤخذ بعين الاعتبار الحاجات الاقتصادية للمنطقة في تطوير آليات تؤدي إلى تكامل في السياسات الاقتصادية وفي الطاقة بما يفتح الأبواب نحو تنمية المنطقة<sup>١١</sup>.

أن الظروف الدولية الجديدة وحركة توحيد السوق العالمية مهدت الطريق لزوال عصر الدولة القومية وظهور الدولة الإقليمية بحيث تشكل كل دولة إقليمية قوة اقتصادية وسياسية واجتماعية جديدة تستطيع التفاعل مع حركة التطور العالمية وبالتالي لا توجد أسس علمية أو تاريخية أو فكرية للاندماجات وإنما تقوم حالياً على أساس الجغرافية والإقليم الجغرافي<sup>١٢</sup>، بيد أن مثل هذا الرأي لا يتوافق مع مصالح القوى

<sup>10</sup> Sohrab Shahabi and Farideh Farhi : " Security Considerations and Iranian Foreign Policy " The Iranian Journal of International Affairs, Vol VII No1, spring 1995, PP. 100-101.

<sup>11</sup> Ibid .P. 101 for more details See. PP. 97-100.

<sup>12</sup> د. علي كنعان " الإقليمية الجديدة والمفتوحة . الأوسطية والمتموسطية " بحث في كتاب الدولة الوطنية وتحديات العولمة في الوطن العربي ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ٢٠٠٤ ص ٧٢

الاجتماعية فلكل مجموعة مصالح قد تتعارض مع تكتل أو تتوافق معه وأن هذه القوى تندرج في أربعة مجموعات<sup>١٣</sup>.

١. مجموعة رأس المال العيني ويقصد به الصناعيون والحرفيون والصناعات الصغيرة ففي الوقت الذي تؤيد التكتلات الاقليمية لأنها توسع السوق أمام المنتجات الوطنية إلا أنها لا تؤيد العملة نظراً لتعرضها إلى منافسة شديدة من قبل الشركات الكبرى في دول أخرى<sup>١٤</sup>.

٢. مجموعة رأس المال المالي . لقد ارتفع حجم الأرباح في الأسواق المالية وفي القطاع المصرفي والتأميني ، فقد اكتملت ماتسمى استقلالية المجموعات المالية، وبدأت تشق طريقها إلى الدول النامية بحثاً عن الأرباح المرتفعة حيث بلغت للتشفقات عام ١٩٩٦ حوالي ٢٣٥ مليار دولار وفي عام ٢٠٠٠ أصبحت ٢٥٠ مليار دولار وهي أخذة في النمو<sup>١٥</sup>، ويسعى أصحاب هذه الرساميل لأزالة جميع القيود والعقبات التي تقف في وجه حركة الرساميل، وبذلك فإنهم يؤيدون التكتلات الاقليمية وتوحيد السوق العالمية بغض النظر عما سيطرأ على حالة الدول للقومية والاقتصاد القومي.

٣. الدول والمجموعات السياسية. تعتبر الدولة السلطة السياسية العليا وهي تمثل مصالح محددة لبعض الفئات والشرائح السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتعتبر الأداة الفاعلة في إنجاز تكتل ما أو عدم الانضمام لهذا التكتل أو ذلك، لكن ضغط الجماعات الاقتصادية قد يسرع في أو يخفف من حدة هذه الانتماءات، كما أن المصالح الوطنية تتعارض فيما بينها عند الانضمام لكثلة ما، وقد تتجاوب هذه القوى وسوف تسيطر في النهاية مصالح الأقوى، أي مصالح رأس المال المالي والشركات الكبرى في توحيد الأسواق، أما قوى المعارضة فعليها أن تؤخر أو تعيق إنجاز التكتلات والانتماءات من خلال

١٣ المصدر نفسه.

١٤ بلغت أصول ٥٠٠ شركة الأولى في العالم حوالي ٢٢،٣ تريليون دولار أمريكي ، وإرباحها حوالي ١١،٤ تريليون دولار وأغلب هذه الشركات لكل من المانيا، الولايات المتحدة الأمريكية ، اليابان، فرنسا وسويسرا وهي التي تسيطر على الصناعة العالمية للمزيد من التفاصيل أنظر: منير الحميش، أوراق الاقتصاد السياسي اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ١٩٩٩ ص ٢١٠-٢١٣

١٥ إدارة أبحاث صندوق النقد الدولي ، استمرار تنقل رؤوس الأموال وهجمات المضاربة على العملة ، مجلة التمويل والتنمية ، عدد ٤ لسنة ١٩٩٧ ص ٨

إجراءات وترتيبات تحد من هيمنة الوضع الدولي الناشئ عن (أفراد الولايات المتحدة الأمريكية) من خلال أعاقه استراتيجيتها التطفلية أو الاقتصادية في أغلب مناطق العالم وعلى الأخص منطقة الشرق الأوسط والمتمثلة في فرض ما يسمى مشروع الشرق الأوسط الكبير<sup>١٦</sup>.

أن الترتيبات المتاحة في المنطقة يمكن لوجازها بما يأتي:-

١. جامعة الدول العربية، وهي منظمة إقليمية بوضع ميثاقها والاتفاقيات اللاحقة له بأنها منظمة تهدف الى توحيد السياسات للدول العربية، بيد أنها فشلت في تأمين الاحتياجات الأمنية للدول المرتبطة بها لعدة أسباب من أهمها التباين الاقتصادي الشديد بين دولها، وسيادة نزعة الهيمنة بينها وأرتباط العناصر المؤثرة فيها ماليا وعسكريا واقتصاديا مع النظام الدولي المعاصر وعلى الأخص للولايات المتحدة الأمريكية، لذا فإن هذه المنظمة لم تستطع أن تكون كتلة إقليمية أو قومية مؤثرة في السياسة الدولية على الرغم من امتلاكها لمقومات القوة، لأنها دول منكشفة أمنيا واقتصادها مرهون لدى القوى المالية والاقتصادية الكبرى في العالم ، فضلا عن كونها أدوات منفذة للسياسة الأمريكية ومرددة لصددها، ولعل موقفها من احتلال العراق والعدوان الإسرائيلي على لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/١٢ يؤيد ماذهنا إليه<sup>١٧</sup>.

٢. مجلس التعاون الخليجي، أن هذه المنظمة هي منظمة شبه إقليمية تضم ست دول عربية تتميز بثرائها وذات أنظمة ملكية تحتكر السلطة والثروة، وتتنطبق مواقفها من النظام الدولي المعاصر، لذا فإنها بالإضافة الى تبعيتها الاقتصادية والمالية للغرب ارتبطت باتفاقيات أمنية وعسكرية أدت الى تسليم الملف الأمني في المنطقة بيد الغرب، خلافا للغاية التي أنشئ من أجلها المجلس بالأساس ليكون المظلة الأمنية لأعضائه<sup>١٨</sup>، فقد استقدمت الجيوش والاساطيل الغربية، فضلا عن إحدى دولها(قطر) تستضيف مركز القيادة والسيطرة لعمليات

<sup>16</sup> Copmparate with : Kaveh Afrasiabi " Iran and the Greater Middle East Initiative " The Iranian Journal of International Affairs , Vol XVII No.23 Summer fall 2004>PP255-287.

<sup>17</sup> للمزيد من التفصيلات بصدد بعض الجوانب المهمة في عمل جامعة الدول العربية . انظر: د. محمد لبيب شقير ، الحدة الاقتصادية العربية تجاريا وثقافتها مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، الطبعة الأولى أيار ١٩٨٦ بجزيين .

<sup>18</sup> محمد عباس ناجي " الدور الأمني في الخليج - رؤية مستقبلية " جريدة عمان الصائبة ١٨ تموز ٢٠٠٦



الجيش الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط (قاعدة السيلية) التي لا تسيطر عليها الحكومة القطرية، كما أن الدولة للقائدة في المجلس (المملكة العربية السعودية) ذات المصالح المتشابكة والمعقدة مع الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر عراب الهيمنة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، ولها منطلقات مذهبية متطرفة (الوهابية) تحاول نشرها بوسائل وأساليب عديدة في مقدمتها نقد المذاهب الإسلامية الأخرى وعدم التردد أحيانا في تكفيرها وتبرير التعاون مع أعداء الإسلام، ولعل موقفها من العدوان الإسرائيلي الأخير على لبنان وأنهام حزب الله اللبناني بأثارة العدوان والتسبب فيه<sup>١٩</sup>، وكذلك الموقف من الاحتلال الأمريكي للعراق، ودورها في أشاعة الأرهاب، وأشاعة الخوف من قيام هلال شيعي يضم إيران والعراق وسوري وشيعة لبنان دون الالتفات الى التاكيدات المستمرة من تلك الأطراف بأن لاوجود لمثل هذا الهلال خارج القمر الإسلامي<sup>٢٠</sup>. وعلى الرغم من أن العلاقات البينية شهدت ثورات عديدة أدت الى نمو مخاوف الدول الصغيرة من احتمال ابتلاعها من الشقيق الأكبر (السعودية وقطر)<sup>٢١</sup> أو بسبب مشاكل حدودية (البحرين وقطر) أو مشاكل ناجمة عن التنافس للعب دور المركز التجاري والاقتصادي الرئيس (الإمارات والكويت) مما أدى الى تفضيل التعامل مع حليف من خارج المنطقة أثبت قدرته في المحافظة على الأنظمة السياسية القائمة بعد غزو نظام صدام للكويت في ٢٠٠٢، والغاء دور العراق في التأثير على السلوك السياسي لدول المنطقة بعد أن أضحي من أضعف دول المنطقة ومهدد بالتقسيم والحرب الأهلية أثر الاحتلال الأمريكي، ولهذا أقنعت دول مجلس التعاون على تمكين علاقاتها بالأجنبي وثابت توجهاتها نحوه من خلال اقامة علاقات علنية وأخرى سرية مع (إسرائيل) كدئتها الاتفاقيات التجارية المباشرة وغير المباشرة والعلاقات الدبلوماسية وتنسيق للموقف من خلال الاتصالات المباشرة التي أعلن عنها رئيس الوزراء الإسرائيلي بعد العدوان على لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/١٢، كما أن انخراط دول المجلس في مبادرة الشرق الأوسط الكبير من خلال إعادة هيكلة اقتصاداتها وفقا لمتطلبات الوضع الدولي الجديد، وتلميع صورة أنظمتها

١٩ تصريحات الأمير سعود الفيصل وزير الخارجية السعودي الى وسائل الاعلام يوم ١٣ تموز ٢٠٠٦ وما بعدها .

٢٠ مقابلة مع السيد نبيه بري رئيس مجلس النواب اللبناني مع قناة العربية الفضائية يوم ٢٠٠٦/٧/٢٦

٢١ عادل سيد احمد: " انابيب الطاقة .. الجغرافية تقود السياسة " مجلة السياسة الدولية المصرية - العدد ١٦٤ أبريل ٢٠٠٦ ص ٩٢

الاستبدادية بأجراء إصلاحات ديمقراطية شكلية لم تمس جوهر النظم السياسية القائمة.

٣. دول مستقلة، وتمثلها في المرحلة الراهنة إيران وسوريا، ففي الوقت الذي تتمتع فيه إيران بأغلب مقومات القوة المادية (اقتصادية، بشرية، تقنية، عسكرية ودينية) إلا أنها تقتصر الى القدرة في التأثير على السلوك السياسي للآخرين، إلا أنها بدأت تمتلك هذه القدرة مؤخرا من خلال الأصرار على التمسك بخياراتها الوطنية واستقلالية قرارها وموقفها من قضايا المنطقة والعالم، وفي المقدمة منها موقفها الداعم للقضية الفلسطينية واستقرار العراق ودعم المقاومة الإسلامية والوطنية في لبنان وفلسطين ودعمها ماديا ومعنويا، إلا أن المشكلة التي تواجهها إيران تتمثل في تمسك الدول العربية بالمفهوم العرقي القومي في العلاقات الإقليمية، والعداء غير المبرر للمذهب الشيعي من الأطراف السنية وعلى الأخص مصر والسعودية، وأرتباط دول المنطقة بالاستراتيجية الأمريكية وسياستها في المنطقة والعالم، وقناعة أطراف عديدة في النظام الإقليمي العربي بأن إيران هي الخطر الأول عليها وليست أمريكا وإسرائيل<sup>٢٢</sup>. أما سوريا فأنها تحاول أن تستفيد من إمكانات إيران الاقتصادية والسياسية والاجتماعية لصالح نهجها الاستقلالي بيد أنها لا تذهب في هذا الشوط بعيدا خشية أن تهاجمها إسرائيل وأمريكا التي أصبحت جارة لها بعد احتلال العراق، مما وضعها بين فكي كمشاة إسرائيلية أمريكية، حيث أخذت أمريكا بالمجاهرة بعدائها لسوريا بحجة أنها ترعى الإرهاب وتصدره للعراق فضلا عن كونها تمثل الضلع الثاني في محور الشر حسب الرؤية الأمريكية، كما أن ضعف القدرات الاقتصادية والعسكرية يضيف بعدا آخر الى تردد السوريين في المضي اثواطا اضافية في تعاونها الأمني مع إيران.

أن هاتين الدولتين تمثلان نواة حقيقية لما ينبغي أن تكون عليه العلاقات المتكافئة والتكاملية بما يؤمن المصالح الجوهرية لأطرافها، والتي من الممكن أن تؤدي الى ترتيبات أمنية تعاونية إلا أن العامل الخارجي لايسمح بمثل هذا التعاون وربما يعتبره خطرا على الاستراتيجية المعتمدة في المنطقة والمتمثلة بمشروع الشرق الأوسط الكبير الذي يضم إسرائيل وتركيا والدول العربية بهدف إعادة ترتيب المنطقة اقتصاديا وسياسيا وجعل إسرائيل الجسم الغريب في المنطقة البلد القائد لمجموعة الدول تلك .

<sup>22</sup> قارن مع د. خليل حسين: " العلاقات الإيرانية الأمريكية ماضيا ومستقبلا " - ميل ايمت أون لاين ٧/تموز/٢٠٠٦

## الفصل الثالث

## الترتيبات الأمنية المحتملة على ضوء الملف النووي الإيراني

مما لا ريب فيه أن التنبؤ بالملوك السياسي للدول أمر في غاية الصعوبة إلا أنه ليس مستحيلاً إذ أن استقراء تاريخ العلاقات الدولية ورصد التحولات التي تواجهها المنطقة قد تؤدي إلى استنتاجات نظريتها بشكل خيارات متاحة أمام صناع القرار.

لقد أثار البرنامج النووي السلمي الإيراني ضجة مفتعلة لدى الدوائر الغربية وهذا أمر يرتبط بالاستراتيجية الأمريكية في المنطقة، فمنذ قيام الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩ أثرت أمامه عدة مشكلات تهدف إلى تعطيل مسيرة الثورة، ومنعها من تحقيق أهدافها المعلنة والمتمثلة ببناء إيران ديمقراطية وفقاً للشرعية الإسلامية السمحاء، وبناء دولة قوية اقتصادياً وعسكرياً لغرض الدفاع عن مصالحها الأساسية. أن جدية وصنق قيادة الثورة الإسلامية تجسدت من خلال بناء الدولة على كافة الصعد على الرغم من حرب السنوات الثمان مع العراق، والتي دعمت الولايات المتحدة ودول الخليج العراق فيها بالمال والمعلومات الاستخباراتية وتكنولوجيا السلاح، فضلاً عن تأييد النظام العربي كله باستثناء سوريا وليبيا للثنتين لتختنق موقفاً مسانداً لإيران.

وكجزء من برنامج النهوض والتقدم ولجت إيران ميدان الأبحاث والتجارب العلمية الخاصة بالاستخدام السلمي للطاقة النووية، وصحيح أن إيران برنامجاً نووياً قبل أندلاع الثورة الإسلامية وكان مدعوماً من قبل الأمريكان والغرب في عهد النظام الشاهنشاهي، بيد أن هذا البرنامج جرى تسريعه وتوسيع أفاقه منذ الثمانينات من خلال الاعتماد على الخبرة الأجنبية في توريد ونصب المعدات اللازمة، لكن استمرار العمل في تهيئة القاعدة العلمية والتقنية قد جرى تطويره بالاعتماد على امکانات الذات وهذا أمر طبيعي في ظل النظام الدولي المعاصر القائم على الاحتفاظ بالتفوق الاقتصادي واستغلال التقنيات الحديثة لتعويض الأنفاق على التطوير والبحوث والذي بلغ في عام ٢٠٠٤ أكثر من ٢٩٠ مليار دولار بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية لوحدها<sup>٢٣</sup>، بالإضافة إلى ضغوط المجمع الصناعي العسكري الذي لا يتورع عن تحطيم المنافسين، لذا فإنها تسعى جاهدة لمنع ظهور أي منافس لها وعلى الأخص الدول النامية لأنها تريد أسواقاً لمنتجاتها، وأن ميدان الطاقة النووية واستخداماتها المتعددة في قطاعات الكهرباء والطب والهندسة والردع الاستراتيجي (التسلح) من المحرمات التي لا ينبغي تجاوزها وإنما بالامكان الاستفادة من تطبيقاتها ومنتجاتها النهائية وفقاً للاستراتيجية الأمريكية والأوروبية.

<sup>٢٣</sup> آدم سيجال : " هل بدأت أمريكا تفقد تفوقها التكنولوجي ؟ " ترجمة محمد علي ثابت - مجلة الثقافة العالمية - العدد ١٣٠ مايو - يونيو ٢٠٠٥ - ص ٥٠-٦١.

أن تنامي البرنامج النووي الإيراني قد أخذ خطاً بيانياً متصاعداً، فبعد أن استكملت إيران بناء القاعدة المادية والبشرية اللازمة للتخلص من الضغوط الأمريكية والأوروبية في ميدان الطاقة النووية أعلنت قدرتها الذاتية على تخصيب اليورانيوم وأكملها حلقة مهمة من حلقات تشغيل دورة الوقود النووية، وفي الوقت الذي أثارها الإعلان مخاوف الولايات المتحدة غير المبررة وتبعته الدول الأوروبية، فإن هذه الأطراف سعت إلى تسوية الموضوع عبر تحريك دبلوماسي لم يخل من تهديدات مهينة لإيران، كذلك فإن أطرافاً إقليمية مثل إسرائيل والدول الخليجية أعلنت مواقف تابعة للموقف الأمريكي، وأن تميزت بالنسبة لإسرائيل بالتشديد على عدم استبعاد استخدام القوة العسكرية لمنع إيران من الاستمرار في برنامجها النووي لأنها (إسرائيل) تريد الاحتفاظ بتوقعها الاقتصادي والعلمي والعسكري والتقني في المنطقة بعد أن قطعت أشواطاً بعيدة في برنامجها النووي الذي تمكنت من خلاله من امتلاك أكثر من ٢٠٠ رأس نووي ووسائل قادرة على إيصالها بالطائرات الحديثة والصواريخ متوسطة وبعيدة المدى.

أن المعارضة التي جوبه بها البرنامج النووي الإيراني لم تفت في عضد القيادة الإيرانية التي أكدت دائماً على أن برنامجها مخصص للأغراض السلمية وليست لديها النية في التحول إلى الاستخدام العسكري ولأنها مستعدة للتفاوض والتعاون بشأنه مع جميع الأطراف الدولية باستقلالية ودون شروط أو إملاءات مسبقة. أن هذا الموقف يستند إلى الاعتبارات الآتية<sup>٢٤</sup>:-

١. الخبرة التاريخية في التعامل مع الأزمات وأدائها وفقاً لمصالحها الجوهرية.
٢. مساندة الرأي العام الإيراني لحكومته واستعداده للتصدي لأي عدوان ينجم عن ذلك والذي يمثل عامل الردع الأساسي.
٣. قدرة إيران على الدخول في سباق تسلح إذا ما اجبرت على مثل هذا الخيار لاستطيع الدول الأخرى في المنطقة تدبير موارده البشرية والمادية بما في ذلك إسرائيل والسعودية.
٤. قدرة إيران المؤكدة على توجيه ضربات قوية للأمريكان والإسرائيليين أن أقمتا على مهاجمة إيران، وأدراكهما بأن ضرب منشآت إيران النووية ليست نزهة سهلة.
٥. بعثرة المحطات والمنشآت النووية في أماكن كثيرة أغلبها تحت الأرض مما يصعب ضربها إلا بتعليمات معقدة وأمدادات لوجستية باهظة التكاليف.

٢٤ قارن مع أحمد السيد تركي : " أبعاد أحالة الملف النووي الإيراني إلى مجلس الأمن " مجلة المباحث الدولية المصرية للعدد ١٦٤ - أبريل ٢٠٠٦ - ص ١٥٥-١٥٦.

وبناء على ما تقدم فإن الترتيبات الأمنية المحتملة يمكن أن تلخص بما يأتي من خلال الخيارات الاستراتيجية التي يمكن اعتمادها:

١. خيار التصعيد: في حالة فشل المساعي الدبلوماسية، فإن أمام إيران فرصة لأن تصعد وتيرة برنامجها النووي وتمضي فيه قدماً دون الالتفات إلى التهديدات الأمريكية الإسرائيلية سواء من خلال مجلس الأمن أو بشكل منفرد كما فعلت مع العراق. إن ما يتيح لإيران انتهاز مثل هذا السلوك يستند إلى ما يأتي<sup>٢٥</sup>:
  - أ. إن لدى إيران جيشاً عقائدياً يصل تعداده إلى نصف مليون جندي فضلاً عن إمكانية حشد عشرة ملايين إضافية من الحرس الثوري والمتطوعين.
  - ب. التسليح المتطور للجيش الإيراني للمدعم بسلسلة صورايخ شهاب المتوسطة والبعيدة المدى والقادرة على الوصول إلى أهداف في داخل الولايات المتحدة، والغواصات القادرة على العمل في مياه الخليج بالإضافة إلى إمكانياتها الصناعية في جميع ميادين التسليح وعلى الأخص القوات البحرية.
  - ج. سيطرة إيران على مضيق هرمز الذي يمر فيه ٤٠% من النفط العالمي.
  - د. علاقاتها الاقتصادية مع روسيا والصين والهند.
  - هـ. لإيران اصدقاء في العديد من الدول مستعدين للدفاع عنها مثل لبنان الذي أثبت فيها حزب الله قدرته العالية على توجيه ضربات قوية لإسرائيل ميدانياً واستراتيجياً، وبحر الجيش الإسرائيلي على الرغم من التفوق التقني الواضح والدعم العسكري والسياسي من قبل الغرب بقيادة أمريكا، إلا أنه لم يتمكن من الثبات في مثلث صغير على الحدود في منطقة مروان الراس بنت جبيل عيترون<sup>٢٦</sup>، كذلك فإن اصدقاء إيران الآخرين في العراق وأفغانستان وباكستان وأذربيجان سوف لن يبقوا مكتوفي الأيدي إذا ما تعرضت إيران لأي عدوان أمريكي-إسرائيلي-غربي محتمل.
- و. الموقف الدولي الراهن والناجم عن غرق الولايات المتحدة في المستنقع العراقي وتراجع الولايات المتحدة وبريطانيا عن موقفهما المتشدد من إيران والمتمثل في عدم القبول بأقل من إزالة النظام السياسي الإيراني<sup>٢٧</sup>.

<sup>25</sup> المصدر نفسه - ص ١٥٧ وبتفصيلات أكثر

<sup>26</sup> انسحب الإسرائيليون من هذه المنطقة التي لا يتعدى قطرها خمسة كيلو مترات بعد أن تكبدوا خسائر فادحة فيها بالأرواح والمعدات ولم يتمكنوا من البقاء فيها لثلاثة أيام فقط من ٧/٢٤-٧٢٠٠٦/٢٧.

<sup>27</sup> المؤتمر الصحفي المشترك للرئيس الأمريكي بوش ورئيس الوزراء البريطاني توني بليز مساء يوم ٢٠٠٦/٧/٢٩.

٢. خيار الدبلوماسية والتهنئة أكدت ايران على ان هدفها هو تحقيق مصالحها الجوهرية من خلال الاستغلال السلمي للطاقة النووية، لذا فاتها لم ترفض أية مبادرة أو حلاً غير مشروط، وحتى تلك التي تضمنت شروطاً مجحفة مثل المبادرة الأوروبية، إذ انها عبرت عن تعاملها المرن مع جميع المقترحات البناءة لحل المشاكل التي افتعلتها الادارة الأمريكية، بيد أن مثل هذا الخيار يرتبط بأرادة أطراف أخرى لاندخل لأيران في قراراتها، ولكن بإمكانها التأثير في مواقفها حيث من الممكن استغلال العلاقات القوية مع كل من روسيا والصين والهند والتي لايمكن الركون اليها تماماً في مثل هذه الأمور" فمن المحتمل ان تقدم روسيا والصين تنازلات للجانب الأمريكي إذا مارأنا ان مصالحهما قد تتعرض للأضرار من جانب الولايات المتحدة الأمريكية، كما أن الأخيرة قد نجحت في ابرام اتفاق نووي مع الهند خلال زيارة بوش لها مؤخراً<sup>٢٨</sup>، كما يمكن الاستفادة من مواقف الدول الأوروبية التي تعاني من مضاعفات الأزمات التي خلفها احتلال امريكا للعراق على مجمل الاستقرار والأمن العالمي والإقليمي، وبهذا الصدد يمكن تفعيل دور أوروبا مرة أخرى بإبداء نوع من المرونة تجاه للمقترحات الأوروبية، فضلاً عن التلويح بالاتفاقيات الاقتصادية بوفرة الاقتصاد الإيراني على التفاعل مع السوق العالمية ايجابياً، وأن تفعيل مشاريع تصدير النفط والغاز الإيرانيين بواسطة الأنابيب الى أوروبا يمثل أحد عوامل الجذب للموقف الأوروبي من أزمة البرنامج النووي الإيراني وبما يحد من الهمينة الأمريكية على سوق الطاقة العالمي، وتعزيز فرص بناء الثقة عبر الدور الروسي في الأزمة.

أن خيار التهنئة والدبلوماسية بالأماكن تدعيمه من خلال دول مجلس التعاون الخليجي والدول العربية والإسلامية الأخرى، لكن مواقف هذه الدول وسلوكها السياسي مرتبط الى حد كبير بالاستراتيجية الأمريكية، وعلى الرغم من ذلك إلا ان الاستمرار بفضح نوايا وأهداف المشروع الأمريكي الذي تسوق له وزيرة الخارجية الأمريكية غونديزا رايس والذي عبرت عنه بصراحة في مؤتمر روما حول لبنان يوم ٢٠٠٦/٧/٢٥ يساعد الى حد ما في مساندة الجهود الدبلوماسية لحل الأزمة ويقلل من فرص الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل في الاعتداء على ايران، ويجعل من تهديداتها ضرباً من الحرب النفسية التي خبرتها ايران جيداً، إذ ان اعطاء اسرائيل دور القيادة في مشروع الشرق الأوسط الكبير لا يحظى بتأييد شعوب المنطقة التي تؤمن بأن اسرائيل جسم غريب يرغب في التوسع عامودياً وأفقياً في المنطقة على الرغم من انخراط دول مهمة في هذا المشروع مثل مصر ودول شمال افريقيا ومجلس

التعاون الخليجي حفاظا على كراسي الحكم التي تملأها من دون استحقاق<sup>٢٩</sup>، كذلك من الممكن استخدام العامل العراقي كورقة ضغط على الأمريكان خصوصا وأن اصدقاء إيران هم الذين يتولون زمام الحكم بعد الانتخابات الأخيرة وهو الأمر الذي أثار مخاوف أمريكا التي لا تريد حكومات مستقلة حتى وإن جاءت بالطريقة الديمقراطية التي يروج لها الأمريكان ويتقاضون بأنهم جلبوها للعراق، إن مخاوف أمريكا من صعود الشيعة للحكم في العراق يتركز في ثلاثة أمور هي<sup>٣٠</sup>:

أ. أن الشيعة الذين صعدوا للحكم في العراق تمثلهم احزاب سياسية لها علاقات ممتازة مع إيران وعلى الأخص الحزبين الشيعيين الرئيسيين حزب الدعوة الإسلامية والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية فضلا عن الفتيار الصدري، وبالأمكان أن يكونوا وسطاء لحل الأزمة مع الولايات المتحدة الأمريكية التي تريد الخروج من المأزق الذي حشرت نفسها فيه بأحتلالها للعراق.

ب. أن الشيعة سيقعون في المدى البعيد تحت نفوذ وسيطرة الإيرانيين ويصبحون دائرين في فلكهم.

ج. أن حكومة شيعية لا تستطيع أن تجمع العراقيين معا وإنما ستسعى الى ثلاثة نظم حاكمة، أهمها اقليم الجنوب والفرات الأوسط الذي يضم أغلبية شيعية تسكن تسعة محافظات وتحتوي على أكثر من ثلثي نفط العراق ومكانه فضلا عن أهم مرافد الأئمة المقدسة لدى المسلمين.

إن هذه المخاوف تهدد استراتيجية أمريكا في المنطقة لذا فإنها تبحث عن توازن بين القوتين العراقية والإيرانية لاتوافق بينهما لأنها تخشى من بروز قوة إيرانية بلا رادع في الأمد الطويل، ومن هنا يندو الحل الدبلوماسي هو الأفضل إذ إن أي عمل عسكري ضد إيران سيورطها في مأزق خطيرة قد تبعدها تماما من الشرق الأوسط بسبب الانحياز العراقي المأمول لصالح إيران، لكن العمل الدبلوماسي المستند الى احتمالات قيام تحالف إيراني-عراقي سيؤدي الى تنمية ادراك أمريكي بأن لاطريق امامهم سوى الحل الدبلوماسي وليس في أي خيار آخر.

٣. خيار التجميد والقبول بمشروع الشرق الأوسط الكبير، ويتمثل في أن تقدم إيران طواعية على التخلي عن برنامجها النووي كما فعلت ليبيا، وهذا الخيار يعني

<sup>29</sup> للمزيد من التفاصيل بصدد مشروع الشرق الأوسط الكبير انظر : د. علي كنعان - مصدر سبق ذكره ص ٦٩-٩٨ ومصطفى العبد الله - العمل العربي المشترك والمشاريع الشرق أوسطية. بيروت ١٩٩٧ ، محمد الأطرش : " المشروعان الأوسطي والمتوسطي والوطن العربي " مجلة المستقبل العربي ، العدد ٢١٠ لعام ١٩٩٦.

<sup>30</sup> جورج فريدمان : " مستقبل العراق ، البحث عن توازن تجاه إيران " مجلة المستقبل العربي العدد ٣١٤ أبريل ٢٠٠٥.

الأنتحار بالنسبة للقيادة الأيرانية إذ أنه سيصطدم بالرأي العام الأيراني الذي أعطى تأييده المطلق لقيادته وكان من بين أهم الأسباب لانتخاب الرئيس أحمدني نجاد، وسيؤدي إلى خيبة أمل كبيرة لدى أصدقاء إيران الذين يستهدفهم مشروع الشرق الأوسط الكبير في المقام الأول إذ أنه يعني الأذعان للشروط الأمريكية والغربية الماسة بكرامة المسلمين، كما أن القبول بالمشروع يعني التسليم بقيادة إسرائيل للمنطقة وتسخير الثروات والأماكن الاقتصادية والمالية الهائلة لخدمة الاستراتيجية الأمريكية<sup>31</sup>.

٤. خيار للتعاون المرن، ويتمثل في اختيار بعض آليات التعاون وعقد الاتفاقيات بشأنه، وعلى سبيل المثال لا الحصر عقد اتفاقيات للتعاون الاقتصادي مع دول المنطقة وعلى الأخص الدول المؤثرة فيه والتي بأمن الحاجة إلى الاستثمارات واليد العاملة مثل مصر ودول مجلس التعاون الخليجي ودول شمال افريقيا، لكن إيجاد ترتيبات تعاون أمني مع دول الخليج أمر تكتفاه العديد من الصعوبات إذ أن هذه الدول تعتمد على الوجود العسكري الأمريكي كمظلة لحماية أمنها، وهذا مرتبط بالأسراتيجية الأمريكية القائمة على الاستجابة لتهديدات لاعلاقة لها بدول المجلس والتي تنلخص بثأمين وصول دائم وانتشار عرضي ضمن قدرة دائمة على الدخول والوصول إلى مكان الأزمة، كما وأن دول المجلس ذهبت أكثر من ذلك بعد مؤتمر النوحة "تحولات الثنائى والأمن فى الخليج" فى إبريل ٢٠٠٤ ومؤتمر اسطنبول يومى ٢٨ و٢٩ حزيران ٢٠٠٤ والذين ربطا أمن دول المجلس مع مشروع الشرق الأوسط الكبير والذي يضم بالإضافة إليها بعض الدول العربية وتركيا وإسرائيل<sup>32</sup> وهذا يعني أن هذه الدول لا ترى إيران شريكا فى الترتيبات الأمنية فراحت تفتش عن أمنها فى الترتيبات الخارجية التي تثير مخاوف إيران، وهذا ليس من مصلحة تلك الدول وإنما التزاما بالأسراتيجية الأمريكية الرامية إلى أحتواء إيران وأجهاض تجربتها الإسلامية المستقلة، ومن هنا يفترض أن تسعى للقيادة الأيرانية إلى تطمين مخاوف تلك الدول وبناء جسور الثقة المتبادلة، ولكن يبدو أن هذا الأمر بعيد المنال بيد أنه ليس مستحيلا لأعتبارات عديدة لأجل ذكرها يقع فى مقدمتها الاختلاف المذهبي وأحتواء أي تطور فى قدرة ألتباع مدرسة أهل بيت النبوة عليهم السلام فى بناء قدرة رادعة تستجيب للتهديدات الحقيقية التي تواجهها المنطقة وأهمها الخطر

31 حول مسأوى مشروع الشرق الأوسط الكبير أنظر د. علي كنعان- مصدر سبق ذكره ص ٨٦-٨٧.

32 للمزيد بصدد سيناريوهات الترتيبات الأمنية لدول مجلس التعاون أنظر : محمد عباس ناجي مصدر سبق ذكره وبصدد المؤتمرين المذكورين أنظر : اسلام أون لاين نت ٢٠٠٥/٢/٤ - أشرف كشك حوار الثنائى والخليج - مصالح متبادلة .. وجريدة الشرق القطرية فى ٢٠٠٥/٩/١ - مؤتمر الثنائى وأمن الخليج.



الأسرائيلي الأمريكي ومشروع الشرق الأوسط الكبير. كما أن هناك خيارات أخرى ضمن هذا الخيار الأساسي يتمثل في إيجاد آليات تعاون واسعة مع دول وسط آسيا الإسلامية، والهند، والباكستان ودول جنوب شرق آسيا وهذا يزود إيران بعوامل ضغط مؤثرة في السياسة الأمريكية، ويساعد تلك الدول على التخفيف من الضغوط الأمريكية، وبالإمكان أن يتحقق ذلك من خلال:

- أ. إيجاد مراكز بحث علمية ومتخصصة لتنمية الحوار مع الدول العربية والإسلامية يجري التركيز فيها على المشتركات الاستراتيجية وذات النفع المتبادل مما يحقق ثوابت إسلامية في العلاقات الدولية.
- ب. تشجيع عقد الندوات المشتركة وبثها عبر وسائل الإعلام المختلفة تعتمد على إشاعة المحبة والأخوة الإسلامية ونبذ العنف والأرهاب.
- ج. إيجاد رؤية مشتركة لموضوع الإرهاب وعقد المؤتمرات الوطنية والإقليمية لمكافحة لتتقية صورة المقاومة الوطنية والإسلامية من الأساليب التي انتهجتها الجماعات المتطرفة بأسم الدين.
- د. الابتعاد في وسائل الإعلام عن طرح أمور الخلافات المذهبية الإسلامية والتأكيد على وحدة الإسلام والمسلمين ومنطلقاتهم الأساسية، وترك الأمور الفقهية الخلافية للمراكز الدينية وحلقات الدرس والجامعات ذات الاختصاص.

## الخاتمة

أنصب الجهد في هذه الورقة على محاولة الاجابة عن الأسئلة المركزية التي طرحت في مقدمتها، وكان من المفترض أن نعطي تصورات مستقبلية لها نوع من الثبات النسبي، إلا أن العدوان الاسرائيلي على لبنان وما كشفه من انحياز دول المنطقة الى جانب المعتدي وذلك لكونهم قد أنغمسوا في الترتيب الأمني الذي تريده الولايات المتحدة للمنطقة والمتمثل بمشروع الشرق الأوسط الكبير والذي يمثل العدوان الاسرائيلي إحدى أهم حلقاته، إلا أن هذا الأمر لم يمنعنا من عرض بعض مآنتصوره من ترتيبات أمنية فردية أو جماعية، وأن مايمكن أن نستنتجه هنا هو أن أمن المنطقة يمر بأحرج منعطفاته، إذ أن التهديد لم يعد ينصرف الى المصالح وإنما أصبح يهدد الوجود، ولكي تمر المنطقة عبر هذا المنعطف على دولها شعوبا وحكومات أن تعي الخطر بعيدا عن منطق الوصاية والتصرف نيابة عن الآخرين أو باتتبع سياسات أنانية تضر بدول المنطقة، أن مانرصده من سلوك أقليمي لاينبئ بأن الدول راغبة في إيجاد ترتيبات أمنية مستقلة عن هيمنة ونفوذ العامل الخارجي، وبهذا فإن الخيار المتاح هو أما أن تتخبط دول المنطقة في مشروع الشرق الأوسط الكبير وفي هذا تخل عن المبادئ العظيمة التي يؤمن بها المسلمون وفي مقدمتهم الجمهورية الإسلامية في إيران، أو أن تلجأ الى إيجاد ترتيبات أمنية بين إيران والعراق وسوريا من خلال شراكة اقتصادية ومشاريع تنمية كبيرة وسريعة وتكامل أممي واسع النطاق وبكتران ذات لمحصرة الأرهاب بكل صوره وأشكاله، والعمل على ضبط الحدود وتجفيف منابع الأرهاب والجريمة المنظمة ولشاعة السلام الاجتماعي عن طريق الحوار الهادئ والعقلاني بعيدا عن صيغة وأساليب الوصاية وفكرة للغالب والمهزوم، وإيجاد صيغة للتكامل يمكن من خلالها التغلب على أية قرارات أو إجراءات دولية للمقاطعة أو الحصار أو العدوان العسكري.

## الحصار البحري ضد فنزويلا ١٩٠٢-١٩٠٣

"دراسة وثائقية في العلاقات البريطانية-الأممية-الأمريكية"

الاستاذ المساعد الدكتور  
عبد الامر محسن جبار<sup>(\*\*)</sup>

الاستاذ الدكتور  
يقظان سعدون العامر<sup>(\*)</sup>

### المقدمة

شهد عقد التسعينات من القرن التاسع عشر سياسة التفاهم والعمل المشترك بين بريطانيا والمانيا. الا ان سوء التفاهم الذي حدث بينهما بسبب اتفاقية اليانغتشى في الصين التي وقعت في تشرين الاول ١٩٠٠<sup>١</sup> أثر في العلاقات بين الدولتين، وجعل المسؤولين البريطانيين يبتعدون عن برلين. وأشار في نفس الوقت وبوضوح الى نهاية هذه السياسة. لكن المسؤولين في كلا البلدين أعادوا هذه السياسة في نهاية عام ١٩٠٢، عندما تعاملوا مع فنزويلا. فكيف كانت النتيجة؟ هل تسامت سياسة الدولتين تجاه هذه القضية بالانسجام أو باختلاف الاهداف؟ هل ان نتائج الاعمال المشتركة السابقة بينهما أثرت في تعاملهما مع هذه القضية؟ ما هو موقف الولايات المتحدة الامريكية من التعاون البريطاني-الامماني في فنزويلا؟ وهل أثر هذا الموقف في انسحاب بريطانيا من تعاونها مع المانيا؟ يحاول هذا البحث الاجابة عن هذه الاسئلة.

سببت الحرب الاهلية التي اندلعت في فنزويلا خلال الاعوام ١٨٩٨-١٩٠٠ خسائر فاحشة في الاموال والممتلكات العائدة للمواطنين الالمان والبريطانيين والامريكيين والاطاليين. وجرى في شتاء عام ١٩٠١-١٩٠٢ مباحثات دبلوماسية بين الحكومتين الالمانية والبريطانية للحصول على تعويضات عن هذه الخسائر. وبعد ان نفذ صبر الحكومة الالمانية من سلوك الحكومة الفنزويلية الجاف، اذ كانت تتجاهل جميع الاساليب الدبلوماسية، اضطرت الحكومة الالمانية في خريف عام ١٩٠١ الى ارسال اسطول حربي الى الموانئ الفنزويلية. وعندما ايقنت ان الولايات المتحدة الامريكية لن تعارض عملية فرض حصار على الموانئ الفنزويلية وبيان الحكومة البريطانية التي كانت قد اقترحت عليها في تشرين الثاني ١٩٠٢ القيام بعمل مشترك

<sup>(\*)</sup> كلية التربية ساين رشت-جامعة بغداد.

<sup>(\*\*)</sup> معاون عميد كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية

<sup>١</sup> Langer, W., The Diplomacy of Imperialism (New york, reprinted 1960), pp. 699 - 705

لوقف فنزويلا من مضايقة سفنها ورفضها تعويض تجارها<sup>٢</sup>، اعتبرت الحكومة الألمانية بان الوقت قد حان للتنفيذ الفعلي لعملية حصار الموانئ الفنزويلية. درست وزارة الخارجية الألمانية إمكانية فرض حصار على الموانئ الفنزويلية في وقت السلم، وبعد ان درست عدة حالات قامت بها دول أوربية، خلصت الوزارة الى رأي بان للمباديء التي تستند عليها عملية فرض الحصار في زمن السلم هي نفسها في زمن الحرب باستثناء فرق جوهري يتمثل بان السفن التي تقرر من الحصار لا تصدر بل تحجز لحين رفع الحصار. وأكدت الوزارة بان الشروط التي تقرض في عملية الحصار في زمن السلم تنطبق ايضا على السفن العائدة للدول المحايدة. رفعت هذه المعلومات الى الكونت فون بيلوف Von Bulow المستشار الألماني (١٩٠٠-١٩٠٩) الذي اقتنع بضرورة الضغط على الحكومة الفنزويلية. ففي رسالته الى الامبراطور الألماني وليم الثاني (١٨٨٨-١٩١٨) في العشرين من كانون الثاني ١٩٠٢ ذكر بيلوف بان الاحداث التي وقعت في فنزويلا اعادت موضوع دراسة الجانبي القانوني والتطبيق الفعلي لفرض حصار على الموانئ الفنزويلية في زمن السلم. ووضح المستشار الألماني بان هناك اجراء اخر يمكن فرضه على الحكومة الفنزويلية يتمثل بفرض رسوم جمركية على الصادرات والواردات الفنزويلية وهي المصدر الوحيد للدخل، وسيخرج عن هذا الاجراء مجاعة بين صفوف الشعب الفنزويلي، وهذا يرقى الى اعلان الحرب ضد فنزويلا وهو امر لا يمكن اعتباره ضروريا. وهكذا فان من اهم اجراءات القصر المزمع استخدامها ضد فنزويلا غلق المضائق [الفنزويلية] المسموح به تحت القانون الدولي وذلك عن طريق الحصار السلمي. ومن اجل الحصول على تأييد الامبراطور الألماني فقد اوضح بيلوف بان حكومة الولايات المتحدة لم تتخذ اي موقف ضد فرض حصار على الموانئ الفنزويلية، وعلى الرغم ان القائم بالاعمال الألماني في واشنطن فون غوانت Von Quadt أخبرها بالاجراء المزمع اتخاذه وأخبرته ردا على ذلك بانها لا تمنع الان في فرض الحصار على الموانئ الفنزويلية. وأستطرد المستشار الألماني بان الوضع السياسي قد طرأ عليه تغيير يتمثل بان الحكومة البريطانية، التي تطالب هي الاخرى الحكومة الفنزويلية بالأبقاء بمطالبها، قد المحت بانها "ربما تدرس، تحت ظروف معينة، القيام بعمل مشترك مع [ألمانيا] ضد فنزويلا. فضلا عن ذلك أمرت الحكومة الإيطالية دي ريفا de Riva ممثلها في كراكاس بان يشارك في الاجراءات التي يقوم بها القائم بالاعمال الألماني في كراكاس Von Pilgrim Baltazzi الذي كان قد قدم مذكرة الى الحكومة الفنزويلية يطالبها بدفع التعويضات عن الخسائر الألمانية جراء الحرب الأهلية، الا انها

<sup>2</sup> Balfour, M., The Kaiser and his times, (london ,1964) pp.243 -244.

ردت عليه " بأن الموضوع سي طرح على الكونغرس للقادم". أعتبر للقائم بالأعمال الألماني هذا الرد غير مرضي ويجب اعتباره محاولة جديدة من الحكومة الفنزويلية للتخلص لأنه لا يعرف متى سيعقد الكونغرس بسبب الفوضى السائدة في البلاد". لذلك التمس بيلوف الامبراطور الألماني الموافقة على فكرة منح الحكومة الفنزويلية مهلة للإبقاء بمطالبتنا وعلى تخويله "الاتصال بالحكومة البريطانية لغرض القيام بعمل مشترك ضد فنزويلا". أبدى الامبراطور الألماني شكوكه من البريطانيين، حيث علق على رسالة بيلوف:-

"لو ان باستطاعتنا التأكد ان البريطانيين لن يستخدوا هذه الفرصة لجعل الأمريكيين يشكون بنا وبالتالي اضعاف نتيجة زيارة أخي (إلى واشنطن). وعلى أي حال يجب عدم القيام بعمل هذه الخطوة لحين انتهاء الزيارة. ويمكن تزويده بتعليمات ، ربما تحريرية، [للتباحث مع الرئيس] روزفلت عندما يحين الوقت".

وبالفعل كتب بيلوف مذكرة الى الامير هنري، شقيق الامبراطور وليم الثاني اوضح فيها بأن لا يناقش سموكم الملكي وبمبادرتكم الاحداث في أمريكا الجنوبية أو الوسطى. ويجب، من الطبيعي، ان لا يعترف بنوايا ألمانيا في تلك الاقاليم، وإذا أضح امركيون عن قلقهم من افكار المانية خاصة بالاحتلال أو تحقيق نفوذ في أمريكا الجنوبية أو الوسطى فيجب نفيها بانها تصورات منافية للعقل، مع الاشارة الى السياسة السلمية التي ينتهجها جلالتهم [الامبراطور الألماني] وإلى مهامنا العديدة التي نقوم بها في كافة أنحاء العالم. ولا ضرورة ان ترقى مثل هذه الافكار المسافرة الى طبية اعلان هام. فألمانيا ترغب بأن يحل السلام في النصف الغربي من الكرة الارضية وبأن تكون لها علاقات ودية مع الولايات المتحدة".

كان للهدف من زيارة الامير هنري، على حد تعبير المستشار الألماني بيلوف " بأنه غير المتوقع منه [الامير هنري] ان يجلب معه معاهدة سياسية أو اتفاقية تجارية أو أي شكل من أشكال الامتيازات سواء اقتصادية أو تجارية أو قلمية. فالغاية

<sup>3</sup> Bulow to the Emperor William, 20 January, 1902, German Diplomatic Documents 1871- 1914, selected and translated by E.T.S. Dug die, vol.3 The Growing Antagonism, 1898- 1910, (New York, reprinted, 1969) pp. 160-161 G.D.D., ويستمر له Gooch, G.P, Before the war, studies in Diplomacy, Vol.1, The Grouping of powers (London, 1938) p.235.

<sup>4</sup> G.D.D., Vol. III , pp. 161-162; Bulow, Prince Von , Memoris of Prince Bulow, Vol. 1, From Secretary of state to Imperial chancellor 1897-1903, translated from the German by F.A. Voigt (New York, reprinted, 1972) pp.(660 - 661).

من رحلته كانت على العموم إرضاء الأمريكيين وكسب تعاطفهم وإقناعهم بمشاعر القيصر [الالمانى] والامة الالمانية تجاه الشعب الامريكى القوي والعظيم كذلك الفائدة المرجوة من الروابط الجيدة بين الامتين الالمانية والامريكية. ولا تفصل الخلافات السياسية بين امريكا والمانيا، بل على العكس، تربطهما مصالح مهمة وعميقة لا تحصى، وتقاليد قديمة تمتد الى ايام فردريك الكبير وواشنطن العظيم ويربطهما ايضا رابطة الدم".<sup>٥</sup>

وأوجز بيلوف الامير هنري عن طبيعة الأمريكيين ان اي انتقاد للوضع الامريكى من غريب يغضب الأمريكيين ... [في حين] ان الاصريكيين سيصفون بسرور الى كل ما يقوله الامير عن المانيا والقيصر وعن جيشنا وعلومنا وفنوننا".<sup>٦</sup> وأختتم المستشار الالمانى مذكرته الى الامير هنري "ان زيارته هذه الى جمهورية عظيمة، إنطلق اليها كولومبس عبر المحيط. تكتسب اهمية اكبر بالنسبة للوطن [المانيا] مقارنة بالزيارات الملكية التي تمت في الاعوام الاخيرة".<sup>٧</sup>

وزود بيلوف الامير هنري بمذكرة تفصيلية عن موضوع الحرب الامريكى - الاسبانية في حالة اثارته في الولايات المتحدة "ولرد على الاشارات الغادرة والشكوك التي كانت قد اثارها الصحافة الانكليزية التي اتهمت المانيا باظهار العدوة تجاه امريكا خلال الاعوام الماضية".<sup>٨</sup>

وهكذا تأجل اتخاذ اي خطوة لحين انتهاء زيارة الامير هنري الى الولايات المتحدة ولتتقضي حدة حرارة فصل الصيف.<sup>٩</sup>

غادر الامير هنري برلين في الخامس عشر من شباط في زيارته الى الولايات المتحدة الامريكى حيث زار عدة مدن امريكى كبرى. ومع ان الغاية من هذه الزيارة كانت وبون شك ازالة الشعور المعادى لالمانيا الذي ساد الولايات المتحدة بسبب الاحتكاك الذي حدث بين الاسطولين الالمانى والامريكى في ميناء مانيتا في

<sup>٥</sup> Bulow, op.cit., Vol.1, pp.(660-661)

<sup>٦</sup> Ibid., p.661.

<sup>٧</sup> Ibid., p.662.

<sup>٨</sup> Ibid.

للتفاصيل عن موقف بريطانيا وصحافتها من النزاع الامريكى-الاسباني على كوبا والذي قاد الى الحرب بينهما عام ١٨٩٨ ينظر الى، العامر، يقظان سعدون، موقف اوروبا من النزاع الامريكى-الاسباني على كوبا ١٨٧٨، مجلة كلية الاداب العدد ٧٢، ٢٠٠٦، ص ٥٠٦ - ٥٤٩

<sup>٩</sup> Gooch, op.cit., Vol.1, p. 235.

الفلبين في تموز عام ١٨٩٨<sup>١٠</sup> خلال الحرب الأمريكية-الاسبانية<sup>١١</sup>، فقد انكر ان يكون لها هدف سياسي غير تأكيد من الامبراطور الالماني على حسن نيته تجاه الولايات المتحدة<sup>١٢</sup>.

وعلى اي حال استغلت الحكومة الالمانية فرصة تشكيل حكومة فنزويلية جديدة وطلبت من سفيرها في لندن الكونت فون مترنيخ Von Metternich مقابلة الماركيز لانسداون Marquess Lansdowne وزير الخارجية البريطانية. وفي الثالث والعشرين من تموز جرت المقابلة حيث أخبر مترنيخ لانسداون بأن حكومته ترى " بان الوقت قد حان واصبح من الضروري ان تمارس الدول المهتمة بفنزويلا ضغطا على الحكومة الفنزويلية". ووضح مترنيخ "بان حكومه جديدة على وشك التشكيل وان... الفرصة ربما تكون جيدة للتوضيح لها بان نوعاً من القوة ستمارس ضدها اذا استدعت الضرورة". واستفسر السفير الالماني عن "ماذا تعتقد [الحكومة البريطانية] في فرض حصار سلمي على الموانئ الفنزويلية خلال موسم التصدير؟" رد لانسداون " باننا مستعدون جدا للتشاور مع الحكومة الالمانية بشأن العمل المشترك، الا اني اود دراسة الاقتراح بتمعن قبل اعطاء رأي حول فرصها المواتية في الظروف الحالية"<sup>١٣</sup>.

بعد ان درس لانسداون الاقتراح الالماني التقى السفير الالماني وسلمه مذكرة مؤرخة في الثاني والعشرين من تشرين الاول حيث ذكر له [سرية تامة] انه اذا اضطرت الحكومة البريطانية على استخدام الاجراءات القسرية فلنأتمثل الى الاعتقاد بان من أكثر اشكال القسر الملائمة الاستيلاء على قوارب مسلحة تعود الى الحكومة الفنزويلية. وحذر لانسداون مترنيخ انه "من الاهمية القصوى عدم السماح بتسرب نوايانا خشية ان تقوم الحكومة الفنزويلية بتحريك قواربها المسلحة الى منطقة لا يمكن الوصول اليها كإعالي نهر اورينوكو Orinoco او نهر آخر". لثار رد لانسداون استغراب مترنيخ الذي رد بدوره بانه لا يعرف لماذا لا تلجأ الى فرض الحصار زيادة

<sup>10</sup> للتفاصيل عن حادثة ماتيلان ينظر الى:

British Documents on the Origins of the war 1898-1914, edited by G.P.Gooch and Harold Temperley, Vol.1 The End of Isolation (London, 1927), pp. 7-105 B.D. وسنمر له بـ

<sup>11</sup> للتفاصيل عن النزاع الأمريكي-الاسباني الذي قاد الى الحرب ينظر الى:

Trasks,D.F.,The War with Spain 1898 (New York,1981);

العالم، المصدر السابق، ص٦٠٩-٥٤٩

<sup>12</sup> G.D.D., Vo:III p 161.

<sup>13</sup> Lansdowne to Buchanan, Foreign Office, 23 July , 1902 B.D. Vol.II The Anglo-Japanese Alliance and the Franco-British Entente (London,1927),No. 171, pp.(153-154).

على الاستيلاء على القوارب المسلحة". لكن لاتسدون أوضح له بأنه ما يعرف بالحصار السلمي يبدو لنا عديم الفائدة للهدف الذي نبغي تحقيقه ، بينما قد يورطنا الحصار المسلح في مشاكل عويصة مع دول أخرى<sup>١٤</sup> . وهي اشارة الى الولايات المتحدة.

وتوضح المذكرة البريطانية اسباب تفضيل الحكومة البريطانية فكرة الاستيلاء على القوارب المسلحة الفنزويلية بدلا من فرض الحصار السلمي على الموانئ الفنزويلية. فنذكر المذكرة ان الحكومة الفنزويلية قد تدخلت خلال الاعوام ١٩٠٠-١٩٠٢ ثلاث مرات ضد المصالح البريطانية المتمثلة بالسفن التجارية البريطانية القادمة من مستعمرة ترينيداد حيث تطاردها قوارب حرس السواحل الفنزويلية بتهمة المتاجرة بالمهربات او بالسلح، وبان هذه التهمة اتخذت ذريعة لانتهاك المياه الاقليمية البريطانية ولمصادرة ممتلكات الرعايا البريطانيين ولتدمير متعمد لاحدى السفن في احدى المرات. وتستطرد المذكرة بأنه في حالتين أخرتين استخدمت نفس التهمة ذريعة للاستيلاء او مصادرة او تدمير سفن بريطانية في المياه الفنزويلية، وبان ذروة هذه الحالات قد وصلت في الثلاثين من حزيران عندما تعرضت السفينة البريطانية "كووين" Queen التي كانت متوجهة من غرناطة في نيكاراغو الى ترينيداد الى هجوم قام به قارب مسلح فنزويلي في أعالي البحار وأستولى عليها وصادرها، وقررت الحكومة البريطانية عدم السماح بتكرار مثل هذا "التدخل السافر" وامرت الوزير البريطاني في كراكاس في التاسع والعشرين من تموز تقديم احتجاج شديد للهجة، حذرت بموجبه رئيس جمهورية فنزويلا ووزير خارجيته بأنه مالم تحصل للحكومة البريطانية على تأكيدات واضحة بعدم تكرار مثل هذه الاحداث وعلى تعويضات كاملة الى الاطراف المتضررة، فإنها ستضطر الى اتخاذ الخطوات اللازمة للحصول على هذه التعويضات وعلى تعويضات اخرى تطالب بها شركات السكك الحديد البريطانية العاملة في فنزويلا وللحصول على تعويضات جراء الخسائر الناجمة عن سلوك القفصل الفنزويلي في ترينيداد. وتكشف المذكرة البريطانية رد الحكومة الفنزويلية التي تجاهلت احتجاجات الحكومة البريطانية منذ قيام الحكومة البريطانية باحتجاز السفينة Ban Righ في ميناء لندن في كانون الثاني ١٩٠٢ لكنها اطلقت سراحها بعد ان ثبت ان جنسيتها كولومبية وليست فنزويلية. وازاء هذا الموقف المتصلب للحكومة الفنزويلية رأت الحكومة البريطانية أنها مضطرة على دراسة الخطوات اللازمة لتحقيق مطالبها، بيد أنها اقترحت، قبل الاقدام على هذه الخطوة، ان تعبر عن اسفها للاملوب الذي استجابت به الحكومة الفنزويلية للاحتجاجات البريطانية

<sup>14</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 24 October, 1902, Confidential, Ibid., No.172, p. 154.



وانها ترفض تجاهل تلك الحكومة للشكاوي البريطانية، وحذرت انه اذا استمرت على هذا التجاهل والرفض للشكاوي والمطالبات البريطانية، فان الحكومة البريطانية ترى ان من واجبها دراسة الخطوات الضرورية لمواجهة هذا الرفض من اجل حماية المصالح البريطانية. ومع ذلك لم تقدم الحكومة البريطانية على دراسة او اتخاذ اية خطوات، بل اعلنت عن استعدادها دراسة اي مقترح تتقدم به الحكومة الفنزويلية، وبذلك تستأنف المفاوضات بين الحكومتين. ولما كانت الحكومة الالمانية قد اعلنت عن استعدادها الانضمام مع الحكومة البريطانية في ممارسة الضغط على الحكومة الفنزويلية، فقد طلبت الحكومة البريطانية من الحكومة الالمانية ان تنظم معها في هذه "الخطوة التمهيدية" وفي حالة موافقة الحكومة الالمانية على هذا الاقتراح، فانه من الافضل ان تطلب من ممثلها في كراكاس اخبار الحكومة الفنزويلية بان حكومته على علم بالاتصالات التي دارت بين الحكومتين البريطانية والفنزويلية وبان الحكومتين الالمانية والبريطانية مصمماتان على العمل معا في الضغط على الحكومة الفنزويلية لتسويض مطالبات رعاياهما<sup>15</sup>.

ومن دون الانتظار الى موافقة الحكومة الالمانية لاعتقاده بضرورة عدم التأخير في تقديم الانذار النهائي الى الحكومة الفنزويلية، طلب لانسداون من هاغارد Haggard الوزير البريطاني في كراكاس تقديم ذلك الانذار. وعندما ابليغه مترنيخ موافقة حكومته على العمل المشترك مع الحكومة البريطانية في تقديم الانذار النهائي، أخبره لانسداون بذلك وطلب من الوزير البريطاني الانضمام مع زميله الالمني في تقديم الانذار النهائي الى الحكومة الفنزويلية. واطلع مترنيخ لانسداون رأي حكومته بان هناك ربيع نقاط، فيما يخص العمل المشترك الذي تهدف الحكومتان الالمانية والبريطانية القيام به، تحتاج الى الدراسة. فالنقطة الاولى تتعلق بضرورة توضيح المطالبات البريطانية والالمانية، ففما يخص المطالبات الالمانية فانها تشمل الاضرار الناجمة عن الحرب الاهلية في فيزولا خلال الاعوام ١٨٩٨-١٩٠٠ والبالغة مليون وسبعمئة الف بوليفار، واذا اضطرت الحكومة الالمانية على استخدام اجراءات قسرية ضد الحكومة الفنزويلية فستطالب ايضا بالحصول على ثلاثة ملايين بوليفار عن الاضرار الناجمة عن الحرب الاهلية، وعلى الحكومة الفنزويلية ان تدفع واحدا واربعين مليون بوليفار كضمان للفائدة على المبلغ الذي استثمره الدائنون الالمان في فيزولا ولاسيما في السكك الحديدية. اما النقطة الثانية فقد تناولت الاجراءات الدبلوماسية وأكدت ان الحكومة الالمانية مستعدة لتقديم الانذار النهائي في اي وقت كان وانها ترى ان من الافضل للدولتين عند تقديمهما الانذار النهائي، ان تسرع في انتباه الحكومة

<sup>15</sup> . Memorandum for Communication to the German Ambassador, Foreign Office, 22 October, 1902, 1bid., No.173, pp. 154 – 156.

الفنزويلية لمطالب الدولة الأخرى. واهتمت للنقطة الثالثة بالاجراءات القسرية المزمع اتخاذها. فقد اعربت الحكومة الألمانية بان تكون الخطوة الاولى الاستيلاء على القوارب المسلحة الفنزويلية، واقتربت بان تأمر الحكومة البريطانية سلطاتها البحرية في البحر الكاريبي بوضع خطة لهذه الغاية. وفي حالة فشل هذه الخطة في إخضاع الحكومة الفنزويلية، فقد اقترحت الحكومة الألمانية اللجوء الى فكرة الحصار البحري للملبي، ولأن القسم الأكبر من تجارة فنزويلا تنقلها السفن الأجنبية فيجب ان يشمل الحصار السفن المحايدة وإذا حاولت هذه السفن الإفلات من الحصار فيجب ارجاعها او ان تعزل. ومن اجل ان يحصل على قبول الحكومة البريطانية لهذا الاقتراح، فقد أوضح مترنيخ للاندسون حدوث حالات مشابهة له في التاريخ كالحصار الذي فرضته بريطانيا عام ١٨٣٧ على غرناطة الجديدة (انضمت الى كولومبيا) وفي عامي ١٨٤٢ و ١٨٤٤ ضد سان جوان ومواني نيكاراغو والحصار الذي فرضته بريطانيا وفرنسا عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٧ ضد المواني الأرجنتينية والحصار الذي فرضته بريطانيا ضد ريو Rio والحصار الذي فرضته فرنسا عام ١٨٨٤ ضد فرموزا. وكشف مترنيخ لوزير الخارجية البريطانية بان الحكومة الألمانية عندما درست فكرة تطبيق الحصار ضد فنزويلا، فانها اخبرت حكومة الولايات المتحدة بنيتها، واعلنت الاخيرة بانها لا تتوقع اثاره للمشاكل. ولأن هناك خلافا في طبيعة المطالب الألمانية والبريطانية، فقد اقترحت الحكومة الألمانية من خلال للنقطة الرابعة بان لا تتوصل اي حكومة منهما الى تسوية مع الحكومة الفنزويلية الا بعد ان تتوصل الحكومة الأخرى الى تسوية مرضية مع الحكومة الفنزويلية، ويتوجب على الحكومتين التوصل الى تفاهم بشأن ذلك قبل الاقدام على اي عمل مشترك. لم يعلق لاندسون على النقاط التي عرضتها الحكومة الألمانية الا على الثالثة لأن موضوع الحصار الملبي بالصعوبات واني أدرك بان بعضا من سلطاتنا العليا لديها شكوك كبيرة بشأن امكانية تطبيق مثل هذا الاجراء لكنه استترك وقال: "على اي حال، فطالما اعلنت الحكومة الألمانية بوضوح عن رغبتها باله ما ان نشرع حتى يتوجب علينا السفر معهم الى نهاية الرحلة، وبأنه من المعقول جدا ان لا ندخر وسعا في دراسة فيما اذا كانت هناك صعوبات محتملة في طريقنا".<sup>١٦</sup>

واقترح مترنيخ على لاندسون ان يتعاون المجلس البريطاني لحملة الاسهم الأجنبية Disconto Gesellschaft فيما يتعلق بالقروض التي قدمها الى الحكومة

<sup>16</sup> Lansdowne to Buchanan, Foreign office, 11 November, 1902, *ibid*, No. 174, pp. 156 – 157.

الفنزويلية في الاعوام ١٨٨١ و ١٨٩٦، فوافق لانسدون على إخبار المجلس تحريرياً<sup>١٧</sup>.

لم تكن الحكومة البريطانية راغبة في فرض الحصار البحري السلمي على الموانئ الفنزويلية. ويرجع السبب الجوهري وراء ذلك إلى أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت متمسكة بمبدأ مونرو<sup>١٨</sup>. فقد نقل غوانت عن السفير البريطاني في واشنطن ميخائيل هيربرت M. Herbert قوله بأنه عندما أخبر وزير الخارجية الأمريكية جون هاي J. Hay شفوياً عن نوايا الحكومة البريطانية تجاه فنزويلا رد الأخير "بأن حكومته تأسف بشدة على تدخل أية دولة أوروبية في شؤون أي جمهورية في أمريكا الجنوبية، لكنها تترك بأن الدول أوروبية ملزمة بالمطالبة بحق الدفاع عن مصالحها في أمريكا الجنوبية"<sup>١٩</sup>. إلا أنه لم يمانع لأن الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت (١٩٠١-١٩٠٩) كان قد أخبر سبيك فون ستيرنبرغ Speck von Sternburg الوزير الألماني في واشنطن في الثاني عشر من تموز ١٩٠١ بأنه "إذا أساءت أية دولة جنوب أمريكية التصرف مع أية دولة أوروبية، دع هذه الدولة تعاقبها"<sup>٢٠</sup>.

لذا فعندما سلم مترنيخ في السادس والعشرين من تشرين الثاني مسودة الانذار النهائي الألمانية إلى لانسدون وأخبره عن استعداد حكومته على العمل معاً للاستيلاء على قوارب مسلحة فنزويلية وأن السفينة الحربية Vienta والسفن الحربية الصغيرة Falke و Gazelle والقارب المسلح بانثر panther رهن الإشارة، رد لانسدون بأن الحكومة البريطانية تعارض الاقتراح الألماني الرامي إلى فرض الحصار على الموانئ الفنزويلية "وبأننا كنا قد الزمنا أنفسنا بشكل تام بعدم تبني هذا الاجراء من وجهة النظر الدولية". لكنه عاد واعترف أنه في حالة عدم تحقيق عملية الاستيلاء على قوارب فنزويلية الهدف المرجو فإنه يجب تبني إجراءات أشد. وتسأل الوزير البريطاني فيما إذا كانت الحكومة الألمانية مستعدة في مثل هذه الحالة إلى اللجوء إلى الحصار الحربي. فذكر مترنيخ وزير الخارجية البريطانية بأن الحكومة الألمانية تعتقد بأن معارضة الحكومة البريطانية التي تمتلكت بالاحتجاج ضد فرنسا

<sup>17</sup> Ibid., p. 157.

<sup>18</sup> Dulles, Foster Reha, *Americas Rise to world Power, 1898 – 1954* (New York, 1963) p. 74.

<sup>19</sup> Von Quadt to the German Foreign Office, Washington, 25 November, 1902, Telegram, G.D.D. Vol. III, p. 162.

<sup>20</sup> Roosevelt to Speck von Sternburg, 12 July, 1901, quoted in Dulles, Op. cit., p. 74.

لسوء معاملتها للسفن التجارية البريطانية خلال حصارها لجزيرة فرموزا عام ١٨٨٤ قد تبذنت بعد ان اعلنت للحكومة البريطانية بان ذلك الحصار حربي وليس سلمى لأن فرنسا قد وعدت الحكومة البريطانية بأنها ستوقف عمليات الاستيلاء او تقتيش السفن البريطانية في اعالي البحار لذلك غيرت الحكومة البريطانية موقفها واعترفت تماما بإجراءات الحصار الفرنسي. وأضاف مترنيخ بان البحرية الألمانية لا تهدف الى التفتيش او الاستيلاء على السفن التي تعود الى دول محايدة في اعالي البحار في حالة فرض الحصار السلمى على الموانئ الفنزويلية. ولوضح السفير الألماني ان مسودات الاقتراحات التي قدمتها الحكومة الألمانية كانت من أجل تعريف وتحديد الحصار من أجل التوصل الى اتفاق بين الحكومتين. وتضمنت مسودة الاقتراحات تقسيم الموانئ الفنزويلية بين البحريتين البريطانية والألمانية لغرض فرض الحصار عليها. فوقع مينائي ماراكايبو Maracaybo وبيورتو-كابيلو Puerto-Cabello من نصيب البحرية الألمانية. أما ميناء لاغويرا La Guayra والموانئ الأخرى على الساحل الشرقي الفنزويلي فقد أصبحت من مهام البحرية البريطانية. واقترح مترنيخ على لاندسون عدم اعلان الحرب على فنزويلا وعدم قطع للعلاقات الدبلوماسية وعدم استدعاء ممثلها في كراكاس بل ارسالها اذا استدعت الضرورة الى مكان آمن في لاغويرا. واستلهم مترنيخ عن إمكانية اعلام حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بنوايا الحكومتين الألمانية والبريطانية، فرد عليه لاندسون بان الحكومة البريطانية قد اجرت اتصالا معها قبل عدة ايام ولا تستدعي للضرورة لاجراء المزيد. وقلل مترنيخ من أهمية الاقتراح البريطاني الرامي الى الاستيلاء على مكاتب الجمارك الفنزويلية لأن القوة التي ستقلها السفن الحربية الألمانية قادرة على مسك ميناء بيورتو-كابيلو لمدة محددة. وأضاف مترنيخ ان الاستيلاء على مكاتب الجمارك لا يحقق الهدف لأن الحكومة الفنزويلية قادرة على اقامة مكاتب جمركية أخرى ولن تحتل اجزاء من الأراضي الفنزويلية لمدة معينة قد يؤدي بالولايات المتحدة الأمريكية الى إثارة للصعوبات، لكل هذه الأسباب فضلت الحكومة الألمانية فكرة الحصار السلمى لأنها حسب رأيها من أكثر الوسائل القسرية فاعلية.<sup>21</sup>

في غضون ذلك حاولت الحكومة الفنزويلية زرع الخلاف بين الحكومتين الألمانية والبريطانية وذلك بتقريبها من الألمان لكسبهم بوعدهم بالإبقاء بمطالبهم و اذا توقفوا عن دعم المطالبين البريطانية. لكن الألمان رفضوا العرض الفنزويلي. لذلك

<sup>21</sup> Lansdowne to Buchanan, Foreign Office, 26 November, 1902, B.D. Vol.11, No. 175, pp. 157 – 158.

عبر لانسداون عن شكره للحكومة الألمانية، ووعده بأن تتخذ الحكومة البريطانية نفس الموقف إذا حدث نفس الشيء.<sup>٢٢</sup>

لقد سبق تقديم الحكومتين البريطانية والألمانية الإنذار النهائي المشترك إلى فنزويلا في السابع من كانون الأول ١٩٠٢ إتصالات جرت بينهما . ففي التاسع والعشرين من تشرين الثاني، أخبر مترنيخ لانسداون بأن حكومته قبلت الآراء التي كان قد طرحها الوزير البريطاني مع السفير الألماني في السادس والعشرين من نفس الشهر وبأنها تقترح أن يرسل الإنذار النهائي إلى رئيس جمهورية فنزويلا بدلا من أن يسلمه ممثلا الحكومتين مع اثنين من كبار ضباط البحريتين البريطانية والألمانية، وبأن يلتظر ممثلا الدولتين لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى في لاغويرا لتقرب الأوضاع. وطلب مترنيخ من لانسداون، استنادا إلى التعليمات التي كان قد استلمها من حكومته، إيضاحا عن موقف الحكومة البريطانية بشأن الإجراءات القسرية المزمع اتخاذها في حالة إخفاق عملية الاستيلاء على قوارب مسلحة فنزويلية في تحقيق للغاية المنشودة. وأوضح في هذا السياق بأن حكومته لا ترى "أن الشك في طبيعة هذه الإجراءات القسرية الإضافية نلزمنا الامتناع عن المضي في الخطوات التي كنا قد اتفقنا عليها".<sup>٢٣</sup> وأوضح لانسداون في مذكرة وجهها إلى مترنيخ في الثاني من كانون الأول للموقف النهائي لحكومته فيما يتعلق بالإجراءات القسرية الإضافية التي ربما تستخدم ضد فنزويلا في حالة إخفاق عملية الاستيلاء على القوارب المسلحة باجبارها على الأذعان. وتضمنت هذه الإجراءات (أ) الاستيلاء على مكاتب الجمارك لولاية مواقع مهمة في فنزويلا و (ب) الحصار. وبما أن الخيار الأول يتطلب استخدام قوات كبيرة والقيام بعمليات عسكرية وربما إلى احتلال طويل الأمد قد يؤدي إلى تعقيدات دولية بين بريطانيا وألمانيا من جهة وبين الولايات المتحدة من جهة أخرى، لكل هذه الأسباب اعتقدت الحكومة البريطانية بضرورة استبعاده وإنها تفضل الخيار الثاني، لكنها أكدت "أن شكل الحصار السلمي الذي أوصت به الحكومة الألمانية إجراء لا يمكن تبريره من وجهة نظر القانون الدولي فضلا عن أنها [الحكومة البريطانية] لا تستطيع اللجوء إليه بسبب البيانات الصحيحة التي أعلنتها الحكومات البريطانية السابقة من وقت لآخر. فالتعليمات التي تقدمت بها الحكومة الألمانية لا يمكن عداها الإجراءات حرب".<sup>٢٤</sup>

<sup>22</sup> Metternich to the German, Foreign Office, London, 26 November, 1902, G.D.D. Vol., III, p. 162.

<sup>23</sup> Lansdowne to Buchanan, Bowood, 29 November, 1902, B.D. Vol.1, No. 176, p. 159.

<sup>24</sup> Lansdowne to Metternich, Foreign Office, 2 December, 1902, Ibid, No. 177, p.160; Memorandum, Foreign Office, 2 December, 1902, Ibid, Enclosure in No.177, p. 159.

لذا اقترحت الحكومة البريطانية بعدم تبني اقتراح فرض الحصار السلمي، بل اقترحت فرض حصار على الموانئ الفنزويلية على أن تقوم "الدول" بعد اعلان الحصار بتعزيزه وذلك باصدار تعليمات من أجل للتخفيف من وطأة الحصار وأن تحذر الدول المحايدة في الوقت المناسب بان هذه التعليمات قد وضعت موضع التنفيذ. وبهذه الطريقة<sup>٢٥</sup>. يختتم لاندسون مذكرته بالقول فان الحكومة البريطانية "لا ترى سببا في حالة فرض بريطانيا والمانيا حصارا على الموانئ الفنزويلية، في عدم تبني الاجزاء التي اقترحتها الحكومة الالمانية"<sup>٢٥</sup>.

ومن الاجل الحصول على تأييد الامبراطور الالماني وليم الثاني، كتب بيلوف رسالة يخبره فيها "ان انكلتر تقترح فرض حصار حربي بدلا من حصار سلمي على الموانئ الفنزويلية. وبما انه من الافضل جدا لقناع البريطانيين باننا مستعدون للقيام معهم بالقيام بأي عمل آخر من دون تحفظات فأنني... التمس موافقة جلالكم لقبول البرنامج البريطاني. واستنادا الى المادة (١١) من دستور الامبراطورية، فان موافقة البرلمان مطلوبة"<sup>٢٦</sup>.

واوضح المستشار الالماني لامبراطوره "ان الموقف قد طرأ عليه تغيير حيث طلبت ايطاليا منا رسميا وكذلك في لندن المشاركة في الحصار الانكليزي-الالمانى بسفينتين حربيين من اجل ضمان مطالبتها ضد فنزويلا. وكما هو معروف فانه طالما لانكلترا ثمان سفن في منطقة جزائر قنبد الغريبة فان الدول للثلاث [بريطانيا، المانيا وايطاليا] ستوفر (١٤) سفينة حربية لمهمة الحصار. ان تعزيز قوة الاسطول المحاصر تبدو امرا غير مرغوب به من وجهة النظر السياسية، لأن الشعور المائد في الولايات المتحدة، الذي لم يثره عملنا لحد الان، ربما يتغير، اذا نقلت الدول الثلاث قواتها البحرية من مياهها الاقليمية للانضمام مع تلك الموجودة فعليا في منطقة الحدث"<sup>٢٧</sup>.

واستنادا الى ولاية رويتر فان الاسطول الاحتياطي الراسي في ميذاء ديفون قد امر ان يكون على اهبة الاستعداد للانطلاق الى البحر خلال اربع وعشرين ساعة. ووعد بيلوف ان يستنصر من الحكومة البريطانية عبر سفيره في لندن عن صحة هذه المعلومات واذا تبين صحتها فانه "يبدو من الافضل لانكلترا ان تستمر في تعزيز اسطولها حتى لا تكون هناك تغذية الى التقارير للمنحازة التي تنشر في كل مكان في

<sup>25</sup> Ibid.

<sup>26</sup> Bulow to the Emperor William, 12 December, 1902, G.D.D, Vol.III, pp. 162-163.

<sup>27</sup> Ibid.

الصحافة البريطانية والأمريكية إلى حد اتهام ألمانيا بأنها المحرض الرئيس لكامل العملية ولكافة إجراءات القصر بالذات<sup>٢٨</sup>.

وفي الواقع أن هذه التقارير وما كتبه الصحافة البريطانية والأمريكية قد جاءت بعد أن قام أسطول حربي بريطاني-ألماني مشترك بالاستيلاء على أربع سفن حربية صغيرة وإغراق واحدة كانت راسية في ميناء لاغويرا وتدمير حصن في ميناء بيورتو-كابلو وفرض حصاراً على ميناء لاغويرا بالاشتراك مع سفن إيطالية بعد أن استمرت الحكومة الفنزويلية في تجاهل التحذيرات البريطانية-الألمانية المشتركة وتجاهل الإنذار المشترك الأخير الذي قدمته في السابع من كانون-الاول ورفضت دفع التعويضات إلى البريطانيين والألمان مما دفع بالحكومتين إلى استدعاء ممثلها من فنزويلا<sup>٢٩</sup>.

فإن الصحافة الأمريكية عبرت عن مخاوفها وكتبت مقالات ركزت بشكل كبير على مبدأ مونرو<sup>٣٠</sup>. أما فيما يخص الصحافة البريطانية فقد اتهم المستنار الألماني بيلوف صحيفة التايمس "بأنها القائدة مرة أخرى في نشر هذه التلميحات" والاتهامات بأن ألمانيا هي المحرض الرئيس لعملية الاستيلاء على السفن الفنزويلية وقصف الموانئ وفرض الحصار البحري عليها. ويقتبس بيلوف من ما كتبه مراسل الصحيفة في واشنطن عند مناقشة "الإغراق المزعوم للأسطول الألماني لمفينة حربية فنزويلية" ما نصه: "إنها محاولة بائسة في إنكار الانطباع العميق الذي نشأ هنا جراء حوادث اليومين الماضيين. إن الانتقاد للرئيس لإغراق السفن الحربية الفنزويلية بأن الفعل الذي تم ضد فنزويلا قد اكتسب صفة الحملة التأديبية. ومن الأهمية أن الميل العام هنا هو تحميل مسؤولية هذه المعاملة ليس على البريطانيين بل على الألمان"<sup>٣١</sup>.

وعبرت نفس الصحيفة البريطانية في مقالة افتتاحية "عن رغبتها وتوقعها بأن السفن البريطانية لم تشارك في عملية الإغراق هذه"<sup>٣٢</sup>.

ويورد بيلوف معلومات تفصيلية في مذكراته عن الشعور المعادي لألمانيا الذي تفجر في بريطانيا. فيذكر "أن بعض الصحف الانكليزية شنت صحبات استنكار همجية لأذعة ضد أي تعاون مع ألمانيا". فكتبت صحيفة التايمس "أن تعاوناً مثل هذا النوع أمر متعذر لأن الشعب الألماني، إن لم تكن الحكومة الألمانية، كان ضد الانكليز

<sup>28</sup> Ibid., p. 163.

<sup>29</sup> Bulow, Op.cit., Vol.1, p. 641.

<sup>30</sup> Hale, O.J., The Great Illusion 1900-1914 (New York 1971) p. 237.

<sup>31</sup> Bulow to the Emperor william, 12 December, 1902, G.D.D, Vol.III, p. 163.

<sup>32</sup> Ibid.

خلال حرب البوير". ووجه الشاعر البريطاني. روديارد كيبلنج Rudyard Kipling، الذي وصفه بيلوف في الرايخشتاغ بـ "الشاعر المنفعل صاحب الموهبة الكبيرة" انتقادات موجّهة ضد الحكومة البريطانية ووصف هذا التعاون البريطاني مع ألمانيا بالغاار والخؤون في اشعار نشره<sup>٣٣</sup>. وينقل لنا بيلوف ما كتبه له الكونت مترنيخ السفير الألماني في لندن عن اشعار كيبلنج فينكر "ان قضية فنزويلا توضح ان للشعور المعادي لأمانيا خلال حرب البوير لا زالت قوية". وان الصحافة البريطانية لم تكن معادية لأمانيا مثل ما هي عليها الان، وان الحكومة البريطانية قد اصبحت غير مقبولة لدى الرأي العام البريطاني بسبب تعاونها مع ألمانيا، وانها عاجزة عن التأثير على الصحافة، وان وزير الخارجية البريطانية لانسداون قد عارض بشدة اشعار كيبلنج ضد التعاون البريطاني-الألماني في فنزويلا<sup>٣٤</sup>.

لقد تعرضت الحكومة البريطانية الى انتقادات لاذعة من الصحافة البريطانية، موجّهة اللوم والتعنيف الى الوزراء الذين وافقوا على اشتراك بريطانيا مع ألمانيا في "هذه المغامرة غير المدروسة" على حد تعبيرها، التي تقودهم الى التصادم مع الولايات المتحدة الأمريكية. ووصف جميع الصحف البريطانية من دون تمييز للحزب الذي نمثله الموضوع بـ "مازق فنزويلا" موضحة في نفس الوقت "تفاهة الحلف" مع ألمانيا. واعابت هذه الصحافة ونمت "غباء" للدبلوماسيين البريطانيين الذين كرروا "حمافة" اتفاقية اليانغستي. فضلا عن ذلك حذرت الصحف الحكومة بان ألمانيا "تريك مميت" و "منافس مهلك" تحاول "توريطنا في نزاع مع الولايات المتحدة". فالألمانيا تسعى فقط الى انتزاع الاراضي على حد تعبيرها<sup>٣٥</sup>.

اما في الولايات المتحدة الأمريكية فقد عبرت الصحافة عن مخاوفها ونشرت مقالات ركزت بشكل كبير على مبدأ مونرو<sup>٣٦</sup>. ويوضح ميخائيل هيربرت السفير البريطاني في واشنطن ردود الافعال الأمريكية تجاه العمل البريطاني-الألماني المشترك ضد فنزويلا حيث يذكر في برقيته المؤرخة في التاسع والعشرين من كانون الاول ١٩٠٢ الى لانسداون<sup>٣٧</sup> كتمامي شعور السخط في الكونغرس ولا سيما في مجلس النواب ضد عمل الدولتين وبالدرجة الاساسية ضد قصف واغراق السفن الفنزويلية. ولا يساور الادارة [الأمريكية] للشك ضدنا ولكنها من دون شك متوجسة خيفة من

<sup>33</sup> Ibid.

لمعرفة التفاصيل عن اشعار كيبلنج ينظر الى : Hale , op.cit., p. 238.

<sup>34</sup> Bulow, op.cit., Vol. IV, p. 642; Hale , op.cit., p. 238.

<sup>35</sup> Quoted in Hale , op.cit., p. 238.

<sup>36</sup> Ibid.

<sup>37</sup> Herbert to Lansdowne, Washington 16 December 1902, Confidential, B.D., Vol. 11, No. 108, p. 162.



الخطط الألمانية. وإن الانطباع السائد في واشنطن أن ألمانيا تستخدمنا، وإن أصدقائنا هنا يأسفون، من وجهة نظر المشاعر الوطنية الأمريكية تجاهنا، بلأننا نعمل معها". وفي رسالة سرية إلى لانسداون ذكر هيربرت بأن الدوائر السياسية الأمريكية لا تخشى من خطط بريطانيا ولا سيما في تعاونها مع ألمانيا، وإن الأمريكيين يتقنون بصورة مطلقة بأن بريطانيا ليس في نيتها التشكيك في مبدأ مونرو". ويكشف السفير البريطاني أن عمل بريطانيا مع ألمانيا واغراق السفن الفنزويلية قد خلق استياءً واسعاً في مجلس النواب، لكن تصريح كرابنورن Cranborne مساعد وزير الخارجية البريطانية لشؤون البرلمان في مجلس العموم حيث ادعى "بعدم مشاركة أية سفينة حربية بريطانية في العمل المدمر الأخير الذي يبدو أنه غير مبرر" غطي حد تعبيرهم. "والاشارات التي صدرت من اللورد سالزبوري رئيس الوزراء البريطاني، دحضت مبدأ مورنو والصحيات التي صدرت في الصحافة الانكليزية ضد العمل المشترك مع ألمانيا، كل ذلك خلق تحولاً في الشعور في مصلحة بريطانيا العظمى وقد بلغ عظمى خلال الايام الماضية إرتياح ظهر في تواجد الاسطول البريطاني الى جانب اسطول ألمانيا في المياه الفنزويلية إذ نظر اليه كضمانة لكبح ألمانيا من القيام بأي عمل ربما يقودها الى للتصادم مع الولايات المتحدة".<sup>38</sup>

واقبس السفير البريطاني في واشنطن من ما كتبه صحف نيويورك إذ ذكرت "أن الشعب الأمريكي عموماً قد وضع مكانة ذي قيمة كبير من السابق في حسن النية المتبادلة والتعاون في القضايا المشتركة للفرعين الكبيرين من العنصر الناطق بالانكليزية. الامبراطورية [البريطانية] العظيمة والجمهورية [الأمريكية] العظيمة". ويفصل هيربرت الشعور المعادي لألمانيا في الولايات المتحدة "وهو في الحقيقة جذير بالملاحظة، وإن الشكوك في خطط الامبراطور الألماني في البحر الكاريبي تشترك فيه الادارة والصحافة والرأي العام على السواء". ويعتقد هيربرت باستمرار هذا الشعور لأن "السلطات البحرية" الأمريكية عبرت عن مخاوفها من تعاضد الاسطول الحربي الألماني، لذلك تبنت برنامجاً بحرياً طموحاً لمواجهة البحرية الألمانية". ويختتم السفير البريطاني رسالته إلى لانسداون بالقول: "عندما افكر بالتعلق الذي اطراه الامبراطور الألماني على هذا البلد خلال العام المنصرم والمحاولات المستمرة التي قامت بها الدبلوماسية الألمانية لتشوية سمعة سلفي ويزر الخلاف بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة، فأني اعترف بأن الهجمات الحالية على ألمانيا تعبر عن شعور بالرضا عن

<sup>38</sup> Herbert to Lansdowne, Washington 29 December 1902, Confidential, Ibid., No.184, pp. 163- 164.

<sup>39</sup> Ibid., p. 164.

وينكر هيربرت ان صحيفة The New York Staats Zeitung، لسان حال السفارة الالمانية في واشنطن "تعزيز الشعور المعادي للامان في هذا البلد الى القصص الخبيثة التي اختلقت في انكلترا".<sup>40</sup>

كان لمشاعر السخط والاستياء التي عمت الولايات المتحدة الامريكية تأثير كبير في التعاون البريطاني- الالمانى المشترك. فقد تكلم لانسداون مع رئيس مجلس اللوردات الذي كان عازماً في رفضه "التوصل الى اتفاق مع الحكومة الالمانية حول التوضيحات التي يمكن ان يقدمها كلا عن الاجراءات التي تريد الدولتان اتخاذها بشأن الحصار، واننا اكدنا بوضوح باننا نعتبر هذه الاجراءات بانها تعني الحرب واننا اوضحنا ذلك للامان، واذا حاولوا اللجوء الى هذه الاجراءات فهذا شأن يعود لهم ولكن يجب ان يفهموا بان بريطانيا لم تتخذهم".

شارك لانسداون هذا الرأي وهكذا ترجعت الحكومة البريطانية عن موقفها ووافقت التعاون مع المانيا<sup>41</sup>. واستنادا الى ذلك اوسلت قيادة القوة البحرية البريطانية في السادس عشر من كانون الاول تعليمات الى القائد العام للاسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية بان يأمر جميع السفن المشتركة في عمليات ساحل فنزويلا "بعدم انزال رجال وعلم قصف حصون او إغراق سفن من دون تفويض من قيادة القوة البحرية".<sup>42</sup>

اما في المانيا فقد اقترح بيلوف على الامبراطور الالمانى على ضوء الشعور المعادي لالمانيا في واشنطن ولندن ان تمتنع المانيا في الوقت الحاضر عن توسيع العمليات العسكرية". وافق الامبراطور واكد بان "علينا ان نترك انكلترا تقوم بالخطوة الاولى"<sup>43</sup> وبسبب وصول تقارير من القائم بالاعمال الالمانى في واشنطن تحذر حكومته ان الولايات المتحدة الامريكية "ترى انه من المرغوب فيه التوصل الى تسوية في الحال". لقضية فنزويلا، فقد حذر هاي وزير الخارجية الامريكية "ان الرأي العام والكونغرس في حالة من الهياج العصبي والاثارة. وذكر هاي انه قد يمرر وبسهولة قرار في الكونغرس بطالب الرئيس التحري فيما اذا كان مبدأ مونرو... قد انتهك او ان لا ينتهك".<sup>44</sup>

<sup>40</sup> Ibid.

<sup>41</sup> Lansdowne to Metternich, Foreign office, 8 December, 1902, Ibid No.178, p.161

<sup>42</sup> Ibid. , p. 166.

<sup>43</sup> Bulow to the Emperor William , 12 December, 1902, G.D.D, Vol.3, pp. (163-164).

<sup>44</sup> Von Quodet to the German Foreign Office, Washington, 18 December, 1902, Ibid, ,p.164.

ادعى المستشار الألماني بيلوف انه اقترح على رئيس جمهورية فنزويلا حلاً لقضية التعويضات بالطرق القانونية بدلاً من العسكرية وذلك بقبول تحكيم المحكمة الدولية<sup>٤٦</sup>. لكن مصادر أخرى لا تورد ما ادعاه بيلوف بل تذكر ان الرئيس الأمريكي روزفلت هو صاحب الاقتراح الذي عرضه على ملك بريطانيا ادورد السابع (١٩٠١-١٩١٠) وعلى الامبراطور الألماني. فانورد السابع قد اعلن بعد استشارة حكومته عن تأييده للاقتراح مما جلب له انتقاداً من ابن أخته الامبراطور الألماني الذي علق "ان جلالته المعظم يفقد. لم تكن الجدة [الملكة فكتوريا] تتكلم مثل ذلك"<sup>٤٧</sup>. رفض الامبراطور الألماني علناً قبول قرار التحكيم، لذا حذر الرئيس الأمريكي روزفلت السفير الألماني في واشنطن انه مالم تتصرف ألمانيا مثل بريطانيا وتقبل هذا الاقتراح فانه سيرسل الاسطول الأمريكي ليمنع اي استيلاء للأراضي الفنزويلية.

رد السفير بان الامبراطور قد رفض الاقتراح علناً، لذا يجب ان لا يتوقع منه تغيير قراره. فرد عليه روزفلت بأنه لا يريد الدخول في جدل حول الاقتراح بل انه سينفذ قراره. وبعد اسبوع طلب السفير مقابلة روزفلت للتباحث في امور تتعلق ببلديهما<sup>٤٨</sup> في موضوع قبول ألمانيا لاقتراح التحكيم وقرر انه اذا ما سأل روزفلت فانه سيجيب بأنه لم يستلم بعد تعليمات من برلين. فسأله الرئيس الأمريكي عن رأي بلده من الاقتراح فرد السفير بذلك الجواب، الامر الذي جعل روزفلت يقول بأنه سيامر الاسطول الأمريكي بالتوجه الى فنزويلا مبكراً قبل مواعده المقرر. فأحتج السفير الألماني على ذلك، فرد عليه روزفلت بان هذا الامر لم يدون على الورق لحد الان واذا قبلت ألمانيا التحكيم فانه سيثني على هذا القرار وسيعامله قراراً ألمانيا. اما اذا استمرت ألمانيا في رفض اقتراح التحكيم فان الاسطول الأمريكي سيبحر الى المياه الفنزويلية. واخيراً اذعنبت ألمانيا لهذا التهديد الأمريكي قبل اثني عشر ساعة من إنقضاء مدته وقبلت اقتراح التحكيم<sup>٤٩</sup>.

وعلى أي حال، قيل كاسترو اقتراح التحكيم وبدوره اقترحه على بريطانيا وألمانيا اللتين قبلته وأوضحت ألمانيا عبر سفيرها في لندن "انها تحترف ان اللجوء الى التحكيم سيجنم عنه وبسهولة نتيجة ناعمة وترى بأنه يجب وضع الاقتراح الفنزويلي موضع التطبيق في الحال من دون الانتظار الى واشنطن..."<sup>٤٨</sup>.

<sup>46</sup> Bulow, op.cit, Vol.IV, p. 641.

<sup>47</sup> Quoted in Balfour, op.cit p. 244.

<sup>48</sup> Ibid.

<sup>49</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 18 December, 1902, B.D. Vol.11 ,No.181, p.162.

جرت مباحثات في لندن بين لانسداون ومترنيخ لمقارنة المسويتين اللتين تزمع الحكومتان الألمانية والبريطانية تقديمهما الى حكومة الولايات المتحدة رداً على اقتراح التحكيم "فانفقنا على (١) ان يكون هناك تحكيم (٢) استبعاد جزء من المطالبات (٣) يجب دعوة رئيس الولايات المتحدة ليقوم بمهمة التحكيم". وجرت مناقشات مفصلة حول صياغة المسويتين واتفقا انه في حالة رفض رئيس الولايات المتحدة قبول مهمة التحكيم على احالة الموضوع الى محكمة العدل الدولية<sup>49</sup>.

قبِلت للمانيا الصيغة التي توصل اليها لانسداون ومترنيخ في لندن واخبرت بذلك السفير الامريكي في برلين. واصدرت السفارة الألمانية في لندن مذكرة بهذا المعنى عبرت عن املها ان يقبل رئيس الولايات المتحدة التحكيم. واكدت المذكرة "ان الحكومة الألمانية بالتوافق مع الحكومة البريطانية تعتقد انها وجدت في الاشارة الى التحكيم الضمانة التامة لتسوية مرضية للقضية، لهذا فان هذا النهج يستحق التفضيل على الخيار الذي اقترحته اخيرا الحكومة الفنزويلية الذي يتضمن تفاوض الدولتين من خلال وساطة الوزير الامريكي في كراكاس"<sup>50</sup>.

على الرغم من الانفراج الذي حدث والمتمثل بدخول القضية في مرحلة مفاوضات التحكيم الا ان الامور سارت على غير ما يرام. ففي السابع عشر من كانون الثاني ١٩٠٣ فتحت النيران من حصن سان كارلوس في ميناء ماراكيبو على القارب المسلح الألماني "بانثر" الذي رد على النار بقصفه وتدمير له الحصن. ودافع المستشار الألماني بيلوف عن عمل بانثر بأنه "رد مبرر بهجوم معادي. فالنار فتحت من الحصن الفنزويلي عندما كان بانثر الذي كان يقوم بممارسة لمهامه في الحصار، يعبر الحاجز الى البحيرة للضبطة المتصلة بالبحر Lagoon. ولو كان الاميرال امريكي او بريطانيا لما فعل خلاف ذلك"<sup>51</sup>.

فضلا عن ذلك لم تحقق المباحثات التي جرت بين ممثلي بريطانيا والمانيا وبين المسؤولين الفنزويلين بوساطة بووين Powen ممثل الولايات المتحدة الأمريكية في العاصمة الفنزويلية او ما عرفت بمفاوضات التحكيم عن نتيجة تذكر. فاستأذا الى ما ذكره السكرتير الاول في السفارة الألمانية في لندن بيرنستورف Bernstorff الذي قابل لانسداون نيابة عن السفير البريطاني ان ممثل ألمانيا في كراكاس كان قد اخبر حكومته ان بووين لم يقدم "اي ضمان مرضي من اجل دفع المطالبات المالية". ورفض

<sup>49</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 22 December, 1902, Ibid., No.182, pp. 162.-163

<sup>50</sup> Memorandum Communicated by German Embassy, London, 25 December, 1902 (Translation) B.D., Vol.II, No.183, p.163.

<sup>51</sup> G.D.D., Vol.III, p. 164.

المطالبات الألمانية والبريطانية بأن تدفع فنزويلا حالا ٥٥٠٠ جنيه استرليني الى كل من بريطانيا والمانيا دفعة اولية من التعويضات المالية، لذلك هدنت الدولة الاخيرة بعدم الدخول في مفاوضات مع بويين حتى تتم الاستجابة الى جملة من المطالبات الاولى...". وطالبت المانيا ايضا ان تدفع فنزويلا تعويضات مالية اخرى عن الهجوم الذي تعرضت اليه المفوضية الألمانية في كراكاس وعن تعرض الرعايا الالمان الى السجن "لكنها لا ترغب في مطالبات اخرى اذا تحققت تسوية سريعة ولكنها ترى انه اذا تحولت القضية الى المحكمة الدولية في لاهاي فانها ستطالب تعويضات عن كل موضوع". واخذ الخلاف يطفو الى السطح بين بريطانيا والمانيا بشأن مفاوضات التحكيم: فبريطانيا لا تحبذ المطالبة بتعويضات اضافية وتحتج ان يتم فصل المطالبات البريطانية عن المطالبات الألمانية وان تشكل محكمة خاصة للنظر في مطالبات كل دولة. بل ان لاندسون، الذي يبدو انه رغب في رؤية نهاية سريعة للقضية الفنزويلية، اعتقد "ان افضل ترتيب ان يجتمع مفوض بريطاني مع مثيله من فنزويلا اولا وان النقاط التي يصعب التوصل الى قرار لها تحال الى محكم يمكن ان يختاراه".<sup>62</sup>

لم تشترك السفن الحربية البريطانية مع السفن الألمانية في قصف وتدمير حصن سان كارلوس. فقد عبر القائد العام للأسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية "لني اخلفه [قائد الاسطول الالمانى] تماما في هذا العمل واقترح عدم اتخاذ اية خطوة لدعمه لحين ورود تعليمات اخرى".<sup>63</sup> واستفسر مساعد وكيل وزير الخارجية البريطانية فيليز F.H. Villiers من لاندسون عن امكانية الطلب من قيادة القوة البحرية "ان توافق سرا على قرار الاسطول البريطاني بعدم المشاركة مع تلك الاجراءات الألمانية". رد عليه لاندسون "اننا نعتقد انه من المستحسن التعبير عن موافقتنا واملنا بان يكون حذرا في تجنب اشراك نفسه في مثل هذه الاجراءات [الألمانية] القاسية".<sup>64</sup> وكتبت قيادة القوة البحرية الى القائد العام للأسطول البريطاني في شمال امريكا وجزائر الهند الغربية طلبت منه الالتزام بتعليماتها التي كانت قد ارسلتها في السادس عشر من كانون الاول ١٩٠٢ "وانه من الامة القصى ان لا تتورط سفن جلالتة الحربية في مثل هذه الاجراءات الخطيرة".<sup>65</sup>

<sup>62</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 22 January, 1903, B.D., Vol. I No. 185, pp. 164-165.

<sup>63</sup> commander - in - chief, North America and West Indies to Admiralty, 23 January, 1903, Ibid., No. 186, p. 165.

<sup>64</sup> Minute by F.H. Villiers and Lansdowne, Ibid., Enclosure in Ibid., p. 166.

<sup>65</sup> Admiralty to Commander - in - chief, North America and West Indies, Admiralty, 24 January, 1903. Ibid., No. 187, p. 166.

أدت حادثة تنمير حصن سان كارلوس الى إثارة السخط والعداء ضد المانيا في بريطانيا والولايات المتحدة. ففي بريطانيا عارضت العائلة المالكة المتمثلة بالملك لودور السابع والملكة وأمير ويلز اي عمل مشترك تقوم به بريطانيا مع المانيا في فنزويلا واستادا الى مترنيخ "لنا اعتدنا مسببي الاذى بالدرجة الاولى بسبب قصص سان كارلوس. ان الرأي العام في انكلترا تمسك على نحو اعمى بوجهة نظر الرئيس كاسترو، وان قصص هذا الحصن تدنيس لثربة فنزويلا المقدسة... ان البريطانيين قد تناسوا بالكامل انهم انفسهم الذين قصفوا بيورتو-كابيلو قبل وقت ليس بطويل"<sup>66</sup>.

ومن جانبه اخبر لاندولون السفير الالمانى في لندن "ان عليه.. ان يدرك ان سخطا كبيرا قد عم في هذا البلد وفي الولايات المتحدة جراء القصف الالمانى لسان كارلوس"<sup>67</sup>. واخبر السفير البريطانى في واشنطن هربرت وزير الخارجية البريطانية لاندولون بانه "عم شعور بالسخط الشديد في الولايات المتحدة وانه في حالة الاخفاق في التوصل الى تسوية مبكرة ، فربما سيكون هناك انفجار للمشاعر قد يقود الى وضع متوتر يضع الرئيس [روزفلت] في وضع حرج خطير"<sup>68</sup>.

وفي واشنطن ايضا استدعى روزفلت ، الذي استاء من استمرار فرض الحصار البحري على فنزويلا على الرغم من موافقتها على عرض النزاع على التحكيم وازدادت شكوكه ولا سيما من المانيا<sup>69</sup>، للقائم بالاعمال الالمانى في الحادي والثلاثين من كانون الثاني ، وعبر عن امله "عن امكانية التوصل الى تسوية سريعة للنزاع الفنزويلي لأن السخط اخذ يتنامى بين صفوف الرأي العام لهذا البلد"<sup>70</sup>.

لم تؤثر هذه الحالة في سير مفاوضات التحكيم التي كانت تجري في واشنطن بوساطة بولين حول مطالبات الدول ضد فنزويلا. ومن الجدير بالذكر ان المفاوضات لم تقتصر على المانيا وبريطانيا بل شملت ايطاليا التي شاركت سفنها الحربية في فرض الحصار على للموانئ الفنزويلية لكي تحصل على تعويضات مالية للاضرار التي لحقت بمصالح رعاياها، بالإضافة الى دول اخرى. الا ان أهم ما تميزت به هذه المفاوضات وقوف بريطانيا ومانيا وايطاليا في جبهة واحدة. فقد اخبر

<sup>66</sup> Metternich to Bulow , London . 4 February, 1903, private , G.D.D Vol III, pp. 164- 166.

<sup>67</sup> Lansdowne to Lascelles , Foreign office, 27 January, 1903, B.D. ., Vo1. II No. 190, p. 167.

<sup>68</sup> Herbert to Lansdowne, Washington, 26 January, 1903, Telegram, secret, ibid , No. 189, p. 165.

<sup>69</sup> Dulles , op.cit., p. 74.

<sup>70</sup> Herbert to Lansdowne, Washington, 31 January, 1903, Telegram, Ibid, No. 192, p. 168.

هربرت لانسدون "بأننا الثلاثة نعمل في انسجام تام"<sup>٦١</sup>. لذلك حاول بووين المفوض الأمريكي في كراكاس والوسيط في المفاوضات "أن يفصل ألمانيا عنا وذلك عن طريق تقديم اغراءات منفصلة إلى ممثلها في واشنطن"<sup>٦٢</sup>.

وقد اعترف بووين إلى السفيرين الإيطالي والبريطاني في واشنطن "أن المبدأ الرئيسي لدبلوماسيته كان يهدف إلى خلق خلاف بين السفيرين البريطاني والألماني، وأن هذا الاعتراف كان له تأثير كبير في الحفاظ على التعاون بين الدول المطالبة بالتعويضات"<sup>٦٣</sup>. وأخبرت ألمانيا بريطانيا بمحاولات الوسيط الأمريكي "أنه ليس في نية الحكومة الألمانية أن تسمح لنفسها أن تتأثر بهذه الآليات، وإنما ستعاون معنا بأخلاص وإنما تشعر بدون شك بأننا سنفعل الشيء نفسه". عبر لانسدون "عن الرضا الذي منحني التعرف بأن ممثلينا على اتصال وثيق فيما بينهم... وأن سلوك بووين يبدو قد جعل التوصل إلى تسوية شاملة في واشنطن أمراً متقدراً"<sup>٦٤</sup>. ووصف لانسدون بووين بـ "الوغد" بسبب سلوكه "المخزي" على حد تعبيره<sup>٦٥</sup>.

كانت غاية لانسدون، الذي وصفه السفير الألماني في لندن، مترليخ بـ "رجل الشرف الذي يفي بالوعود التي يقطعها على نفسه"<sup>٦٦</sup> وضع حد لهذه "المفاوضات المتعبة وهي في مراحلها الأخيرة" لأنه كان يدرك "أن النصف الألماني لسان كارلوس قد نجم عنه شعور بالسخط في هذا البلد وفي الولايات المتحدة الأمريكية"<sup>٦٧</sup>.

عبرت الحكومة الألمانية عبر سفيرها في لندن عن امتنانها لموقف لانسدون الراض لدبلوماسية بووين الهادفة إلى زرع الخلاف بين ممثلي بريطانيا وألمانيا في المفاوضات الخاصة بفنزويلا. وأوضحت الحكومة الألمانية أن الاقتراح الذي قدمه الوزير الأمريكي بووين الذي تضمن أن على ألمانيا وبريطانيا وإيطاليا أن

<sup>61</sup> Herbert to Lansdowne, Washington, 4 February, 1902, Telegram, Ibid, No. 194, p.169.

<sup>62</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 4 February, 1903, Ibid, No. 195, p.169.

<sup>63</sup> G.D.D., vol III p. 162.

<sup>64</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 4 February, 1903 B.D., Vol.II No.195, p.169.

<sup>65</sup> Metternich to Bulow, London, 4 February, 1903, private, G.D.D., Vol III, P. 165.

<sup>66</sup> Ibid.

<sup>67</sup> Lansdowne to Lascelles, Foreign Office, 27 January, 1903 B.D., Vol.II, No.190, p.167.

تقبل بنسبة (٣٠) بالمائة من عوائد الجمارك الفنزويلية لمدة ثلاثة اشهر لارضاء مطالبهم الرئيسية غير مقبول وارسلت تعليمات الى سفيرها في واشنطن ستيرنيبورغ تطلب منه الانضمام مع هربرت السفير البريطاني في واشنطن في رفض هذا الاقتراح.<sup>٦٨</sup>

وفي برقية سرية وشخصية اوضح لانسداون الى هربرت موقف الحكومة البريطانية من "التطورات المحتملة للوضع الفنزويلي". فأكّد "ان غاية بووين لا تبدو من اجل التسهيل للتوصل الى تسوية عادلة بل الى خلق خلافات بين الدول، لذا فاننا نأسف الى وقف المفاوضات معه". ووضح لهربرت "انه اذا اظهر بووين ميلا الى خلق العقبات امام التوصل الى البروتوكول [الخاص بالولايات للتفاهم لحل القضية الفنزويلية] التي من المرجح انها ستسبب تأخيرا، فاننا نعتقد انه من الافضل التخلي عن المحاولات الرامية الى التوصل الى تسوية مباشرة معه، وان عليك ان نقترح الرجوع الى البديل الذي ينص على احوالة المسائل المتعلقة بالنزاع الى محكمة العدل في لاهاي".<sup>٦٩</sup>

ولا سيما انه سبق للحكومات البريطانية والالمانية والاطالية والفنزويلية ان قبلت في السابغ والعشرين من كانون الاول ١٩٠٢ من حيث المبدأ خطة الاحالة وانه اذا تم ترتيب الاوليات الخاصة بالاحالة الى محكمة العدل الدولية التي ستدرس مطالب الدول الثلاثة التي تفرض الحصار على الموانئ الفنزويلية وكذلك مطالب الدولة الاخرى وستقرر مبالغ التعويضات التي يتوجب ان تدفعها لهم فنزويلا وتحديد الضمانات لدفعها "فاننا ومن دون شك سنكون مستعدين لرفع الحصار".<sup>٧٠</sup>

سارت المفاوضات فيما يخص الجانب البريطاني على ما يرام حيث وافق بووين على المطالبات البريطانية، وكان البروتوكول الخاص ببريطانيا على وشك التوقيع لولا المطالبات الالمانية والاطالية الخاصة بالبروتوكول الخاصة لكل منها. وبما ان بريطانيا حصلت على ما طلبته فان هربرت اوصى لانسداون "وعلى ضوء الراي العام هنا [في الولايات المتحدة] فانه من الحماسة من جانبنا اذا اخذنا القيادة في إيقاف المفاوضات مع بووين، واذا كنا ملزمين في دعم المطالبات الالمانية والاطالية، وهو

<sup>68</sup> Lansdowne to Lascelles , Foreign Office 6 February, 1903 ,Confidential, Ibid. ,No. 197, p. 171.

<sup>69</sup> Lansdowne to Herbert, Foreign Office 7 February, 1903 ,Telegram, secret, and private, Ibid. , No. 198, p. 171.

<sup>70</sup> Ibid. , pp. 171 – 172.



امر حسب وجهة نظري، غير منصف... فذرع المانيا تقترح قطع المفاوضات وان لا تسمح ان يأتي الاقتراح من بريطانيا العظمى<sup>٧١</sup>.

وأوصى هربرت ايضا بضرورة ان تمارس الحكومة البريطانية الضغط على الحكومتين الالمانية والبريطانية الى تعديل مطالبتهما "وأجد نفسي ملزما لتحذير سيادتكم بان تغييرا كبيرا قد طرأ في مشاعر هذا البلد [الولايات المتحدة] نحونا [منذ نهاية كانون الأول ١٩٠٢]، وان علاقتنا الطيبة مع هذا البلد ستتضرر بشكل خطير اذا استمر هذا الحلف لفترة طويلة مع المانيا. فقد حان الوقت لنا، من وجهة النظر الامريكية، ان نختار بين صداقة الولايات المتحدة ومانيا"<sup>٧٢</sup>.

استدعى لانسداون السفير الالمانى في لندن مترنيخ، وأوضح له "بصراحة تامة خطورة الوضع واهمية التوصل الى تسوية مريعة، وطبعت في ذهنه بان موقفنا لا يحتمل، اذا قمنا، لا سيما بعد حصولنا على موافقة بوبين على مطالبنا، بقطع المفاوضات لأن فزويلا ترفض قبول المطالبات الالمانية المتطرفة الخاصة بالاستحقاقات التي تختلف ماديا عن استحقاقاتنا، ولا اعتقد ان موقف المانيا يحسد عليه اذا مثلت المفاوضات تحت هذه الظروف"<sup>٧٣</sup>.

ويستطرد وزير الخارجية البريطانية "التي اعتقد بان المانيا تحتاج الى الايفاء بالشرطين فيما يخص بموازنة مطالبها الرئيسية: (١) يجب ان تحصل على كفالة مضمونة للدفع الاجل... و(٢) ان هذه المطالبات يجب ان لا تكون عرضة للتفويض. ومن اجل تسهيل اي تسوية يمكن التوصل اليها، اننا مستعدون على الموافقة على ان تأخذ موازنة المطالبات الالمانية الرئيسية الافضلية على المطالبات الالمانية من غير تلك التي غطيت بنفع مبلغ ٥٥٠٠ جنيه استرليني"<sup>٧٤</sup>، التي تنفع نقدا للايفاء بمطالبها الاولى. اما فيما يتعلق بالشرط الثاني، فقد عبر وزير الخارجية البريطانية عن اعتقاده ان حكومة فزويلا لا تعارضه وانه جدير بالطلب، وحذر السفير الالمانى "بانكم تحت الانطباع بوجود سوء فهم بين القائم بالاعمال الالمانى وبوبين. فافعلوا ما استطعتم للتوصل الى تسوية وفقا لما هو اعلاه"<sup>٧٥</sup>.

وبعد مفاوضات بين ممثل المانيا وبوبين الخاصة بتحديد مدة تنفع خلالها مستحقات المطالبات الالمانية الرئيسية وتحديد موارد محددة من الدخل لبعض

<sup>٧١</sup> Herbet to Lansdowne, Washington 7 February, 1903 Telegram, secret, , Ibid., No. 199, p. 173.

<sup>٧٢</sup> Ibid.

<sup>٧٣</sup> Lansdowne to Herbet, Foreign Office, 9 February, 1903 Telegram Confidential, Ibid., No. 200, pp. 172 - 173.

<sup>٧٤</sup> Ibid. p. 173.

<sup>٧٥</sup> Ibid

المؤسسات الفنزويلية كضمان لدفع هذه المستحقات، ومراسلات ولقاءات بين وزير الخارجية البريطانية والسفير الألماني في لندن، تم التوصل الى تسوية حيث وقعت البروتوكولات في الثالث عشر من شباط عام ١٩٠٣.<sup>٧٦</sup>

لقد اوجزتيلي J.A.C.Tilley احد موظفي وزارة الخارجية البريطانية التعاون البريطاني-الالمانى في فنزويلا في مذكرته المؤرخة في الخامس من كانون الثاني ١٩٠٥ بما يلي: "على الرغم من عدم شعبية مشاركتنا مع المانيا في هذا البلد (بريطانيا) الا انها جلبت اعتراف الحكومة الالمانية كيف ان حكومة صاحب الجلالة قد عملت بأخلاص تجاههم رغم ما جابهته من صعوبات كبيرة".<sup>٧٧</sup>

<sup>76</sup> Lansdowne to Lascelles , Foreign Office 12 February, 1903 Confidential, Ibid. ,No. 201,pp. 173 - 174.

<sup>77</sup> memorandum by J.A.C.Tilly respecting the Relations between Germany and Great Britain,1892-1904 ,Foreign Office,5 January 1905,B.D.,Vol.I, Appendix ,P.335

## الفكر الفلسفي عند الصوفيين (الكلمة) النموذجاً

الدكتور

ياسين حسين الويسي (\*)

### المقدمة

ان الفكر الصوفي اثبت منذ نعومة اظفاره انه فكر عميق يبرز ذلك من خلال تناول الصوفية للألفاظ والمصطلحات البالغة الدقة والتنوع في المعاني والمبدلات بحسب تجربة كل صوفي، وكما يرى ابن خلدون ان الطرق إلى الله بعدد انفس الخلاق فإن التعدد في المعاني بحسب التجربة الصوفية ونحن إذ نأخذ مصطلح الكلمة عند الصوفية فإننا نتناول اهم من نكلم في هذا المصطلح بحيث اصبحت له نظرية مستقلة فيه فلقد اشتهر الجنيد والحلاج بأقوال الفناء واشتهر ابن الفارض بالتركيز على الحقيقة للمحمدية واشتهر الغزالي بنظرية المطاع، واشتهر ابن عربي وعبد الكريم الجيلي بنظرية الإنسان الكامل، وقد تناولت في المطلب الأول من هذا البحث: الكلمة بمعنى التوحيد والفناء. وفي المطلب الثاني: الكلمة بمعنى الحقيقة المحمدية. وفي المطلب الثالث الكلمة بمعنى الإنسان الكامل. وفي المطلب الرابع: الكلمة بمعنى المطاع وقد ختمت البحث بخاتمة تناولت فيها النتائج المتوخاة من هذا البحث واشترت إلى توصية مهمة للباحثين في هذا المجال. وقد اعتمدت على المصادر والمراجع الصوفية المهمة والتي تعتبر الاساس عند الصوفية انفسهم، ولخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين وعلى اله وصحبه اجمعين.

البحث

### المطلب الأول-الكلمة بمعنى التوحيد والفناء

ان ارتباط الكلمة وصلتها بالذات الالهية تتباين لدى أئمة التصوف في الاسلام فهذا الجنيد البغدادي (ت ٢٩٧) يرى ان معنى الكلمة هو التوحيد الذي اخذه من بني آدم في آية الميثاق فيرى الجنيد: (ان ارواح البشر آمنّت منذ الازل بالله واقرت بتوحيده وهي لم تزل بعد في عالم الذر قبل ان يخلق الله العالم والاجسام المادية التي هبطت تلك الأرواح اليها، وان هذا هو التوحيد الكامل الخالص لأنه صدر عن ارواح مطهرة

(\*) كلية الآداب - الجامعة المستنصرية.

مجردة من اعراض البدن وأفاته، موجودة لا بوجودها المتعين الخاص، بل وجود الحق ذاته<sup>(١)</sup>.

وفي هذا المعنى يقول الجنيد: (فقد اخبرك عز وجل أي في آية الميثاق وهي "واذ اخذ ربك من بني آدم... الخ" انه خاطبهم وهم غير موجودين إلا بوجوده لهم إذ كان واجد للخلقة بغير معنى وجودها بانفسها، بالمعنى الذي لا يعلمه غيره ولا يجده سواه، فقد كان واحداً محيطاً شاهداً عليهم، ابدياً في حال فنائهم)<sup>(٢)</sup>.

وقد انزل الله هذه الارواح من عليائها إلى عالمنا هذا والبسها ابدانها قصداً للبلاء والاختبار، فشغل بعضها بأعراض الدنيا ونسي اصله وموطنه، وحن بعضها إلى العودة إلى ذلك الاصل وجعل غايته الوفاء لذلك الميثاق الذي اخذه الله عليه، والرجوع إلى تلك الحال التي كان عليها قبل ان يوجد في هذا العالم، فإذا تم لهذه الأرواح ما ارادت، وجدت الله بالتوحيد الكامل الخالص—أو ما يقاربه—رفيت عن وجودها الزماني وبقيت بالله وحده. وفي هذا الفناء في الحق يتحقق معنى الحب له: إذ الفناء عن الذات المتعينة هو عين المحبة لمن تبقى الذات حية فيه ولا تشهد سواه أما الفناء في الحق فقد تحقق أزل—في نظر الجنيد—إذ لم يكن في الأزل سوى الله: والفناء هو مطلوب الصوفية (الأن)<sup>(٣)</sup> وهذا التوحيد المتأصل قبل الوجود والذي سبيله الفناء عن الذات بعد الوجود وهو نفس المعنى الذي قال به ابو اليزيد البسطامي (ت ٢٦١) من قبله والحسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩) من بعده فهذا البسطامي يقول: (اشرفت على ميدان اللبسية، فما زالت اطير فيه عشر سنين حتى صرت من ليس في ليس بليس، ثم اشرفت على التضبيع حتى ضعت في الضياع ضياعاً، وضعت فضيعة عن التضبيع بليس في ليس في ضياعة التضبيع، ثم اشرفت على التوحيد في غيبوبة الخلق عن العارف، وغيبوبة العارف عن الخلق)<sup>(٤)</sup>.

أما الحلاج الذي له في الكلمة مدلولات متعددة بأنها الحقيقة المحمدية أو هي الفناء عن الذات البشرية والبقاء بالذات الالهية التي هي سبب وجود الموجودات، بل هي الموجود الوحيد الذي من وجوده انبثقت الموجودات أو هي الروح الناطقة والانسان الكامل، وهذه المعاني التي قال بها الحلاج نابعة من فلسفة الحلاج للعبارة التي تقول "خلق الله آدم على صورته" بأنه ارجع الضمير في قوله (على صوته) إلى

(١) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، دار النشر للطباعة والنشر، بيروت، ص ٢٠٥.

(٢) الجنيد، كتاب الفناء، مخطوطة اسطنبول، ورقة ١٥٥.

(٣) ابو العلا عفيفي، التصوف الثورة الروحية في الاسلام، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

(٤) احمد توفيق عباد، التصوف الاسلامي تاريخه ومدارسه وطريقته وأثره، مكتبة الاجلو، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٦٧.

الذات الالهية لا إلى الانسان (فصرها في ضوء نظرية حلولية هي اشبه ما تكون بنظرية النصارى في طبيعة الانسان بوجه عام)<sup>(٥)</sup>.

ان جرئة العلاج في ابراز هذه النظرية في الكلمة إلى حيز الوجود بعد ان استولت على قلبه كانت السبب الاساسي في صلبه. ومن شواهد هذه الاقوال:

سبحان من اظهر لموته      سرسنا لا هوته الثاقب  
دثم بدا الخلق ظاهراً      في صورة الأكل والشارب  
حتى لقد عاينه خلقه      كلحظة الحاجب بالحاجب<sup>(٦)</sup>  
ومن هذه الأقوال أيضاً:  
مزجت روحك في روحي كما      تمزج الخمرة في الماء الزلال  
فإذا مسك شيء مسني      فإذا انت انا في كل حال<sup>(٧)</sup>  
وكذلك قوله:

انا من اهوى ومن اهوى انا      نحن روحان حللنا بدنا  
فإذا ابصرتني ابصرته      وإذا ابصرته ابصرتنا<sup>(٨)</sup>  
ومنها أيضاً:

انت بين الشغاف والقلب تجري      مثل جري المموج في الاجفان  
وتحل الضمير جوف قوادي      كحلول الارواح في الابدان  
ليس من ساكن تحرك إلا      انت حركته خفي المكان<sup>(٩)</sup>

هذه الاقوال وغيرها جعلت العلاج غير مقبولا في الوسط الاسلامي حتى عند بعض مشايخ الصوفية كما يذكر السلمي فيقول: (رده أكثر المشايخ ونفوه وابسوا ان يكون له قدم في التصوف)<sup>(١٠)</sup> ان هذا الظهور الإلهي في الصورة البشرية على حد تعبيرات العلاج جعلت من هذا الإنسان الذي هو محط الظهور جعلت منه معنى الكلمة التي انتهى العلاج إلى معناها بانها (الحقيقة المجمعية) التي قال فيها: (طمس سراج من نور الغيب، يداو عاد، وجاوز السراج وساد قمر تجلى من بين الاقمار، برجه في فلك الاسرار بسماء الحق "اميا" لجمع همته، وحرماً لعظم نعمته، ومكياً لتمكينه عند قربه..... أنوار النبوة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرت، وليس في الأنوار نوراً أنور وأظهر، وأقدم من القدم، سوى نور صاحب الكرم، همته سبقت الهمم،

(٥) ابو الغلاء عفيفي، التصوف الثورية الروحية في الاسلام، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٦) العلاج، الطوايين نشره ماسينيون، باريس، ١٩١٣، ص ١٣٠.

(٧) المصدر نفسه، ص ١٣٤.

(٨) العلاج، الطوايين نشره ماسينيون، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٩) السلمي (ابو عبد الرحمن) طبقات الصوفية، تحقيق: نور الدين شريعة، ص ٣٠٩. كذلك ديوان العلاج، نشره د. كامل مصطفى الشبيبي، ط٢، بغداد ١٤٠٤ - ١٤٠٨، ص ٨٠ - ٨١.

(١٠) السلمي، طبقات الصوفية، ص ٣٠٧.

وجوده سبق العدم، وأسمه سبق الكلم، لأنه كان قبل الامم.... للعلوم كلها قطرة من بحر، الحكم كلها غرفة من نهر، الازمان كلها ساعة من دهره.... الحق وبه الحقيقة، وهو الاول في الوصلة، هو الآخر في النبوة، والباطن في الحقيقة والظاهر بالمعرفة<sup>(١١)</sup>.

وبالرغم من أن الاستاذ نيكولسون يرى أن الحلاج من القائلين (يقسم النور المحمدي الذي أديعت منه جميع أنوار النبوة، ولكنه يجد في عيسى - لا في محمد - المثال الكامل للرجل الذي وصل إلى مقام القريب فحل فيه روح الله. ففي عيسى على هذا الرأي روحان: روح إلهية قديمة ولا تجري عليها أحكام الفناء والتغير، وروح بشرية حادثة تجري عليها أحكام الكون والفساد)<sup>(١٢)</sup> وأرى أن الاستاذ نيكولسون يريد أن يعرض للفلسفة المسيحية بلسان شخص مسلم ليثبت أن المسيحية هي المصدر الاول لفلسفة الاسلام في حين ان فتى بيضاء رأى (أن الانسان هو (صورة الله) ومظهر تجليه فقال: "أن لم تعرفوه، فاعرفوا آثاره، وأنا ذلك الأثر، وأنا الحق، لأنني لازلت أبداً بالحق حقاً)<sup>(١٣)</sup> ويرى الحلاج أيضاً: (إن الله في كل شيء، فكل ما يقع عليه البصر، فهو نقطة بين نقطتين، والخط كله نقط مجتمعة، ومن هذا قال: ما رايت شيئاً إلا ورايت الله فيه)<sup>(١٤)</sup> وبهذا المنطق قال الحلاج: أنا الله... وما في الجبة غير الله وهذا التعدد في معاني الكلمة لنحضره عند الحلاج لكنها تشير إلى شيء واحد هو الوساطة بين الخالق والمخلوق فهو يستخدم الفناء في الحق، والحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل والروح الناطقة، والمعنى الأخير لملمه في مناجات الحلاج يوم مقتله حيث يقول: (نحن بشواهدك نلوذ وبسنا عزتك نستضيء لنبتدي لنا ما شئت من شأنك وانت الذي في السماء عرشك وانت الذي في السماء إله وفي الأرض إله تجلى كما تشاء... مثل تجليك في مشيئتكم كأحسن صورة وللصورة... هي الروح الناطقة الذي أفرنته بالعلم والبيان والقدرة)<sup>(١٥)</sup> وهو في هذا لا يختلف عن البسطامي الذي يقول: (كمال المعارف إحترافه بربه.... وكنت لي مرأة، فصرت أنا المرأة)<sup>(١٦)</sup> وهذا الاحتراق في الله تعالى الذي أشار إليه البسطامي تجلى في مصرع الحلاج حيث (احترق بربه وحرق، احرق بعد قتله في قضية لا تزال تشغل الصوفية والدارسين إلى

(١١) الحلاج، الطواسين، ص ١٦٥-١٧٥.

(١٢) أ. نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩ القاهرة، ص ١٣٤.

(١٣) الحلاج: الطواسين، ص ٥١.

(١٤) الحلاج: أخبار الحلاج نشرة ماسينيون وكراوس، باريس ١٩٣٦، ص ١٦.

(١٥) الحلاج: أخبار الحلاج، ص ١١.

(١٦) السهلي، النور من كلمات أبي طيفور، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي ضمن كتاب (شطحيات الصوفية)، ص ١٠٥.

اليوم<sup>(١٧)</sup> ان هذا المنهج الذي بذته العلاج في تصويره لمعاني الكلمة من اعتبارات الفناء والحقيقة المحمدية، الروح الناطقة والانسان الكامل، تمحور على شكل مذهب متكامل في ادب ابن الفارض في تائيته الكبرى وفي نظرية الانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي.

### المطلب الثاني- الكلمة بمعنى الحقيقة للمحمدية

لقد عبر الصوفية عن الكلمة بمعنى الحقيقة المحمدية، والروح الاعظم والانسان الكامل المتجسد بشخص النبي محمد (ﷺ) وله الكلمة الاولى والعقل والمبدأ الاولى ولوغوس سابق، معتمدين على حديث: "كنت نبيا وآدم بين الماء والطين" وفي رواية "وان آدم لمجنل في طينته" ان هذا الحديث وغيره من الاحاديث الضعيفة الاخرى التي ورد فيها انه: (أول الخلق، والقبضة النورانية، والعقل)<sup>(١٨)</sup> ومن تلك الاحاديث الخاصة بالعقل ومنها: (أول ما خلق الله للعقل فقال له اقبل فأقبل ثم قال له ادبر فأدبر ثم قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا اكرم علي منك... الخ)<sup>(١٩)</sup> وحديث (ما خلق الله عز وجل خلقا اكرم عليه من العقل)<sup>(٢٠)</sup> وايضا حديث (يا ايها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل)<sup>(٢١)</sup>. ونلاحظ من خلال هذه الاحاديث التي ينسجها الافكار المتحررة في الوسط الإسلامي كأخولن الصفا والاسماعيلية والمتصوفة امتزاج المعاني الصوفية للكلمة بالفلسفة اليونانية التي عبرت عن الكلمة بالعقل فلقد (سوى الصوفية بين الحقيقة المحمدية وبين العقل، سوا بينهما وبين الروح الاعظم)<sup>(٢٢)</sup>. فهذه الحقيقة المحمدية (هي الروح الاعظم المبعوث إلى النفس الكلية ثم إلى النفوس الجزئية. ولئن تجلت الحقيقة في الانبياء ببعض اسمائها وصفاتها، فلقد تجلت في المظهر المحمدي بذاتها وجميع صفاتها)<sup>(٢٣)</sup> وهذا الترابط والامتزاج بين الحقيقة المحمدية المتمثلة بالانسان الكامل والمتجلية في المظهر المحمدي نلمسها في

(١٧) يوسف زيدان، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨ - ١٩٨٨، ص ١٤١.

(١٨) د. عاطف جودة نصر، شعر عمرو الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الاندلس، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٠٢ - ١٩٨٢، ص ٢٠٣.

(١٩) ذكره الطبراني في الاوسط من حديث ابي امامة، وابو نعيم من حديث عاتكة بامنانين ضعيفين، وذكره الغزالي في الاحياء بسند ضعيف ايضا.

(٢٠) رواه الحكيم الترمذي في التواتر من رواية الحسن عن عدة من الصحابة، وبسند ضعيف.

(٢١) رواه داود بن المجد من حديث ابي هريرة في مسند الحرث بن ابي اسامة عن داود، قال الحافظ العراقي وداود هذا أحد الضعفاء.

(٢٢) د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٤.

(٢٣) عبد الرزاق الكاشاني، كشف الوجود الغر لمعاني نظم الدر وهو على هامش الديوان بشرحي البوريني والتاليسي، ج ١، ص ٢٣-٢٤.

نصوص الصوفية فهذا ابن عربي يقول: (لما كان الإنسان أول موجود بالفعل في العلم واسمه العقل، وثاني موجود بالتفاعل واسمه المعقول، وثالث موجود بالمعرفة في الفاعلية وللشهود واسمه للعاقل، فهو للعقل والعاقل والمعقول، وجبت خلافته عن الله تعالى ونبأته عنه في الابانة لسائر المخلوقات ودلالته عليه في جميع التجليات وأشارته اليه في جميع الظهورات)<sup>(٢٤)</sup> وعلى ذلك فإن الحقيقة المحمدية عند الصوفية: (أول مخلوق لأن حقيقته كانت موجودة في الهباء وهو أول الخلق فلما تجلى بنوره إلى ذلك الهباء والعالم فيه بالقوة، قبل منه كل شيء على حسب قربيه من النور، ولم يكن أحد أقرب اليه من حقيقته (ﷺ). فكان مبدأ ظهور العالم وأول موجوده)<sup>(٢٥)</sup> ويرى جولد تسبير: (أن فكرة انطباع صور المصطفين في العرش قد أتت من تصورات يهودية، حيث تقول الهجادا في إحدى الروايات وإن صورة الانسان الموجود بالجزء الأعلى من العرش السماوي، هي صورة يعقوب التي رفعت إلى عرش الله، والملائكة الذين يصعدون وينزلون على سلم السماء يعرفون في وجه الرحالة النائم للصورة السماوية الأولى (حزقيال ١-٢٦)<sup>(٢٦)</sup> والحق أن رؤى الصوفية للحقيقة المحمدية تختلف تماماً عن ما يقرره جولدستبير فلقد فهم الصوفية سبق محمد (ﷺ) لأنهم في الوجود والخلق وتأخره عنه في الظهور من خلال بعض النصوص مثل قوله تعالى (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم)<sup>(٢٧)</sup>.

وحديث " أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر كل ذلك يجعل للصوفية مسند إسلامي في هذا الفهم وليس يهودياً. (ولعل للصوفية قد أدركوا وجه المفارقة في كون نبوته عليه السلام كانت قبل آدم مع أنه لا حق عليه في الظهور وهي تبدو في شكل- مفارقة السابقة واللاحقة أو الأول والآخر، وهي مفارقة يبررها مذهبهم في الوجود، لأن الوجود عندهم له حقيقة ومعنى في عالم الخيب، وله ظهور وشهادة وصورة هي في تمام التطابق مع المعنى، وبعبارة أخرى يقولون إن للوجود مبدئين، مبدأ الوجود بالقوة، ومبدأ الوجود بالفعل أو الوجود على هيئة الامكان والوجود على هيئة الواقع، ومعنى ذلك إن الوجود الخارجي للنبوة وهو الوجود الفعلي الواقعي في العالم، مجرد مظهر لصورة هذا الوجود في العلم الإلهي القديم)<sup>(٢٨)</sup> والذي ننطق فيه مع جولدستبير هو أن نبوة الروح الأعظم بحسب ما يراه الصوفية أنها (ذات حركة دورية في مسار

(٢٤) ابن عربي، مرآة المعالي في ادراك العالم الإنساني، مخطوط بدار الكتب برقم (٣١) مجاميع، ص ٢٩٣.

(٢٥) د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

(٢٦) جولدستبير، العناصر الأفلاطونية والقوسية في الحديث، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، ط ٣، ١٩٦٥، ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢٧) سورة الاحزاب، الآية ٧.

(٢٨) د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٥.



التاريخ ينطبق فيها الطرفان، وتلتحم البداية بالنهاية. التي هي ختم النبوة، فنبوته (ﷺ) ممددة للكل وظاهرة فيه على شكل أدوار تتكرر، لأنها نبوة الروح الأعظم<sup>(٢٩)</sup> كذلك يرى الصوفية بحسب جولتسيهر (إن الخلاف بين الانبياء لم يكن إلا في المظهر الخارجي، أما في الحقيقة فإنه رسول واحد بعث إلى العالمين في أزمنة مختلفة وفي مظاهر جسمانية متباينة كي يعلن للناس إرادة الله ويلبثهم بمشيئته)<sup>(٣٠)</sup> ويرى ابن الفارض أن هذه الكلمة المتمثلة في الحقيقة المحمدية يمكنها الاتحاد بروح الصوفي ويعبر عن هذا الاتحاد بالآيات الآتية:

وقد جاءني مني رسول عليه ما عنت عزيز بي حريض لرافتي  
ومن عهد عهدي قبل عصر عاصري إلى دار بعث قبل انذار بعثة  
إلي رسولا كنت مني مرسلأ وذاتي بأياتي علي استقلت<sup>(٣١)</sup>

ومن هذه الآيات تستدل على أن نهاية طريق الصوفي هو الوصول إلى ذلك النور والتكلم بلسانه، (فالنور المحمدي عندهم هو الروح الإلهي الذي نفخ الله منه في آدم، أو شيء أشبه بالعقل (Nous) الذي قال به افلاطون وعنده أول الفيوضات التي صدرت عن "الواحد الحق" وأشبه بالكلمة الإلهية التي ذكر بعض الغنوصيين المسيحيين أنها تظهر بصورة الانبياء، وأنها مصدر الوحي، ولكن للنظرية الإسلامية في "الكلمة الإلهية" نظرية متعددة الصورة، منصبة إلى حد كبير بالصيغة الصوفية)<sup>(٣٢)</sup> أن صعوبة فهم النظرية الصوفية في الكلمة تظهر في تمييزهم بين الصورة الجسدية المحمدية وبين الحقيقة المحمدية (ولذا يتعذر فهم تفاصيلها في أغلب الأحيان على الرغم من وضوح معالمها الرئيسة فمحمد أو بالأحرى الحقيقة للمحمدية- لا الصورة المحمدية الجسدية- هو مبدأ الحياة ومركزها في العالم، فهو بهذا المعنى روح كل شيء وحياته، وهو من جهة أخرى الوسطة بين الله وعباده، والمنبع الذي يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه، وتصل إليهم منه العطايا والملح الإلهية)<sup>(٣٣)</sup>

إن الرسول الذي أشار إليه ابن الفارض هو (الروح الكلية التي أرسلتها الذات الاحدية إلى النفس الكلية بآيات صفاتها وأسماءها وحقيقة النفس والروح وغيرها هي الذات النازلة إلى المراتب محجبة بحجب التعينات، ووصف الرسول بالشفقة والحرص

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٦.

(٣٠) جولتسيهر، العناصر الافلاطونية والقيصرية في الحديث ضمن كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، ص ٢٣٥.

(٣١) د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٦.

(٣٢) نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ١٥٩.

(٣٣) نيكولسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص ١٥٩.

لأن الروح شقيقة على النفس حريص بتربيتهما لما بينهما من التلازم والتعاضد الأزلي، وحكى بلسان الجمع عن هذا المقام فأخبر أنه رسول مرسل منه إليه، فالذات باعتبار التجرد والابتداء تكون مرسلًا، وباعتبار تلبسها بلباس النفس تكون مرسلًا إليها فهي رسالة أزلية قبل الميثاق وقيل العناصر وتعلق الروح بالجسم<sup>(٢٤)</sup> وفي ذلك إشارة إلى (أن هذه النبوة هي صورة الروح الأعظم ومظهره)<sup>(٢٥)</sup>.

وقد يعبرون الصوفية: (عن الحقيقة المحمدية بصاد (صاد) لأنه صورة الحق)<sup>(٢٦)</sup>، أما الأحاديث التي اعتمدها الصوفية في وصف الحقيقة للمحمدية بالعقل والروح الأعظم والنور، والقبضة النورانية، مثل حديث "إن الله قبض قبضة من نوره وقال لها كوني محمداً فكانت"، وحديث "أول ما خلق الله نوري" جاءت متطابقة مع فهم الصوفية للحقيقة للمحمدية على أنها (الكلمة الإلهية).

أما الأحاديث السالفة فلقد تأولها للصوفية بشيء من الذوق وضرب من الحس (والقبضة عندهم هي التعيين الذاتي لا يوصف بقبولية ولا بعدية، والمراد بهذا التعيين ظهور الحقيقة للمحمدية في نفسها ومراتبها، والتعيين لا يوصف باتصال ولا بانفصال أو لقطاع، بل ذلك كله عبارة عن تعيين الغيب من غيبة في عينه والكيونة المشار إليها في الحديث ليست على معناها الوضعي، بل المراد بها خطاب التعيين نفسه في نفسه فالأمر بالنسبة للتعين للصادر عن أن لا تعين)<sup>(٢٧)</sup>.

وخطاب للتعين الصادر والأمر عن أن لا تعين هو الكلمة والمعنى المتجسد في الحقيقة المحمدية التي عبر ابن الفارض بلسان هذه الحقيقة بقوله:

واهل تلقى الروح باسمي دعوا إلي	سبيلي وحجوا الملحدين بحجتي
وكلهم عن سبق معالي دائر	بدائرتي أو وارد من شريعتي
واتي وإن كنت ابن آدم صورة	فني فيه معنى شاهد بأبوتي
ونفس على مجر التجلي يرشدها	تجلت وفي مجر التجلي... تربت
ولا تحسبن الأمر عني خارجاً	فما ساد إلا داخل في عبودتي
ولو لاي لم يوجد وجود ولم يكن	شهود ولم تعهد عهد... بنمتي
فلاحي إلا عن حياتي حياته	وطوع مرادي كل نفس... مريده
ولا أقل إلا بلفظي محدث	ولا أنظر إلا بأنظر... مقلتي

(٢٤) در عاظم جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢٥) الكاشاني، كشف الوجوه الغر، ج ٢، ص ٧٩-٨٠.

(٢٦) كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني، اصطلاحات الصوفية، مخطوط بمكتبة الأزهر برقم (٦٤٠٩) في أربعين ورقة ضمن مجاميع.

(٢٧) أبو بكر بناتي، مدارج السالكين إلى ملك الملوك، ط ١٣٣٠ هـ، في تعليق على الصلوات المشيشية، ص ١٥٦.

ولا منصت ولا سمعي سامع  
ولا ناطق غيري ولا ناظر ولا  
سميع سوائي من جميع الخليقة  
ظهرت بمعنى عنه بالحسن زينتي<sup>(٣٨)</sup>  
المطلب الثالث - الكلمة بمعنى الانسان الكامل

لقد اتخذت الكلمة عدد للصوفية معاني كثيرة ومتعددة ولكنها تدل على شئ واحد هو المخلوق الأول واصل الوجود والواسطة بين الله تعالى ومخلوقاته، وهذا المخلوق يقابل الحق من جهة ويقابل الخلق من جهة أخرى فهو انسان في مقابلته الحق وكامل في مقابلته للخلق فقد اصطلح عليه الصوفية (الانسان الكامل) وعليه فالانسان الكامل عند الجيلي هو: (صورة كمال الذات الازلي التخليد.. وخليفة الله الذي اشارت اليه الايات)<sup>(٣٩)</sup> ويريد بذلك قوله تعالى (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة)<sup>(٤٠)</sup>، وقد وصف عبد الكريم الجيلي هذه المرتبة قال:  
فباني اياها بغير تلؤل كما لها اياي والحق واسع<sup>(٤١)</sup>

ان مقابلة الانسان الكامل للحق تتضح عندما تظهر الصفات الالهية فيه وهذه الصفات السبع هي (الحياة-العلم-الارادة-القدرة-الكلام-السمع-البصر) والتي يتلوهها الجيلي بأنها السبع المثاني في قوله (ولقد اتيك سبعا من المثاني)<sup>(٤٢)</sup>. وهذه الصفات للذاتية يسميها الجيلي بـ (امهات للظهور)<sup>(٤٣)</sup>. وسوف نعرض رأي الجيلي في تجلي بعض هذه الصفات الالهية في الانسان الكامل وهي مترابطة.

فالحياة هي صفة الله تعالى وهو الحي وحياته هي الحياة التامة التي لا يلحقها الموت والفناء (والانسان الكامل تظهر فيه "الحياة" بصورتها التامة فهو موجود وجوداً حقيقياً لا اضافياً، فهو الحي التام الحياة)<sup>(٤٤)</sup> وفي العينية يقول:  
(وجسمي للأجسام روح مدبر وفي نر منه الاتم جوامع)<sup>(٤٥)</sup>

(٣٨) د. عاطف جودة نصر، شعر عمر بن الفارض، ص ٢٠٧.  
(٣٩) عبد الكريم الجيلي، الكهف من الرقيم في شرح بسم الله الرحمن الرحيم مخطوط بمكتبة البلدية الاسكندرية، برقم ١٧٨٦ د/تصوف نسخة ضمن مجموعة، ورقة ٢.  
(٤٠) سورة البقرة، الآية ٣٠.  
(٤١) عبد الكريم الجيلي، النادر العينية، نشر د. يوسف زيدان مع شرح التابلي، البيت ٤٨٥.  
(٤٢) سورة الحجر من الآية ٨٧.  
(٤٣) عبد الكريم الجيلي، شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الابواب المغلقة من العلوم الدنية، مخطوط برقم ٨١٣٧٩ د/تصوف بمكتبة البلدية، الاسكندرية، ورقة ١٨ أ.  
(٤٤) عبد الكريم الجيلي، الانسان الكامل في معرفة الأمواخر والاولاء، مطبعة صبيح بالازهر، ١٩٦٠، ج ١، ص ٤٢.  
(٤٥) عبد الكريم الجيلي، النادر، البيت ٤٩٣.

لما العلم (الله هو العليم، والعلم صفة نفسية لازمة للحياة)<sup>(٤٦)</sup> ويتفق الجيلي مع ابن عربي في أن (لا يجوز القول بأن المعلومات اعطته-تعالى-العلم من ذاتها فإن ذلك يلزم أن يكون قد استفاد من غيره تعالى عن ذلك... وكما أن الإنسان الكامل مظهر للحياة التامة التي تقوم عليها كل حياة، فهو كذلك مظهر العلم التام، الذي يعلم منه كل عليم، فالإنسان الكامل لا يحجب عنه شيء)<sup>(٤٧)</sup> وأشار الجيلي إلى نفس المعنى في العينية حيث يقول:

واعلم ما قد كان في زمن مضى وحالاً وأدري ما أراه مضارع)<sup>(٤٨)</sup>  
والارادة: وهي (تجلي أمر الله على حسب ما يقتضيه علمه وحكمته... والاراد كما هي صفة ذاتية للحق، فهي كذلك صفة ذاتية للإنسان الكامل فهو يفعل ما يشاء)<sup>(٤٩)</sup> ويصور هذا المعنى في بيت شعري رائع في العينية فيقول:

وأجري على لوح المقادير ما أشاء وبالقلم الاعلى فكفي بارع)<sup>(٥٠)</sup>  
والقدرة التي هي (إبراز المعلومات واختراع الأشياء من العدم إلى الشهود على حسب ما يقتضيه علمه المحيط بالعدم والشهود... أو إيجاد المعدم على ما يقتضيه العلم الالهي. وتظهر القدرة في الإنسان الكامل بتمامها وتنجذب الموجودات إلى امتثال أمره، كما تنجذب الابرة إلى جيل المغناطيس، فهو متصرف تماماً في الأشياء)<sup>(٥١)</sup> وإلى نفس المعنى يشير في قصيدته فيقول:

أصور مهما شئت من عدم كما أقدر مهما شئت وهو مطووع)<sup>(٥٢)</sup>  
وأما مقابلة الإنسان الكامل للخليفة وأثبت التوازي والمباشرة بين الإنسان والكون فإن الصوفية يستندون إلى بيت شعر ينسب إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وفيه:

"وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى للعالم الأكبر"  
فهذا الإنسان هو خليفة الله (والخليفة لا بد أن يكون موصوفاً بجميع الصفات الالهية إلا الوجوب الذاتي، ومتحقفاً بكل اسمائه ليعطي مظاهر الاسماء كلها ما

(٤٦) يوسف زيدان، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٨ - ١٩٨٨، ص ٨٧.

(٤٧) عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، ج ١، ص ٤٤ بتصرف.

(٤٨) عبد الكريم الجيلي، التلذذات ١: ٥.

(٤٩) عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، ج ٢، ص ٤٨.

(٥٠) عبد الكريم الجيلي، التلذذات ٣٠: ٥.

(٥١) عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، ج ٢، ص ٤٨.

(٥٢) عبد الكريم الجيلي، التلذذات ١٦: ٥.

بطلبونه، ويوصل كل منهم إلى كماله، وإلا لا يقدر على الخلافة وإنما "تبدنا إلا الوجوب الذاتي" إذ به يمتاز "الواجب" عنه، بإمكانه يمتاز "الخليفة" عن "الواجب" (٥٢). وهذا الإنسان الكامل (يقابل الحقائق العلوية بلطافته ويقابل الحقائق السلبية بكثافته، ويقابل العرش بقلبه والكرسي بانيته وسورة المنتهي بمقامه والقلم الأعلى بعقله واللوح المحفوظ بنفسه، ويقابل العناصر بطبعه والهيولي بقابليته، والبهاء بحيز هيكله، ويقابل الفلك الاطلس برأيه والفلك المكوكب بمدرسته، ويقابل السماء السابعة بهيمته والسادسة بوهمه والخامسة بهمه، والرابعة بفهمه والثالثة بخياله والثانية بفكره والأولى بحافظته) (٥٤)، ويقابل أيضاً الأفلاك العلوية وعناصر الطبيعة فهو (يقابل زحل بالقوى اللامسة والمشتري بالقوى الدافعة والمريخ بالقوى المحركة، والشمس بالقوى الناطرة والزهرة بالقوى المتلذذة وعطارد بالقوى الشامة والقمر بالقوى السامعة، ويقابل النار بحرارته والماء ببرودته والهواء برطوبته والتراب بيبوسته) (٥٥) فهذا الإنسان بالنسبة إلى مراتب الوجود (فهو آخر مراتب للتزلات ثم شرع الإنسان يترقى منه ، وفيما تنزل فيه من المراتب الوجودية، منترجاً، سالكاً على مراتب الوجودية، إلى أن يرتقي ويصل إلى المبدأ الأول وعلة العلل الذي بدأ منه أولاً) (٥٦).

أما عن العوالم الخارجية (فأول العوالم في الوجود الخارجي، هو عالم العقول والنفوس المجردة، المسمى بعالم الجبروت-ثم عالم المثال المطلق، الذي لكل (موجود) من الموجودات المجردة وغير المجردة، فيه صورة مثالية، مدركة بالحواس الباطنية، ويسمى بعالم الملكوت-ثم عالم الملك الذي هو العرش والكرسي والسموات والعناصر وما يتركب منها) (٥٧)، وهذه العوالم الثلاثة الجبروت، والملكوت والملك هي (صور ما في العلم الالهي من الاعيان الثابتة، المعساة بالماهيات الممكنة والحقائق) (٥٨) وهذه الماهيات والحقائق تتجلى كلها في الإنسان الكامل لو العقل الأول (وهذا للعقل الأول المشار إليه، هو الروح المحمدي صلوات الله وسلامه عليه-كما اشار إليه بقوله (أول ما خلق الله نوري) وفي رواية (روحي)، وذلك باعتبار اتصاف روحه بالكلية) (٥٩) ويرى الجيلي (أن الله خلق روح محمد من ذاته، فجعله مظهراً لكمالهِ وجماله وجلاله،

(٥٢) داود القيصري ، المقدمات على شرح التائية الكبرى ، تحقيق : عثمان يحيى ، كتاب الحكمة المتعالية في الاسلام ضمن كتاب نصوص فلسفية لم تنشر ، د. عثمان امين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ ، ص: ٢٧٤- ٢٧٥ .

(٥٣) عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ط ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ، ص ٤٧ .

(٥٤) عبد الكريم الجيلي ، الانسان الكامل ، ص ٤٧ .

(٥٥) داود القيصري ، المقدمات على شرح التائية الكبرى ، ص ٢٣٧ .

(٥٦) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٣٨ .

(٥٨) داود القيصري ، المصدر السابق ، المقدمات على شرح التائية الكبرى ، ص ١٢٨- ٢٣٩ .

ثم خلق العالم بأسره من روح محمد<sup>(١٠)</sup> فالإنسان الكامل هو (أصل الوجود، أو هو القطب الذي تدور عليه رحي الوجود من أوله إلى آخره)<sup>(١١)</sup> وبعد هذا الفهم للكلمة على أنها الإنسان الكامل وإن هذا الإنسان هو (الحق، وهو الذات وهو الصفات، وهو العرش، وهو الكرسي، وهو النوح، وهو القلم، وهو الملك، وهو الجن، وهو السماوات وكواكبها والارضون وما فيها)<sup>(١٢)</sup>.

وبعبارة الجيلي فإن الإنسان الكامل هو (الحق وهو الخلق، وهو القديم، وهو الحادث فله در من عرف نفسه معرفتي لياها، لأنه عرف ربه لمعرفته لنفسه)<sup>(١٣)</sup>. وخلاصة كل هذه الأقوال إن الإنسان الكامل (هو محمد ﷺ) والباقيون من الأنبياء والأولياء، ملحقون به لحوق الكامل بالأكمل<sup>(١٤)</sup>. وهذا اللفظ كما يرى الجيلي (لا يجوز إلا لمحمد ﷺ) إذ هو الإنسان الكامل بالاتفاق... واسمه الأصلي محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله ولقبه شمس الدين)<sup>(١٥)</sup>.

#### المطلب الرابع: الكلمة بمعنى المطاع في نظرية الغزالي

إن الغزالي من الشخصيات التي تميزت في الفكر الإسلامي وذلك أنه كان متكلماً "شعرياً" وفيلسوفاً ناقداً للفلسفة وصوفياً عز نظيره، وفي الحقيقة أنه بالرغم من أن الجمع بين هذه الأمور يبدو جيداً إلا أنه لا يخلو من نشوء أيضاً. وبالرغم من أن العلوم الثلاثة هدفها الوصول إلى الحقيقة. إلا أن الطرق والمناهج مختلفة، فما يقول به الفلاسفة قد لا يكون مقبولاً عند المتكلمين والصوفية لتضاربه مع النص مثلاً مما يؤدي إلى الإخلال بقواعد العقيدة والإيمان. وما يقول به للصوفية في مجال المعرفة الذوقية قد لا يكون مقبولاً عند الفلاسفة والمتكلمين لأنه لا يخضع للعلم البرهاني فهو لا يلزم إلا صاحبه، وما يقول به المتكلمين قد لا يكون مقبولاً عند الفلاسفة والصوفية. لأن أسباب العلم عندهم موقوفة على الوحي والخبر الصادق والعقل، والحواس، بل إن الغزالي يرى (أن مذهب المتكلمين جملة وتقصيلاً أو هام لا توصل إلى اليقين)<sup>(١٦)</sup>، في حين أن الكشف والمشاهد، أسباب لا يمكن للصوفي لا يتجاوزها وإن كانت لا تلزم غيره (إلا أنها عنده علوم يقينية، وكذلك الاثر في الفلاسفة الاشرافيين الذين يعتبرونه سبباً للمعرفة يتأتى عن طريق الرياضة والمجاهدة. والغزالي في تناوله

(١٠) عبد الكريم الجيلي، الكهف والرقم، ورقة ٥ أ.

(١١) عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، ج ٢، ص ٤٦.

(١٢) يوسف زيدان، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ص ٩٣.

(١٣) عبد الكريم الجيلي، مراتب الوجود وحقيقة كل موجود، مكتبة الجندي، القاهرة، (د ت)، ص ٤٢.

(١٤) د. يوسف زيدان، الفكر الصوفي عند عبد الكريم الجيلي، ص ٩٣.

(١٥) عبد الكريم الجيلي، الإنسان الكامل، ج ٢، ص ٤٧.

(١٦) د. حسام الألويسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ١٤٠٠ - ١٩٨٠، ص ٢٤٩.

لمعنى الكلمة يبقى متحيراً بين شخصياته الثلاثة، فهو في نظرية المطاع لا يستطيع ان يتجاوز موقفه. كمكتلم شعري فقد اخذ نظرية الاشاعرة في الكلمة ولكنه توسع في تفسير الآية التي اعتمدها الاشاعرة في نظريتهم التي لا بد من ذكرها بايجاز باعتبارها مقدمة لنظرية الغزالي في المطاع لقد قال الاشاعرة: (ان من كلام الله كلمة التكوين والامر الالهي وانهم امسثهدوا بالآية {ألا له الخلق والأمر} <sup>(٦٧)</sup> على ان الامر قديم "وهو من كلام الله" لأن الله تعالى يستعمله في مقابلة الخلق : فكان لله عالمين عالم الخلق وهو العالم المحسوس وعالم الامر وهو العالم المعقول او العالم الروحي) <sup>(٦٨)</sup> ويذكر الدكتور عفيفي ان الغزالي (قد تناول نظرية الاشاعرة من بعدهم.. فتوسع فيها بعض التوسع وصيغها صبغة فلسفية تصوفية وانتهى بها إلى نظرية في "الكلمة" <sup>(٦٩)</sup> أما الاستاذ نيكولسون فهو يميل إلى الاعتقاد بأن نظرية الغزالي في (المطاع " تتفق مع نظريات المتأخرين من الصوفية: وان المطاع يمثل الصورة المثالية التي يسمونها الحقيقة المحمدية او الروح المحمدي: الانسان السماوي الذي خلقه الله على صورته، ويعتبرونه قوة كونية يتوقف عليها نظام العالم وحفظه) <sup>(٧٠)</sup>.

والمطاع اللفظ الذي يعتبره الدكتور عفيفي غريباً اذ لم يستعمله إلا في مشكاة الانوار حيث يقول: ("والمطاع" كلمة غريبة لا ادري اذا كان الغزالي يستعملها في أي مؤلف من مؤلفاته عدا "مشكاة الانوار") <sup>(٧١)</sup> في حين يرى الاستاذ نيكولسون ان (الغزالي استعار اسم المطاع من القرآن حيث ورد قوله تعالى {إل اطيعوا الله والرسول} <sup>(٧٢)</sup> الخ من الايات التي لها أهميتها في نظرية المسلمين في "الكلمة" والذين يعرفون اللغة العربية منكم يعلمون ان كلمة "المطاع" اسم مفعول من أطاع: والأمر منها "اطيعوا" الواردة في الآية، فالأمر الإلهي الوارد باطاعة الرسول يقتضي في نظر كل مسلم ان الرسول هو المطاع) <sup>(٧٣)</sup> بينما يرى الدكتور حسام الالوسي (ان الغزالي يريد بالواصلين اتباع المدرسة الفيضانية، وان "المطاع" هو العقل الأول الذي هو اول ما يفيض عن الله) <sup>(٧٤)</sup>، ويستدل على ذلك من قول الغزالي في المشكاة (ان هذا "المطاع" موصوف بصفة تنافي للوحدانية للحضة والكمال البالغ، لمر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه... وان نسبة هذا المطاع إلى الوجود الحق (وهو الله) نسبة الشمس إلى النور المحض او نسبة

(٦٧) سورة الاعراف ، الآية ٥٤ .

(٦٨) ابو العلا عفيفي ، نظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص ٤٣ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(٧٠) نيكولسون ، في التصوف الاسلامي ، ص ١٤٧ .

(٧١) ابو العلا عفيفي ، نظريات الاسلاميين في الكلمة ، ص ٤٣ .

(٧٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٢ .

(٧٣) نيكولسون ، في التصوف الاسلامي ، ص ١٤٧ - ١٤٨ .

(٧٤) د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

الدار إلى جوهر النار الصرف ، فتوجهوا من الذي يحرك السماوات ومن الذي امر بتحريكها فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما لركه بصر الناظرين وبصيرتهم، إذ وجده منزه ومقدس عن كل ما وصفناه من قبل<sup>(٧٥)</sup> ويفسر الالوسي هذا النص بأن المراد من المطاع هو العقل الأول فيقول: (هذا المطاع عندي هو العقل الأول عند الفيضيين وهو ليس واحداً لأنه ممكن بذاته، ولجب الوجود بغيره)<sup>(٧٦)</sup>.

وفي الوقت الذي يقدم الالوسي تفسيره لكلام الغزالي في المطاع نجده ينتقد الدكتور عفيفي في فهمه لنص الغزالي السالف بأن (المطاع لا محالة كلمة شديدة الارتباط بالأمر كما شخصه الاشاعرة حتى صار موجوداً له صفات غير صفات الوجودانية المحضة والكمال البالغ الذي لله)<sup>(٧٧)</sup> فيقول الالوسي (ومن هنا يبدو غلط عفيفي في مقدمته للمشكاة حيث اختلط عليه الأمر وشوش على قارئه كثيراً ، وخلص إلى أن المطاع هنا ليس العقل الأول وإن الغزالي لا يشير إلى نظرية الفيض بحجة انه نقضها في كتابه (التهافت)<sup>(٧٨)</sup> وأنه إنما يصدر عن فكرته الاشعرية أي رأي الاشاعرة في كلام الله)<sup>(٧٩)</sup>. والدكتور عفيفي يتساءل: (فهل يعني الغزالي "المطاع" العقل الإلهي الظاهر أثره في الوجود، الساري في جميع المخلوقات: أي تلك القوة العاقلة التي تدرك عن طريق أفعالها وآثارها والتي بها يتصل الإنسان بطريق الوحي والالهام؟ وإذا كان كذلك "المطاع" هو الكلمة (Logos) ونظرية الغزالي نظرية إسلامية في "الكلمة" لا شك فيها فيكون "المطاع" على هذا أشبه شيء "بالخلقة" أو "البرزخ")<sup>(٨٠)</sup>.

ومن خلال النظر في الآراء السالفة الذكر يتبين أن هناك ثلاثة آراء في أصل نظرية الغزالي في "المطاع" وهي:

١. يرى الأستاذ نيكولسون أن أصل نظرية الغزالي في المطاع مرتبط بآراء الصوفية "المطاع" عند الغزالي بحسب رأي نيكولسون هو السروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية، أو العقل، أو الإنسان الكامل المتمثل بشخصية النبي محمد (ﷺ) حيث يقول: (فالأمر الإلهي الولد باطاعة الرسول يقتضي في كل مسلم أن الرسول هو "المطاع")<sup>(٨١)</sup>.

(٧٥) الغزالي ، مشكاة الأنوار ، طبعة القاهرة ، ١٣٢٢ ، ص ٥٤ - ٥٦ .

(٧٦) د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي ، ص ٢٤٧ ، الهامش (٢١) .

(٧٧) أبو العلا عفيفي ، نظريات الإسلاميين في الكلمة ، ص ٤٥ .

(٧٨) أبو العلا عفيفي ، مقدمته في تحقيق كتاب مشكاة الأنوار للغزالي ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٧ و ٢٩ .

(٧٩) د. حسام الالوسي ، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي ، ص ٢٤٨ .

(٨٠) أبو العلا عفيفي ، نظريات الإسلاميين في الكلمة ، ص ٤٥ - ٤٦ .

(٨١) نيكولسون ، في التصوف الإسلامي ، ص ١٤٨ .



٢. رأي الدكتور عفيفي الذي يخلص إلى أن أصل نظرية الغزالي في "المطاع" هو أصل كلامي، بل هو امتداد لنظرية الإشاعة في (أن من كلام الله كلمة التكوين والأمر الإلهي... ولكنه بالفعل يقصد بالمطاع شيئا أشبه بالأمر الإلهي الذي مثلته الإشاعة وجعلت منه شخصية لها القوة على الخلق والتدبير)<sup>(٨٢)</sup>.

٣. رأي الدكتور الألوسي والذي يقضي بأن أصل نظرية الغزالي في "المطاع" أصل فلسفي فيضي فهو يرى: (أن الغزالي يريد بالواصلين اتباع المدرسة الفيضانية، وأن "المطاع" هو العقل الأول الذي هو أول ما يفيض عن الله)<sup>(٨٣)</sup>، ويستدل على ذلك بأن هذا المطاع (موصوف بصفة تنافي الوجدانية المحضة)<sup>(٨٤)</sup> والعقل الأول عند الفيضيين (ممکن بذاته واجب بغيره)<sup>(٨٥)</sup>.

ونص إلى ما يخلص إليه من القول (هذا المطاع عندي هو العقل الأول عند الفيضيين)<sup>(٨٦)</sup> وأرى أن المسألة ممكن أن تسوى بين الآراء الثلاثة باعتبار النتيجة فيما إن الصوفية يرون أن العقل أو الروح المحمدي أو الحقيقة المحمدية وهو المراد بالمطاع وهو بالنتيجة شيء بين الله أو الكون وهو الكلمة وأن نظرية المتكلمين في أن الأمر الإلهي أو للقوة العاقلة أو البرزخ أو الخليفة هو المراد "بالمطاع" وبالتالي فهو شيء بين الله والكون وهو الكلمة. وإن رأي الفلاسفة في أن العقل الأول هو المراد بالمطاع وهو الوساطة بين الله ومخلوقاته، فهو بالمحصلة شيء بين الله والكون وهو الكلمة، وإن كنت أرجح رأي الأستاذ نيكولسون لما له من شواهد كثيرة في كتب الغزالي كالأحياء، والمنفذ وغيرها. إلا أنني لا أرى ضير من التوفيق بين الآراء حيث أنها تدل كلها على أن "المطاع" هو شيء بين الله والكون وأنه الكلمة التي بها ابتدأ الوجود.

## الخاتمة

لقد استمدت الفلسفة الإسلامية بعض الأفكار من ثقافة الحضارات القديمة التي سبقت الإسلام ومن خلال ما عرضناه من تناول الصوفية لمدلولات للكلمة توصلت إلى النتائج الآتية:

- (٨٢) د. أبو العلا عفيفي، نظريات الإسلاميين في الكلمة، ص ٤٣.  
 (٨٣) د. حسان الألوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.  
 (٨٤) الغزالي، مشكاة الأنوار، تحقيق: أبو العلا عفيفي، القاهرة، ١٩٦٤، ص ٨٩.  
 (٨٥) ينظر الفارابي، رسالة زيتون الكبير، حيدرآباد ١٣٤٩، ص ٦، وكذلك ابن سينا، النجاة القسم الثالث، ص ٤٥٣، والشفا قسم الإلهيات، ج ٢، ص ٤٠٦.  
 (٨٦) د. حسان الألوسي، دراسات في الفكر الإسلامي، ص ٢٤٧، الهامش (٣٧).

ان الصوفية في الاسلام اهتمت وتوسعت في عرض مدلولات الكلمة مما ادى إلى اختلاف في التعبير عن هذا اللفظ، كما ان تعدد معاني الكلمة في الفكر الصوفي وان اختلفت فإنها تدل على شيء واحد وهو مبدأ الوجود وأساس الخلق والمادة الاولى والواسطة بين الخالق وبين الخلق، فهذا المخلوق الأول له نسبة يقترب بها من الخالق باعتباره صادر عنه ونسبة اخرى يقترب من المخلوق باعتباره اساساً لوجوده فهو اول الخلق، ولكن الاختلاف في مدلولات الكلمة في الفكر للصوفي ناتج عن اختلاف نظرة الصوفي إلى هذا الشيء فمنهم من نظر إليه باعتبار الطريق الموصل اليه، ومنهم من نظر اليه باعتبار وجوده كاكمل ما في الوجود، ومنهم من نظر اليه باعتبار حقيقته الممدة لكل الموجودات بالوجود، والحياة، والعلم. ومنهم من تناوله باعتباره روح الشريعة. ومنهم نظر اليه من ناحية قدسيته، وهناك من اطلق عليه الفناء وذلك باعتبار الطريق الموصل اليه، ومنهم من اطلق على الكلمة معنى الانسان الكامل باعتبار وجوده كاكمل موجود، وقسم اخر اطلق على الكلمة معنى الحقيقة المحمدية وذلك باعتبار حقيقة الممدة لكل الموجودات والحياة والعلم.

وقسم اخر جعل الكلمة بمعنى المطاع وذلك باعتبارها روح الشريعة وهو الروح المحمدي لإقتران طاعته بطاعة الله تعالى (واطيعوا الله والرسول)، وقسم اعتبر العقل الاول هو دلالة للكلمة وذلك باعتبار قدسيته.

## البطل-دراسة في تاريخ المفهوم فلسفياً

المدرس المساعد

صباح جودي نصيف<sup>(٢)</sup>

## المقدمة

منذ ان وجد الانسان على هذه الارض، اخذت تتصارع نزاعات عدة ونظرات ورؤى وتوجهات، يبحث فيها عن الأمل، فالأمل، لأن ذلك يشكل عنده هاجساً أحاط به من كل جانب نتيجة مآشاهه من تناقضات على أرض الواقع المعاش. فأخذ يبحث عن كل ماهو خال من العيوب والتناقضات والصراعات التي لاتقضي الا الى الفساد والتحلل والظلم. ولكن وجد ان هذا لايقوم الا بتولفر جملة أمور ذات أهمية قصوى لديه أولها وجود المخطط-الموجه-المنفذ في مثل هذه اللحظات لأن الانسان، بطبعه كما يرى الفلاسفة، اجتماعي مدني لن يوفر لنفسه كل مايريد إلا بمعونة الآخرين من بني جنسه ومعاضدتهم اذ ان هذا التأزر كثيراً مايقود الى التناقض والتحارب فيما بين البشر وسيادة ماهو غير صالح ولا أخلاقي على ماهو صالح وخير وفاضل أحياناً.

فجاء اهتمام الانسان بموضوع المنفذ، الملهم، الشجاع البطل جزءاً من نظرية الانسان الكونية السياسية الاخلاقية التربوية، وظل هذا الرمز شاعراً لكل فلسفة وحكمة وشريعة. اذ ان البحث عنه سمة لازمة وجدلية لمسيرة الانسان عبر التاريخ ومن ثم فقد شكل موضوع البطل ثروة فكرية وفلسفية عميقة ومديداً في الحضارات الانسانية عامة وفي رموزها خاصة اذ لاندح حضارة انسانية ضاربة جذورها في أعماق التاريخ الا ونجد للبطل والبطولة مكانها فيه سواء في سماته وخصاله أو في صورته المتخيلة لدى شعوب هذه الحضارات وشرائعها الدينية والدينية وثقافتها.

كل هذا، قادنا الى البحث في أهمية هذا المفهوم وابعاده الفلسفية والفكرية والاخلاقية لاهميته حاضراً ومستقبلاً. اذ وجد الباحث ان البطل يشكل مهمازاً وموجهاً في لحظات الخطوب والازمات والتناقضات والتناحرات التي يمر بها شعبنا الآن مما حدا به الى ان يدرس هذا الموضوع دراسة علمية فلسفية (نظرية وتطبيقية) لاهميته وللكشف عن بنية البطل ودوره في التاريخ والحضارة من جانب، ولتقديم تصور علمي لهذا الموضوع من جانب آخر، عليه سيعمد كاتب هذه السطور إلى تناول المحاور

<sup>(٢)</sup>كلية الآداب -الجامعة المستنصرية.

الآتية (البطل لغة وأصطلاحاً، البطل صانع للتاريخ، سمات البطل وخصاله، إعداد البطل وتنشئته عند الفلاسفة).

#### المحور الأول - البطل والبطولة:

البطل (The Hero) والبطولة (The Herosim) هي أحد أهم الموضوعات التي شغلت الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع وفضلاً عن المؤرخين والسياسيين، ذلك لما يشكله من أهمية مركزية في فهم صيرورة التاريخ والعوامل الفاعلة المؤثرة في بنية المجتمع ونظمه السياسية وقيمه الخلقية ورويته الاجتماعية. إذ إن عظماء الأمم علامات مضيئة في دنيا الابداع الفكري لما عرفوا به من شمولية وسعة افق حتى أصبح كل منهم ارسناً للإنسانية جمعاء<sup>(١)</sup>. إذ هناك من أرجع نظرية (البطل) أو (الرجل العظيم) إلى عهد الاغريق الذين أرسوا قواعدها واخذوا بها فمثلاً نجد الفيلسوف اليوناني جورجياس (٣٧٥ق.م) أشار إلى فكرة البطل القومي بقوله: "القوي هو السائد والمسيطر على الضعيف لأن مظهر الحياة هو تغلب الاقوى وهذا التغلب هو طريق الانسان في كشفه عن سعادته، ومهما يكن فلا تخلو العصور الحديثة من مواقف تتوافق مع هذه النظرية الجادة خاصة في (فكرة البطل) أو عبادة الانسان المنقوق الكامل"<sup>(٢)</sup>. كما سادت هذه النظرية وطغت على تفكير الرومان في التاريخ ومن ثم بقيت حتى القرن التاسع عشر لها تأثيرها الواضح في الاحداث التاريخية<sup>(٣)</sup>. ولهذا عدت من النظريات البارزة التي اثير حولها جدل وتأويل كبيران بين المؤرخين والمفكرين وفلاسفة التاريخ، ولاسيما التساؤلات التي اثيرت بصدد اعطاء الأولوية (للفرد) أم (المجتمع) في صنع الاحداث التاريخية والحضارية، كما اختلفت التأويلات حول مفهوم (الرجل العظيم) وحول ما اذا كان بالامكان عده رمزاً للقوانين التاريخية أو أنه دليل عليها أو تعبير عنها أو أداة لها أو نتيجة منبثقة عنها، ومع هذا فإن هذه التأويلات تقر بوجود خصائص تميز (الرجل العظيم) من غيره من الرجال العاديين الذين يحفل بهم التاريخ<sup>(٤)</sup>.

بينما أرجع آخرون نظرية للبطل ومنشأها إلى الفكر العراقي القديم والمتمثل بملحمة كلكامش، ذلك البطل الاسطوري الذي نظرت إليه كل الادبيات القديمة على أنه البطل المميز للذي ادى دوره الرئيس في توطيد اركان مملكته في أور الكلدانية، وإن

(١) د. علي حسين الجابري: قراءة معاصرة لأراء اهل المدينة الفاضلة، بحث مستل من العدد ٣، مجلة زانكو العلمية الانسانية، طبعة الجامعة السليمانية، نيسان ١٩٧٧، ص ٢.

(٢) د. جعفر آل ياسين: فلاسفة يونانيين من طاليس إلى سقراط، ط ٢، بيروت ١٩٧٥، ص ١٦٤.

(٣) حسين فوزي النجار: التاريخ والسير، (ب.ط.) القاهرة ١٩٦٤، ص ٢٦ وما بعدها.

(٤) سني هوك: البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، مراجعة انيس فريجة، المؤسسة الاهلية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩، ص ٢٨، وإن الحديث عن مميزات أو خصائص البطل سيأخذ منا مجالاً نشير إليه في ثلثنا هذا الفصل.

كانت هناك نصوص تشير الى استخدام كلمة (الرجل العظيم) في الحضارة السومرية قبل ملحمة كلكامش، إذ ان في هذه الحضارة ظهر لقب (لوكال Lugal) ومعناها الحرفي (الرجل العظيم)، وقد غدا منصب للرجل العظيم وراثياً ويستمد سلطاته من الآلهة<sup>(٥)</sup>، ويعني هذا ان الفكر العراقي للقديم كان ملماً بالماما جيداً بمفهوم البطل والبطولة ودورهما في توطيد اركان الدولة وتنظيم المجتمع وقيادته وتوجيهه<sup>(٦)</sup>.

ولهذا اختلفت الآراء في تحديد دور (البطل) لومهمته في التاريخ فيما اذا كان قائداً عسكرياً او مفكراً او مصلحاً اجتماعياً او فيلسوفاً او حاملاً رسالة سماوية (نبياً) او فرداً يتصف بالمواهب العبقريّة أو ممن يجمع هذه الصفات، إذ اشار (هوك) في تحليله للبطل مفهوماً وممارسة عبر التاريخ الى انه صانع الاحداث بقوله: "الرجل الصانع للاحداث هو [رجل الاحداث] لكن افعاله هي نتائج طاقات وملكات وذكاء حاد وأرادة قوية وشخصية بارزة اكثر مما هي لنتائج حوادث عارضة ناجمة عن مركزه، وبهذا التميز يحاول (هوك) ان يبين بأن البطل هو عظيم ليس فقط بسبب مايفعل ولكن بفعل سجاياه وماهيته"<sup>(٧)</sup>، وهي الدفاع عن الارض والخود عن الحرائر، هي الكرم والنخوة والمرؤة والصبر والجلد وقوة الشكيمة، هي المبادرة والقرار الشجاع، هي العدالة والرجولة والشرف، هي للتحدي والتعرض والاقترام والاستبسال دفاعاً عن الحق، هي الاخلاص والوفاء والايمان الراسخ بقيم الارض وقوانين السماء، هي التمييز بين الرجال في افضل سجاياهم والحضور المطمئن في ساعات الشدة، والجود بالنفس في سبيل الحق، وبأختصار انها صناعة المجد<sup>(٨)</sup>.

عليه، سنحدد هنا، مفهوم البطل كما ورد لدى اللغويين والاصلاحيين اللغويين يضعون، تحديداً دقيقاً لمعنى البطل، إذ يحدد عددهم من الشجاعة وهو الذي يبطل الأقران والعظماء<sup>(٩)</sup>. ومن هنا نفهم ان اللغويين عندما حددوا معنى البطل ربطوه بمعنى الشجاعة، لأن الشجاعة عددهم هي من شدة القلب عند البأس<sup>(١٠)</sup>. ويقال للقوم الاندباء: شجعان، فالشجاعة (هيئة حاصلة للقوة الغضبية فهي (وسط) بين التهور والجبن وبها يقدم (المرء) على امور ينبغي ان يقدم عليها للقتال<sup>(١١)</sup>. إذ وردت هذه الفكرة لدى

(٥) د. عبد الرضا الطعان: الفكر الميساسي في العراق القديم، ج ١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨١، ص ٢١٥ وما بعدها.

(٦) ارنولد توينبي: بحث في التاريخ، ترجمة طه باقر، ج ٢، (ب ط)، بغداد ١٩٥٥، ص ١٨٠٠.

(٧) سيني هوك: المصدر نفسه، ص ١٥٢-١٨٠.

(٨) سيني هوك: المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٩) لويس مطوف: الملجد في اللغة والأدب، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٠ م، مادة (بطل)، ص ٤٢.

(١٠) محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨١، مادة (شجاعة)، ص ٣٣٠.

(١١) علي بن محمد الحسيني الجرجاني: التعريفات، مطبعة الباهي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨، ص ١١٠.

الفلاتون (ت ٣٤٧ ق.م) من قبل في كتابه الجمهورية: ففي حديثه عن الشجاعة يقول: إنها فضيلة وسط بين التهور (الانتفاع) من جهة والجبن من جهة أخرى، فهي وسط بين الإفراط والتفريط<sup>(١٢)</sup>. في حين يذكر مع لفظ البطل، البطلان وهو خلاف مرادنا إذ وجده اللغويون أنه من البطل أي الهدر والضياح أو عدم الاعتقاد<sup>(١٣)</sup>. وهنا يتبين مدى تداخل لفظ البطل مع ألفاظ أخرى تؤدي إلى المعنى ذاته عند من حدد هذا المعنى من اللغويين.

أما البطل اصطلاحاً :

فهو قرين البطولة، والبطولة (The Herosim) هي صفة البطل والتي تشمل على الشجاعة، والسماحة والاحكام الامور، والنظام، ورباطة الجأش في الملمات، وصلابة العود، وشدة القلب، واحتقار الموت، والشهامة<sup>(١٤)</sup>.

فالبطولة إذن تتمثل في الملاحم بتمثيلات تؤهلها للقيام بأفعال خارقة للعادة من خلال مؤهلات البطل، ولهذا يقال عن البطل من الرجال، شجاع، والبطلة من النساء، شجاعة، ولاسيما ان (ملحمة كلكاش) خير دليل على ذلك، وهذا مما وضحنه انفاً، إذ تضم الكثير من القصص، ويرجع بعضها إلى أيام السومريين، أي ما قبل السيد المسيح بنحو (٢٧٠٠ سنة)، ومن هذه القصص النص البابلي الذي كان بطله (كلكاش) إذ كان حاكماً حقيقياً لاوروك، أي (الوركاء)، ومن هنا نلاحظ ان البطل يتخذ مكانة التقديس عند قومه من خلال أسباغ آيات العظمة عليه، سواء في حياته أو بعد موته. أما عند اليونانيين فوصل الأمر حد العبادة لأهبتهم وإبطالهم، فقد يكون هذا البطل واقعياً أو من صنع الخيال الشعبي، إذ كانت طقوس عبادة الأبطال تقام عادة حول قبر البطل، وأحياناً تقام لبعضهم في كل مكان<sup>(١٥)</sup>، ولهذا اتخذ البطل عنصراً خلاقاً للعالم، فتاريخ المجتمع يحال إلى سير الشخصيات العظيمة و(عبادة البطل)، هذا ما يقدمه توماس كارلايل (ت ١٨٨١م) في كتابه (الأبطال وعبادة البطل والبطولي في التاريخ)<sup>(١٦)</sup>، إذ كانوا يقفون أمام البطل مذهولين، كأنما يخفي في دواخله قوى خفية، وفي رأيهم ان

(١٢) الفلاتون: الجمهورية، ترجمة حنا خباز، ط٣، ٦، القاهرة ١٩٢٨، ص ١٤٧.

(١٣) أبو الفضل جمال الدين ابن منقور: لسان العرب، ط١، مجلد ١٣، دار صادر، بيروت ١٣٠٠ هـ، مادة (بطلان)، ص ١٣.

(١٤) د. جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج١، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٨٢، مادة (بطل وبطولة)، ص ٢١٢.

(١٥) اشرف محمد شفيق غريال: الموسوعة العربية الميسرة، دار القلم وفراكتين للطباعة والنشر، (ب)ت ص ٣٧٨ وكذلك: الرازي، مختار الصحاح، مادة (بطولة) ص ٤٧. وقارن: علي خيون، تاملات في تفسير التاريخ ودور الأبطال في حركته، مجلة الموقف الثقافي، دار الشؤون الثقافية، العدد ٣٤، بغداد ١٩٩٦، ص ٣٤ وما بعدها.

(١٦) توماس كارلايل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، دار الرائد العربي، ط٤، بيروت ١٩٨٢، ص ١ وما بعدها.

هذه القوى مكنته من الأتيان بالخوارق في البسالة والقتال، فهذه الخوارق لا تنفد عند نجاحه من القتل فحسب ، بل تمتد الى نجاحهم معه، نجاه تجعلهم يشعرون بالقوة، كونه هو الذي يهبهم الحياة ، ومن أجل ذلك عبده<sup>(١٧)</sup>، إيماناً بعظمته لأنه يوفر حماية لاواعية ضد أي تهديد، بعده الصورة المكملة والموازية والمعوضة للسلطة فيظهر رمزاً وحاملاً للأمل الشعبي ومساعداً على تحقيق وإعادة التوازن للذات الفردية المنجرحة، وهنا تظهر سعادة البطل من خلال تأمينه لمساعدة قومه بنصرهم وحمايتهم والعطف عليهم، إذ يتحقق ذلك من خلال دورين متكاملين يقوم بهما البطل وهما:

١- دور يخدم ذاته، لكنه يشارك بعدئذ في عملية تنقيح وتطوير للكل، بعد أن تغلب على أعدائه.

٢- دور يظهر فيه البطل، كونه منفذاً لشعبه في أحلك المواقف، كونه يمتلك قدرات كاريزمية (Charismatique)<sup>(١٨)</sup>.

فالْبطل هو ذلك الانسان الذي يدرك بإحساسه المرهف وذكائه اللوفاً وعبقريته النادرة مطامح مجتمعة وأمنيته، كونه الذي يسعى لهذه المطامح ويكافح لتحقيق هذه الاماني، ولاسيما أن الآخرين يرون فيه ما كانوا يبحثون عنه وما يتوقون للحصول عليه، لأنه ممثل أمني المجموع وطلبتهم في كفاحهم من أجل ملتهم العليا وأهدافهم السامية، فمن الطبيعي أن ينبثق للبطل من أعماق المجموع بعد أن يتمثل بأحاساسه المرهف وأدراكه العميق كل أحاسيس المجتمع الذي هو فيه ويستوعب أفكاره وحاجاته وآماله<sup>(١٩)</sup>. فضلاً عن ذلك فإن البطولة هناك من يفهمها على أنها الجراءة أو الشجاعة والقيام بالأعمال الخارقة واجتياز العقبات ، وإذا قبلنا بهذا المفهوم للبطل فيترتب على ذلك أن نجرد معنى البطولة من المضمون الفكري، وأن نجعلها مجرد شكل من أشكال السلوك الفردي، ولاسيما أن نظرة مثل هذه للبطولة لا يمكن قبولها مطلقاً إذ يتساوى فيها دعاة للرجعية، ودعاة للتقدم، كون البطولة ليست نوعاً من السلوك فحسب أو صفة لأعمال جريئة يقوم بها هذا أو ذاك من الناس، بل أنها أعمق من ذلك بكثير، كونها فكرة وعمل، بل أكثر من ذلك: (فكرة نبيلة وعمل جبار)، فهي بطولة ضد الشر، ضد

(١٧) د. شوقي ضيف: البطولة في الشعر العربي، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٨، ص ٩ وقرن: محمد الطاهر الجبري، البطل عبر التاريخ، مجلة الثقافة العربية الليبية، العددان (٨ و٩) لسنة ١٩٨٨، ص ٧٣.

(١٨) د. علي زهير: الاتا الاعلى في الذات العربية - البطل في التصوف والاثروبولوجيا والفنون والاحلام، مجلة آفاق عربية، دار الشؤون الثقافية، العدد ٥، بغداد ١٩٨٠، ص ٢٨-٢٩ وراجع: بصند الكاريزما، ديتكن ميشيل، معجم علم الاجتماع، ترجمة د. أحسان محمد الحسن، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨٠ ص ٦٠-٥٩.

(١٩) صلاح خالص: البطولة في الادب العربي بعد ظهور الاسلام، مجلة الفكر، طبع الشركة التونسية: العدد ٥، لسنة ١٩٥٩، ص ١٢.

الفساد، ضد الرذيلة، ضد الرجعية خاصة لأنها بطبيعتها تقدمية، لذلك فإن الركن الاول من أركانها، هو الايمان بالتطور، الايمان بضرورة تحقيق شيء جديد فيه الخير للمجتمع أو الايمان بمثل عليا تقيد الآخرين.

اما الركن الثاني: فهو العمل النثوب الجريء الحكيم لتحقيق هذا الخير أو هذا المثل الاعلى والاستعداد للتضحية، فالتضحية هنا ليست ان يستعد الانسان للانتحار، وانما ان يضحي بمصلحته الخاصة، في سبيل مصلحة للمجموع<sup>(٢٠)</sup> - لأن البطل لا يكون جريئ الجنان مستعداً للتضحية الا اذا كان مؤمناً بعقيدة من العقائد أو بهدف من الاهداف لان الأمم العظيمة، فعلاً هي الامم التي استمدت عظمتها من عظمائها، ثم حققت درجة اعلى وارقى، وصورة اصفى وانقى، ورتبة اجدى وأوفى من العظمة بتعظيمها المتجدد الدائم للعظماء والشهداء والابطال من لبنائها البررة الامناء الاوفياء للشراف<sup>(٢١)</sup>، فالبطل في أي مجتمع واي عصر أو دولة مطلوب لانه هو المنقذ لهم عندما تشتت الخطوب والازمات والاهوال لأنه يمسك بدفة السفينة\* ليدبرها ويقود المجتمع نحو الخلاص الذي ينشده. إذ نجد ان موضوع البطل والخصال (المزايا) التي يتمتع بها قد جعلت الفلاسفة عامة وفلاسفة التاريخ خاصة يضعونها له بموجب ما رواه من تصرفات للبطل عبر التاريخ لما تركوه لنا في تراثهم، ولاسيما ما يخص الجانب السياسي التاريخي وهذا مانجده في مؤلفات الفلاسفة اليونانيين وخاصة عند افلاطون في كتاب الجمهورية<sup>(٢٢)</sup>، فضلاً عما نجده عند فلاسفتنا المسلمين كالفيلسوف ابي نصر الفارابي (ت ٩٥٠م) في كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة<sup>(٢٣)</sup>، وابن رشد (ت ١١٩٨م) في كتابه تلخيص السياسة<sup>(٢٤)</sup>، ولايتعد ذلك عن الموقف الفلسفي الحديث المتمثل بمكافيلي (ت ١٥٢٧م) وجان جاك روسو (ت ١٧٧٨م) وهيجل (١٨٣١م)<sup>(٢٥)</sup>، لذلك ان هذا الاهتمام بالبطل عند الفلاسفة لم يكن ليقيم لولا حضور

(٢٠) صلاح خالص: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٢١) حازم طالب مشتاق: المنهج الفلسفي للرفض العربي، مطبعة جامعة بغداد، بغداد ١٩٧٧، ص ٨.

\* يشبه ابن رشد الرئيس البطل بربان السفينة الحائق، ينظر ابن رشد: تلخيص السياسة، (وهو تطبيق على كتاب الجمهورية لافلاطون) نقله الى العربية د. حسن مجيد العبيدي، وفاطمة الذهبي، ط ١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٩٨، المقالة الثانية، ص ١٤٤.

(٢٢) افلاطون: الجمهورية، مصدر سابق، ك ٦، ص ١٧٨ وما بعدها إذ يتحدث عن صفات البطل الرئيس للدولة وخصائصه.

(٢٣) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، حققه وقدم له البير نصري نادر، ط ١، بيروت ١٩٥٩، ص ١٠٥-١٠٨.

(٢٤) ابن رشد، المصدر نفسه، المقالة الثانية، ص ١٤٤.

(٢٥) لمزيد من التفاصيل براجع: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، ط ٤، القاهرة ١٩٦٦م.



الازمات الفكرية والسياسية والقيمية امامهم في العصر الذي عاشوا به فكفروا بالبدليل المخلص لهم، فاستكشفوا بعقولهم النيرة مزايا هذا البطل المنقذ، ولهذا استمر الاهتمام بالبطل الرمز، والمنقذ في كتابات المفكرين والفلاسفة الى يومنا هذا، ولا يخلو أي فكر لاية أمة من ذكر البطل ومزاياه وكيفية اعداده وتربيته ليقود مجتمعه من بين صفوفه ويكون لهم المرشد والموجه (Luider)، وفي هذا فإن مفهوم البطولة يعد من العوامل الاساسية التي اعتمدها فلاسفة التاريخ بوصفها عوامل مؤثرة في حركة التاريخ وهذا مشفوع بطروحات كثيرة عند فلاسفة التاريخ في القرن التاسع عشر، ولا سيما أن الحديث عن اثر البطولة في حركة التاريخ يذكرنا بما جاء به هيغل في فلسفته المثالية بشأن حركة التاريخ إذ نجد أن تاريخ العالم لم يكن إلا عملية عقلية، وأن روح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه متخذة من العباقرة والابطال أدوات لها، فكل شعب يعول نحو المجد فإنه يعبر بذلك عن جانب من جوانب الروح العامة<sup>(٢٦)</sup>، فتاريخ التاريخ لم يكونوا الا أدوات لتنفيذ رغبات تلك القوة وأن توهما فتصوروا بأنهم يحققون غايات شخصية ولهذا كان اعجاب هيغل واضحا وعظيما ببعض هؤلاء مثل نابليون (ت ١٨٢٨م) إذ أنه يمثل في نظره وسيلة لتحقيق غاية اعظم منه. وهنا نجد أن هيغل يؤطر هذا الرجل بأطار البطولة الذي يسعى الى تحديد مسار التاريخ بموجب أوامر الروح العامة<sup>(٢٧)</sup>. وفيما بعد جاء توماس كارلايل ليكتب لنا كتابا بعنوان البطل والبطولة (The Hero and Herosim) بقلم الابطال وأفعالهم وقراراتهم التي تغير وجه التاريخ ومسيرته<sup>(٢٨)</sup>. ولم يخص كارلايل رجال السياسة وحدهم في رسم صورة البطل بل شملت البطولة عنده عدة صور كالالهة التي ظلت مدة معينة وكان موقفه رافضا لها لما لحق بها من تفسيرات رجعية اقترنت بجميع عوامل التخلف والانهطاط وكذلك اخذت صورة الانبياء والرملة وشفع ذلك بما جاء به الرسول الكريم محمد (ﷺ) في الدعوة الاسلامية وما قدمه من دور في هذه الرسالة وكذلك صور البطولة في هيئة الشاعر وجسد هذا الدور حسب رأي كارلايل كل من (دانتى وشكسبير) والصورة

(٢٦) Collins James. A history of Modern European philosophy the Bruce publishing company, 1954, p.610 .

(٢٧) هيغل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ج ١، (العقل في التاريخ) ترجمة وتقديم وتطبيق د. امام عبد الفتاح امام، مراجعة د. فؤاد زكريا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٠٣. وكذلك يراجع: د. علي حسين الجابري، فلسفة التاريخ بين هيغل ونيثشه في المصادر العربية، مجلة زانكو العلمية، الجزء (ب) للاتسائيات، مطبعة الجامعة الإسلامية، المجلد (٥)، العدد (٢)، بغداد ١٩٨٠، ص ٩٥. واحمد امين وزكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، ج ٢، القاهرة ١٩٣٦، ص ٣٧٧.

(٢٨) توماس كارلايل: الابطال، مصدر سابق، وفيه يرسم البطل عبر التاريخ ومتغيراته عبر محاضرات كارلايل في هذا الكتاب.

الأخرى التي قُسمها كارلايل للبطل هي على هيئة قسيس متمثلة عند (لوثر ونوكس) ومن صور البطولة الأخرى صورة الكاتب أو الأديب وجسده كل من (جونسون وروسو وبارنز) أما للصورة الأخيرة للبطل فهي صورة الملك الذي جسده كل من (كرومويل ونابليون) ويتغنى كارلايل بهذا البطل كما عرضه بهذه الصورة بقوله: أنه فريد، رسول من قبل عالم الغيب للإنسانية للبشر، أما ما ينطق به من كلمات ليست لأحد غيره، كلمات نابغة من جوهر الحقائق فإنه يرى باطن كل شيء، أقواله نوع من الإلهام<sup>(٢٩)</sup>.

### المحور الثاني - البطل صانع التاريخ:

وإذا ما غادرنا التحديد الاصطلاحي للمفهوم، وانطلقنا إلى ذكره في التاريخ، نجد أن الاهتمام بالبطولة والابطال كان حالة دائمة ولاسيما بعد التحرر من عبادة البطل، الذي عالجه كارلايل مع الأخذ بالحسبان تنوع وأسباب هذا الاهتمام المتخلف طبقاً لمدّة تاريخية معينة.

فمن الملامح الواضحة بشأن هذا الموضوع نجد أن هنالك اهتماماً ملموساً بالابطال وأقوالهم وأفعالهم وصل إلى درجة التعظيم، وهذا نابع من ارتباط مصير الشعوب في فترات الحروب بالظروف الصعبة التي تؤدي إلى الالتفات حول البطل، ولكن هنالك أسباباً أخرى تدعو إلى الاهتمام به خارج هذه الظروف<sup>(٣٠)</sup> (واعني به الحاجة الاجتماعية للبطولة، فمن الأسباب التي لا يمكن تجاهلها في هذا الموضوع هي عدم الاستغناء عن مفهوم الزعامة في تركيب الحياة الاجتماعية وفقاً لأي تنظيم اجتماعي على الرغم من اختلاف الرقابة عليها بين مجتمع وآخر، لكن الزعماء على الرغم من أنهم لم يكونوا مجرد رموز مشهورة للدولة فحسب بل كانوا مسؤولين ومقررين، وبين المنجزات المتحققة في ظل زعامته سواء أكانت إيجابية أم سلبية)<sup>(٣١)</sup> وثمة مصدراً آخر للاهتمام بالبطل يكشف عن الموقع الذي يحتله في التاريخ المدروس لمختلف الأمم، فقد مجد البطل في بعض الحضارات القديمة أباً للأمة كما فعل العبرانيون في تمجيدهم لإبراهيم (عليه السلام) أبي الأنبياء والمولود في أور<sup>(٣٢)</sup>. وإما الجماهير فأنها تؤمن به من قبل وصوله إلى الحكم وهذا إيمان نابع من فرط اليأس الناجم من الحاجة الدائمة له ولا شك في أن للترابط الحاصل ما بين

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١ وما بعدها. وقارن: سنن هوك، البطل في ...، مصدر سابق، ص ٢٤ وما بعدها.

(٣٠) توماس كارلايل، الأبطال، مصدر سابق، ص ٥-٢.

(٣١) محمد عباد شكري: البطل في الأدب والأساطير، ط١، دار المعرفة، القاهرة ١٩٧١، ص ١٩.

(٣٢) سنن هوك: البطل في التاريخ، مصدر سابق، ص ١٩.

الازمات الاجتماعية أو السياسية وما بين تطلعات الناس الى من ينقذهم من اثار تلك السلبية الأثر الواضح في زيادة الاهتمام بهذا البطل كونه منقذاً<sup>(٣٣)</sup>، ومن العوامل الأخرى التي تلقى بظلال الأهمية على البطل هو ان دوره ليس مجرد ظاهرة او معضلة تاريخية بقدر ما يشكل واحدة من اعظم المسائل النظرية الجذابة في التحليل التاريخي وهذا ما يقترب من قول كارلايل في كتابه "الابطال" بأن التاريخ العام، تاريخ ما أنجزه الانسان في هذا العالم في أعماقه تاريخ رجال عاشوا وعملوا في هذا العالم<sup>(٣٤)</sup>.

اذ يقدم الزعيم لاتباعه ما يطفئ نوازع حنينهم عن طريق ما ينسب إليه من مناقب ومآثر، وتشارك الجماهير بوجودها سلطة الزعيم وقوته بشكل يدخل.

أن التاريخ الذي يصفه الأبطال، ويحركونه نحو تحقيق غاياتهم وهذا ما نجده عند الفارابي الذي يقدم لنا تصوراً حول ذلك اذ أعدّ (رئيس الدولة) وسلطته العامل الأهم في حركة التاريخ (إيجابياً وسلباً)، فمتى قام الحكم على (الحكمة) و(العدالة) كان رئيس الدولة قادراً على أدراك موازين الاعتدال في القول والعمل فيصلح بصلاحه الناس وتتوفر لهم ظروف العيش في مدينة سعيدة (فاضلة) لا تتقطع عن اشراقات الماضي، وتتجاوز عقبات الحاضر الذي افتقر لشروطها بحثاً عن حل مستقبلي<sup>(٣٥)</sup>، ويرى د. الجابري أن الفارابي قدم مشروعه الإصلاحى الشامل رأي (فيلسوف التاريخ) لا المؤرخ فقد ربط المجتمع بالمقيدة، والفكر بروح الاجتماع، والرئيس بحاجات الأمة التي لاتعالج الا بحكمة قرارات المسؤولين وضمن شروط تاريخية لايمكن اغفالها، وانطلاقاً من قوة الفكر أي الحكمة جعل الفارابي الدور الإيجابي للدولة ورئاستها مشروطاً (بالحكمة) الواقعية ويسمىها بالفضيلة الفكرية<sup>(٣٦)</sup>.

والرئاسة عند الفارابي ذات ميزة خاصة تتميز بها المدن الفاضلة عن غيرها اذ أن المدن الجاهلية لامراتب فيها ولانظام، لذلك فالمدينة الفاضلة تحتاج الى تدبير وتنظيم وإلى معلم يوجه الناس نحو الرأي الصائب، ولايمكن للمدينة ان تكون صالحة عادلة اذا لم تخضع لقيادة، لذلك فالرئاسة أمر ضروري عند الفارابي بل أنها شرط

(٣٣) د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ بين هيجل و...، مصدر سابق، ص ٩٠.

(٣٤) توماس كارلايل: الأبطال، المصدر نفسه، ص ٥٢-١.

(٣٥) الفارابي: آراء أهل المدينة الفاضلة، مصدر سابق، ص ٦٨ وأيضاً: د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ في الفكر العربي المعاصر، القسم الاول، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٣، ص ١٠٩.

(٣٦) د. الجابري: المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

لازم سابق حتى على وجود المدينة ذاتها (فريش المدينة ينبغي ان يكون هو أولاً، ثم يكون هو السبب في ان تحصل المدينة واجزأوها)<sup>(٣٧)</sup>.

ولاسيما ان المدينة الفاضلة موجودة في دماغ رئيسها قيل ان توجد واقعا اجتماعياً، فهي برنامج وتخطيط، وليست نظاماً اجتماعية كون الملك - الفيلسوف هو وحده القادر على ضمان سعادة كاملة للمدينة.

لئن فالتاريخ هو من صنع الأفراد، كون الافراد هم الذين يؤثرون في الشعوب أو المجتمعات وان الابطال هم الذين يدفعون ويرفعون شعوبهم من الانحطاط الى الازدهار وصدارة الاحداث، وقد عبر توماس كارلايل في حماسة شديدة عن دور الابطال في التاريخ اذ يقول (ان التاريخ العالمي - تاريخ ما أنجزه الانسان في العالم - انما هو في صميمه تاريخ العظماء وما أنجزوه، وكل ما تم انجازه في العالم انما هو الحصيلة المادية الخارجية والتحقيق العملي والتجسيد الحي لافكار عاشت في عقول عظماء، عاشوا في هذا العالم)<sup>(٣٨)</sup>، ويحلل كارلايل عناصر العظمة فيرجعها الى ثلاثة اسباب وهي:

- ١ - الايمان بأن البطل قد اختاره الله.
- ٢ - الايمان بالجبرية التي يعبر عنها البطل برسالته.
- ٣ - ان يتحلى البطل بالشجاعة.<sup>(٣٩)</sup>

ولهذا نلاحظ ان التاريخ في نظر كارلايل مسيرة لابطال والعظماء، وسجل منقبي لاصالهم الاسطورية التي تشكل مادة ثرية لهواة كتاب السير والتراجم، ويعتقد كارلايل انه بغير العظماء ليس ثمة تاريخ فالفضل كل الفضل يعزى الى ابطال من نوع خاص كي يجعلوا للبشرية معنى ودونهم ليس الا الفوضى<sup>(٤٠)</sup>، ذلك ان العظمة هي المقوم الاساسي للشخصية التاريخية ولاسيما ان الرجل التاريخي هو الرجل الذي توصل بفضل التلاحم العضوي المصيري بين حياته الشخصية وحركة التاريخ، الى جعل التاريخ مطبوعاً بطابع عبقريته، كون ان حياة للرجال العظام في التاريخ، حياة كفاح وعناء، اكثر مما هي حياة رغد وهناء، ومن هذا نستنتج ان الشخصية التاريخية هي:

(٣٧) الفارابي، آراء اهل ...، المصدر نفسه، ص ١٢٠ وقارن: عبد السلام بن عبد العالي، الفلسفة السياسية عند الفارابي، ط٢، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١، ص ٨٥-٨٦.

(٣٨) توماس كارلايل: الابطال مصدر سابق، ص ١٠ وما بعدها وقارن: د. احمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، مؤسسة خاتبة للطباعة، مصر ١٩٧٥، ص ٦٣-٦٤.

(٣٩) د. احمد محمود صبحي: المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٤٠) عالية احمد سوسة ود. هاشم صالح التكريتي: بحث مهرجان المؤرخ توينبي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٩، ص ٢٩.

- ١- طاقة فردية مبدعة تحتاج الى رعاية وتشجيع حتى تظهر وتتمو.
  - ٢- تحتاج الى مساندة ودعم حتى تبلغ القصى إمكاناتها.
  - ٣- تحتاج الى تفاعل نقدي متعدد الجوانب حتى يتحول عطاؤها الى غذاء ونور، كون العظمة قيمة تاريخية هائلة، والرجال العظام قوة وثروة<sup>(٤١)</sup>، فضلاً عن ذلك نجد ان التاريخ لايفعل شيئاً كونه لايمتلك الثورة الهائلة ولايخوض المعارك، بينما الانسان، الانسان الحي هو الذي يفعل كل شيء وهو الذي يملك ويقاتل، فالتاريخ هو سيرة حياة الرجال العظام<sup>(٤٢)</sup>.
- المحور الثالث: سمات البطل وخصاله:

بدءاً احب ان اذكر هنا أن لفظة (خصال) هي لفظة عربية، وجدت في تراث الفيلسوف العربي الفارابي اذ ذكرها في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" بعنوان: (القول في خصال رئيس المدينة الفاضلة)<sup>(٤٣)</sup> ويعني هنا رئيس المدينة أو الدولة الذي هو البطل الرئيس<sup>(٤٤)</sup>.

وعليه سنعرض الخصال التي يتمتع بها البطل، علماً أن هذه الخصال تضم في جوانبها قوة العقل والنفس وقوة الجسم وهو ما أشار إليه الفلاسفة (افلاطون والفارابي وابن رشد) اذ يجمع هذا الاخير كل هذه الصفات في واحد، أي ان البطل عنده هو البطل الذي له قوة الجسم وقوة قدرة التفكير وان كانت هذه الخصال التي يضعها له مشتقا من الفارابي في كتابه (المدينة الفاضلة)<sup>(٤٥)</sup>، وهنا نلاحظ ان العلاقة جدلية عند ابن رشد فهي مترابطة في هذه المسألة، اذ نجده يقول: (يجب ان يكون الرئيس البطل يمتلك هاتين الخصلتين: أي القدرة على الجهاد والقدرة على الاجتهاد)<sup>(٤٦)</sup>، فهذه الصفة، صفة الجهاد لا تتأتى الا لمن هو صحيح البنية الجسمية وهو المطلوب في البطل فضلاً عن قدراته الفكرية العالية المتمثلة بالاجتهاد والحكمة العميقة، وهنا نلاحظ تشديد ابن رشد على ذلك انما هو نابع مما ذكره فقهاء السياسة والدولة في التراث الاسلامي من

(٤١) د. ناصيف نصر: الفلسفة في معركة الايديولوجية، ط١، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٢٨٣ وما بعدها.

(٤٢) ادوارد كازر: ماهو التاريخ، ترجمة ماهر كيالي وبيار عقل، ط١، بيروت ١٩٧٦، ص ٤٣.

(٤٣) الفارابي: آراء أهل المدينة ...، مصدر سابق، ص ١٠٥ - ١٠٨ وقرن: السياسة المدنية، تحقيق د. فوزي منري، تجار، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦٤، ص ٧٨.

(٤٤) د. علي حسين الجابري: فلسفة التاريخ في الفكر ...، مصدر سابق، ص ١٠٨.

(٤٥) الفارابي: آراء أهل ...، المصدر نفسه، ص ١٠٥ وما بعدها وايضاً: د. حسن مجيد العبيدي، حضور الفارابي في الخطاب السياسي لابن رشد، مجلة دراسات قومية واشتراكية العدد ٢، بغداد ٢٠٠١، ص ٩٨-١١٠.

(٤٦) ابن رشد: تلخيص السياسة، مصدر سابق، ص ١٧٧-١٧٨.

السابقين عليه<sup>(٤٧)</sup>. كما تبين فأنه من الضروري أن نهتم في الخصال التي يجب ان يمتلكها البطل والتي هي الخصال الطبيعية في الملك الرئيس<sup>(٤٨)</sup> وسنعمد على ذكر خصال الرئيس للبطل كما حددها ابن رشد إذ جمع هذا الفيلسوف هذه الخصال كما وردت عن افلاطون والفارابي مضيفاً إليها رأيه، حول البطل وأولى هذه الخصال واجدها هي:

أولاً: ان هذه الخصلة يعدها ابن رشد اجتر الخصال للبطل الرئيس وهو أن يكون محباً بفطرته لدراسة الحكمة من أجل الوصول الى ادراك الحقيقة كاملة<sup>(٤٩)</sup>.

ثانياً: كما يتمتع البطل الرئيس عند ابن رشد بصفة "أن يكون جيد الحفظ ولا يعتوره النسيان لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه"<sup>(٥٠)</sup>.

ثالثاً: ولأن العلم هو عملية الغوص على الشيء لمعرفة مكوناته واسرارها فإن ابن رشد يرى ان الرئيس البطل يجب ان يتمتع بصفة حب العلم وتحصيل العلوم بشتى أنواعها وفروعها<sup>(٥١)</sup>.

(٤٧) على سبيل المثال لا الحصر كتاب الماوردي: الاحكام السلطانية، طبعه الحلبي، القاهرة ١٩٦٦، ص ٣ وما بعدها.

(٤٨) ان (ملك) ابن رشد متطابق مع (الرئيس الاول) عند الفارابي، وان كل الخصال التي يضعها ابن رشد له مأخوذة من الفارابي في كتابه المدينة الفاضلة، ص ١٠٥ وما بعدها. حتى من دون تعديل بأية صورة وكذلك نجد ان ابن رشد ايضاً يتبع افلاطون في تلك عند تلخيصه للجمهورية وتطبيقه عليها.

(٤٩) ابن رشد: تلخيص السياسة، مصدر سابق، ص ١٤٠ ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة (مصدر سابق)، ص ١٢٧، "ان يكون بطبع جيد الفهم والتصور لكل مايقال له، فيلقاه يفهمه على ما يقصده القائل وعلى حب الامر نفسه" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، مصدر سابق، ٦ (٤٨٥)، ص ١٤٦، ويقارن: رسائل اخوان الصفا وخلائ الوفاء، ج ٤، (د. ط)، دار صادر، بيروت ١٩٥٧، ص ١٢٩، ويقارن: ابن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، ضمن الفلسفة السياسية عند ابن أبي الربيع، تحقيق د. ناجي التكريتي ط ٢، دار الاندلس للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ٩٤-٩٣، "ان يكون له القدرة على جودة التخييل... وان يكون جيد الفهم والتصور لما يقال له... ويقارن ايضاً: ابن سينا، رسالة في الاخلاق السياسية، ط ٢، (ضمن مقالات فلسفية) نشرها لويس ميخو و(آخرون) المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١١، ص ١٥٣.

(٥٠) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص ١٢٧ "ان يكون جيد الحفظ لما يفهمه ولما يراه ولما يسمعه ولما يدركه وفي الجملة لا يكاد ينساه" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ٦ (٤٨٦)، ص ١٤٧، كذلك ابن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، المصدر نفسه "ان يكون جيد الحفظ لما يراه ويسمعه ولا ينسى ما يدركه من العلم".

(٥١) ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص ١٢٨ "ان يكون محباً للتعليم والاستفادة مثقال له سهل القبول لا يؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيهِ الكد الذي ينال منه" ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ٦

رابعاً: ويشدد ابن رشد على واحدة من أهم الخصال التي يتمتع بها الرئيس البطل وهي خصلة حب الصدق وإهله وكراهية الكذب وإهله "لأن الذي يحب الصدق يحب الحق والذي يحب الحق لا يكذب ورجل هذه خصاله لن يكذب أبداً" (٤٢).

خامساً: ويشدد ابن رشد أيضاً أن يكون البطل الرئيس مبعضاً للذات معرضاً عنها، فمخصص تسعى رغباته إلى العلم لا يسعى إلا إلى اللذة التي تتمتع بها النفس وحدها ذلك أن البطل لو كان يسعى إلى طلب اللذة والانتعاش فيها فإنه لن يحظى بأي احترام وقبول لمن هم من معيته بل وتتحول السمعة الأخلاقية التي قلنا عنها الشجاعة والعفة التي هي من خصاله وهذا لا يناسب البطل (٤٣).

سادساً: ويرى ابن رشد أيضاً أن يكون البطل للرئيس غير محب للمال لأن المال هو غاية كل رغبة وحال كهذه لا تلائم هؤلاء الرجال. لأن المال مفسدة بطبعه لمن يرغب بجمعه والاكثار منه بل هو أصل التحاسد والتباغض بين الناس فكيف إذا كان البطل يميل إلى جمعه وهو أمر يرفضه ابن رشد رفضاً قاطعاً لارتباط المال بالأخلاق والقيم الخلقية في المجتمع ولأن به تشتت الذم والنفس لأن بطل ابن رشد يجب أن يكون عظيمًا عبقريًا كبيرًا في كل شيء (٤٤).

---

(٤٧٥)، ص ١٣٦، أيضاً ٦٤ (٤٨٥)، ص ١٤٦، كذلك يقارن: أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وغلان الوفا، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٢٩. ويقارن: ابن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، المصدر السابق، ص ٩٤ "أن يكون محباً للتعليم والاستفادة منقاد سهل القبول لا يؤلمه تعب للعلم".

(٤٢) ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، يقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص ١٢٨ "أن يكون محباً للصدق وإهله مبعضاً للكذب وإهله، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ٦٤ (٤٨٥)، ص ١٤٦.

(٤٣) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٤٠، ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر نفسه، ص ١٢٨ "متجنباً للعب مبعضاً للذات الكائنة هذه"، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ٦٤ (٤٨٥)، ص ١٤٦، وفي هذه الصفة يذهب ابن رشد إلى افلاطون معتمداً عليه إذ يقول: "فتمت تحول التيار نحو العلم بكل فروعه حامت رغبات المرء حول الذات العقلية هاجرة الذات التي محورها الجسد، وهذا إذا كانت محبة للحكمة حقيقية لا مصطنعة" ويقارن: ابن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، المصدر نفسه، ص ٩٤ "مبعضاً لما ساءت عاقبته من الذات".

(٤٤) ابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، المصدر السابق، ص ١٢٨ "أن يكون الدرهم والدينار ووسائل أغراض الدنيا هبة عنده"، ويقارن: افلاطون، الجمهورية، المصدر نفسه، ٦٤ (٤٨٥)، ص ١٤٦، ويقارن: أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وغلان الوفا، المصدر السابق، ج ٤، ص ١٣٠ "أن يكون الدرهم والدينار ووسائل أغراض الدنيا هبة عنده رآه فيها"، ويقارن: ابن أبي الربيع، سلوك الملك في تدبير الممالك، المصدر السابق، ص ٩٤. "أن يكون عنده الدينار ووسائل أغراض الدنيوية الفانية".

سابعا: ويؤكد ابن رشد ان يكون البطل الرئيس كبير النفس<sup>(٥٥)</sup>. لان الرجل الذي يطلب معرفة كل شيء. ولم يرد من هذه المعرفة نفعاً أو غرضاً هو كبير النفس بالطبع، ولهذا فإن نفسه للناطقة لا ترى بادئ الرأي في هذه الحياة الدنيا شيئاً بحسب له.

ثامناً: يركز ابن رشد على واحدة من الخصال التي يجب أن تتوفر في البطل الرئيس الا وهي خصلة الشجاعة، بقوله: "ان يكون شجاعاً، لا يصرفه عن الحق خوف أو يثني عزيمته مرض أو لذة أو اكراه"<sup>(٥٦)</sup>.

فالشجاعة مطلوبة في البطل لان من لم يكن شجاعاً لم يستطع أن يقهر خصمه وعدوه ولم يستطع ان يقود اهل دولته نحو كل ما هو خير، لان الشجاعة هي فضيلة خلقية تتوسط كما يقول ابن رشد بين التهور والجبن وأن الأمسك بها هو امسك باهم خصلة جسمية وفكرية وعقلية لأي انسان، ولهذا يشدد ابن رشد كثيراً على مسألة الشجاعة ويربطها بنقيضتها اللذة وغيرها من الصفات المرذولة كما أشرنا الى ذلك آنفاً.

تاسعاً: ان يقبل على ما يراه خيراً بملء عزيمته، مثل العدل وسائر الفضائل الاخرى<sup>(٥٧)</sup>. وفي هذا الصدد نلاحظ ان مسألة تحقيق العدالة للمجتمع والفرد امر واجب ومحتم على البطل، وامر كهذا يعد مركزياً لسمات البطل وخصاله

(٥٥) ابن رشد: تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٨، "ان يكون كبير النفس محباً للكرامة، تكبر نفسه بالطبع عن كل ما يشين الأمور، وتسمو نفسه بالطبع الى الارتفاع منها" ويقارن: الفلاطون، الجمهورية، ٦، (٤٨٦)، ص ١٤٦، ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلقان الوفاء، ج ٤، ص ١٣٠، "ان يكون كبير النفس عالي الهمة محباً للكرامة تكبر نفسه عن كل ما يشين من الأمور ويشع وتسمو همة نفسه الى ارفع الأمور رتبة واعلاها درجة.

(٥٦) ابن رشد: تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٩ "ان يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي ان يفعل، جسوراً عليه مقدماً غير خائف ولا ضعيف النفس"، ويقارن: الفلاطون، الجمهورية، ٦، (٤٨٦)، ص ١٤٧، ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلقان الوفاء، ج ٤، ص ١٣٠، "ان يكون قوي العزيمة على الشيء الذي يرى أنه ينبغي ان يفعل، جسوراً مقدماً غير خائف ولا ضعيف النفس"، ايضاً يقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك وتبدير الممالك، ص ٩٤ "ان يكون قوي العزيمة على ما ينبغي غير خائف من الموت ولا ضعيف النفس".

(٥٧) ابن رشد، تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٨ "ان يكون بالطبع محباً للعدالة واهله ومبغضاً للجور والظلم واهلها... ويؤتي من حل به الجور موافقاً لكل ما يراه جسناً وجميلاً، ثم ان يكون عدلاً غير صعب الفياض..." ويقارن: الفلاطون، الجمهورية، ٦، (٤٧٩)، ص ١٤١، وايضاً ص ١٤٧، ويقارن: ابن ابي الربيع، سلوك المالك في تبدير الممالك، ص ٩٤، "ان يكون محباً للعدل والصدق واهلها مبغضاً للجور والكنب واهلها مناصفاً من نفسه"، ويقارن ابن سينا، رسالة في الاخلاق، ص ١٥٣.



ولهذا لا نجد بطلاً عظيماً يولد في رحم أمه، ان لم يكن شعاره تحقيق العدالة لاهل دولته، وابن رشد يرى أن مسألة تحقيق العدالة والعدل ترتبط بالحكمة والعلم، وهي الخصلة الأولى من خصال البطل التي ذكرها ابن رشد. عاشراً: ان يظل بليغاً حسن العبارة جيد الفطنة، قادراً على اقتناص الحد الاوسط بأيسر ما يمكنه ذلك<sup>(٥٨)</sup>. هذه هي الخصال<sup>(٥٩)</sup> الواجب توفرها في البطل. كما يضيف ابن رشد صفة أخرى الى صفات البطل الرئيس وهي ان تتوفر فيه الخصال الجسمانية والعقلية وهي قوة النفس والجسد<sup>(٦٠)</sup>. المحور الرابع: اعداد البطل وتنشئته عند الفلاسفة

يقول افلاطون انه من الممكن ان يقوم دستور<sup>(٦١)</sup>، بشرط ان يكون الملك<sup>(٦٢)</sup>، هو الفيلسوف الذي اشرنا إليه في المحور السابق الا أنه في خصاله هو البطل المنقذ، اذ إنه هو الذي يضع الدستور ويحافظ عليه فيما بعد، ولهذا فإن الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وعلى الاخص ابن رشد) قد بدأوا اولاً بالحديث عن طبيعة هؤلاء الابطال ونوع التعليم الذي يحصلون عليه، ولكن قبل الحديث عن كيفية اعداد البطل الرئيس كما يحراه الفلاسفة الذي اشرنا إليهم، لابد أولاً من ذكر كيف نظر هؤلاء الى المجتمع الانساني وفتاته (شرائحه)، وكيف يظهر من بينها البطل الرئيس لـ يقوم المجتمع

(٥٨) ابن رشد، تلخيص السياسة، ص ١٤١، ويقارن: الفارابي، آراء اهل المدينة الفاضلة، ص ١٢٧، "ان يكون حسن العبارة بوائيه اللسان على أياته كل ما يضره ابانة تامة"، ويقارن: اخوان الصفا، رسائل اخوان الصفا وخلق الوفاء، ج ٤، ص ١٢٩، "ان يكون حسن العبارة بوائيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ"، ويقارن ابن ابي الربيع، ملوك الممالك في تدبير الملوك، ص ٩٤ "ان يكون حسن العبارة بوائيه لسانه على أياته جميع ما في ضميره".<sup>(٥٩)</sup> نلاحظ ان هذه الشروط عند الفارابي (خصال) وعند اخوان الصفا هي (اكتمال لوضع الشريعة) ونجدها عند ابن ابي الربيع بمثابة (فضائل).<sup>(٦٠)</sup> ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ١٤٢.

(٦١) افلاطون: الجمهورية، ك ٥، (٤٧٤ ج)، ص ١٣٦.

(٦٢) ان لفظة (ملك) لم ترد عند افلاطون في الجمهورية بل هي لفظة ذكرها كثيراً الفارابي في مؤلفاته، انظر: حيدر آباد، تحصيل السعادة، نشرة (الهند) لسنة ١٩٤٥ هـ، ص ٢٢ اذ يقول (واسم الملك يدل على التسلط والاقتدار، والاقتدار التام هو ان يكون اعظم الاقتدارات قوة... ولذلك صار الملك على الاطلاق هو الفيلسوف واضع النواميس) - (والناموس) لغة معناه صاحب السر المطلع على باطن الأمر، (انظر: مادة (نمى)، مختار الصحاح، ص ٦٨٠ وسوف نمتصّل هنا مقابل لفظة (ناموس)، لفظة (ديتور) الا انها تختلف عنها بعض الشيء، فالدستور: هو القاعدة التي يعمل بها أو السجل الذي تجمع فيه قوانين الملك، وان سبب اختيارنا لفظة (دستور) بدلا من (ناموس) هو ان لفظة (ناموس) تدل على معنى رسالي سماوي، أما لفظة (دستور) لغوياً فتعني قانوناً وضعياً يضعه الملك أو الرئيس لقيادة الدولة وهو "مجموع القوانين الاساسية التي تبني شكل الدولة ونظام الحكم فيها وتحدد العلاقات بينها وبين الافراد...". يراجع: ابن رشد، المصدر نفسه، ص ١٣٧ مع حواشيه.

الإنساني عندهم، مجتمعاً كاملاً من خلال سد الحاجات الأساسية له وذلك بتعااض وتعاون افراد المجتمع فيما بينهم إذ إن كل واحد منهم يعمل بحرفة ومهنة تساعد على قيام هذا المجتمع، ولهذا فإن الإنسان كائن منني بالطبع<sup>(١٣)</sup>. والمجتمع عند هؤلاء الفلاسفة يتألف من ثلاث شرائح أو طبقات، هي طبقة الحرفيين من العمال والفلاحين والصناع وطبقة الحراس من الجنود وطبقة الحكام أو القادة أو الرؤساء.

إن هذه الطبقات عند هؤلاء الفلاسفة لها منظور ووسائل وآليات تربوية سواء ما يخص تنمية المدارك العقلية أو تنمية القوى الجسمية وإن كانت كلها تشترك في أنها ينبغي أن تتعلم الرياضة لتقوية الجسد، والموسيقى لتهديب النفس، إلا أنه فيما بعد يخصص هؤلاء الفلاسفة لكل شريحة أو طبقة نمطاً تربوياً خاصاً بها وبما أن حديثنا خاص عن كيفية اعداد البطل الرئيس الذي يولد من رحم هذا المجتمع فأنا سنشير الى هذه العملية في الاعداد له وإن كانت متداخلة مع الشرائح الأخرى.

ولهذا نجد أن معظم الفلاسفة يضعون هدفاً يسعون اليه من خلال بحثهم ودراستهم لمجمل القضايا الفلسفية وخاصة ما يتعلق بعصرهم وبيئتهم وإن تحقيق ما يسعون اليه لابد من أن يتم عبر مدة ومراحل تدريجية كما من شأنه الوصول إليه، كذلك الحال فيما يتعلق بالتربية في الدولة عند ابن رشد مثلاً وغيره من الفلاسفة المسلمين إذ يرون أن قيام الدولة ونظامها السياسي والاجتماعي والاخلاقي لا يمكن أن يحقق الهدف والنتائج الإيجابية إلا بوضع نظام تعليمي وتربوي وتدريبى يتناسب وطبيعة البيئة الموجودة والعصر الذي يظهر فيه البطل<sup>(١٤)</sup>، ولهذا عدّ هؤلاء الفلاسفة التربية شرطاً أولياً أساسياً لقيام المدينة أو الدولة. فقد وضع هؤلاء الفلاسفة برنامجاً مفصلاً في التربية لأفراد الدولة الذي يسعون من خلاله الى تحقيق السعادة والخير الأسمى وأرساء دعائم وأسس متينة تقوم عليها الدولة ويلاحظ أن للفلاسفة العرب المسلمين أكثر من غيرهم قد وضعوا واهتموا بالتفاصيل في هذا الجانب الذي يعدون أساساً وشرطاً رئيساً في انجاح الاهداف التي رسموها لايجاد مجتمع قاضل.

وكما ذكرنا أن هؤلاء الفلاسفة يؤكدون أن افراد الدولة يجب أن يتلقوا تربية خاصة قائمة على قواعد رصينة ومتينة وقد أسهب هؤلاء الفلاسفة في الحديث عنها فلهذا نراهم يؤكدون أن غرس الفضائل التربوية واجتثاث الرذائل إنما يتم بطريقتين

(١٣) افلاطون: الجمهورية، ٤، مصدر سابق، وايضاً: ارسطو، السياسات، (د ط)، نقله من الاصل اليوناني الى العربية الاب اوغسطينيس بربارة، اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية، بيروت ١٩٥٧، المقالة الاولى، والفارابي: آراء أهل المدينة...، مصدر سابق، ص ١١٠-١١٦. وابن رشد: تلخيص السياسة، مصدر سابق ص ٦٨.

(١٤) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الأولى: يسميها (غرس الاقتناع في نفوسهم من خلال الاقوال الخطابية والشعرية وهذا جزء من العلوم النظرية للتأملية الخاصة بكتاب الجمهور)<sup>(١٥)</sup>.

أما الطريقة الثانية: فهي نظر هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، وأرسطو ٣٢٢ ق.م، والفارابي، وابن رشد)<sup>(١٦)</sup> فيممنونها بطريقة (للقسر والإكراه) وهذه نلجا إليها إذا لم نستطيع أن نقيم الطريقة الأولى، ونستعمل طريق (القسر) خاصة مع الخصوم والاعداء. أما الخاصة من الناس وهم الفلاسفة للحكام، فإن للطريقة التربوية الخاصة بهم هي تعليمهم الفضائل والعلوم للنظرية للتأملية وهو المنهج الصحيح لأن هؤلاء معدون لقيادة الدولة ويجب أن يتصفوا بهذه الصفات.

أما بقية ثلث المجتمع، ولاسيما الجمهور من الناس عامة فإن الطريقة الملائمة لهم تسمى بالخطابية أو الشعرية لأنها تعتمد على الانفعالات والخيالات لعدم قدرة الجمهور من الناس على بلوغ البرهان الفلسفي الذي هو خاصية من خواص التأمل الفيلسفي.

ويستمر هؤلاء الفلاسفة مؤكدين أن تعليم الفضائل وغرسها في نفوس أهل الدولة تتم بطريقتين الأولى: الرياضة والثانية: الموسيقى، فإراهم يقولون (أما الرياضة فهي اكتساب الفضيلة الصحيحة للجسم وأما الموسيقى فإنما هي لتهديب النفس وتمكينها من اكتساب الفضيلة الخلقية)<sup>(١٧)</sup>.

ويرى هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وابن رشد)<sup>(١٨)</sup> أنه يجب أن يكون هناك توازن بين الموسيقى والرياضة فهم يرون أن زيادة جانب الموسيقى على الرياضة يؤدي إلى أن يتحول الرجل إلى خنثى وإذا زاد جانب الرياضة على الموسيقى يتحول الرجل إلى وحشي. ويستمر هؤلاء الفلاسفة على ذكر طرق التربية وخطواتها للصغار في الدولة فهم يرون أن الشيء الأكثر ضرراً على الصغار في الدولة يسمعون في صغرهم الحكايات الوهمية للكاذبة والأشعار المليئة بالفحش والالفاظ البذيئة التي تدعو إلى الابتعاد عن الفضائل ونص ما يقوله ابن رشد مثلاً: "يجب أن نجنبهم تعويد أنفسهم وتوجيهها عن الحكايات الوهمية، بل ويجب أن نحصنهم ضدها، ونكون حذرين من أن تسبب الأذى في أجسامهم من الخوف والقشعريرة، والأمر كذلك يقال عليهم

(١٥) ابن رشد : تلخيص السياسة، المصدر السابق، ص ٧٥ مع حواشيه.

(١٦) افلاطون: الجمهورية، ك٤، المصدر السابق. وأرسطو، السياسات، المصدر السابق، المقالة الأولى. والفارابي، آراء أهل المدينة، المصدر السابق، ص ١١٦. وابن رشد، المصدر نفسه، والصيغة نفسها مع حواشيه.

(١٧) افلاطون: الجمهورية، ك٢، المصدر نفسه، إذ يؤكد بدقة على أهمية التوازن بين الرياضة والموسيقى لخلق تناغم في نفس الإنسان في المدينة الفاضلة.

(١٨) افلاطون: الجمهورية، ك٢، والفارابي: آراء أهل المدينة، مصدر السابق، ص ١١٠-١١٦. وابن رشد، تلخيص السياسة، المصدر السابق، المقالة الأولى، ص ٨١ وما بعدها.

عندما نسلمهم الى مرشعات يرضعهم وهم مايزالون حديثي الولادة فيعلمهم ايضا هذه الحكايات (الواحية) <sup>(٦١)</sup>.

لما الشعر فان هؤلاء الفلاسفة يرون ان على اهل الدولة ان لا يستعملوا الاشعار المليئة بالفحش والافاظ البذيئة التي تدعو الى الابتعاد عن الفضائل وان هناك نصا يقوله ابن رشد: "ان من الواجب عدم السماح للشعراء في المدينة بمحاكاة الاشياء الدنيئة أو التي ليس لها تأثير في قبول أو رفض أي شيء ، كما هو شأن القصائد العربية المليئة بالافاظ السيئة والتي تذكر النساء والتشبث بهن والتي وجودها في هذه المدينة غير ضروري" <sup>(٦٢)</sup>.

وبعد ان بينا كيف وضع هؤلاء الفلاسفة برنامجا تربويا لكل افراد الدولة منذ بداية حياتهم ولشراحتهم كافة، نرى مثلا أن ابن رشد يعود أيضا للحديث عن كيفية أدراك طبائع أولئك الميالين نحو التفلسف ونوعية التعليم الواجب لهم، وكيفية ان يكونوا فاضلين في الدولة والذين هم ابطال -حكام- لها.

ولهذا يرى ابن رشد هنا أن الصحيح هو أن نقودهم خطوة - خطوة أي من خلال نظام تعليمي يتدرج به الشخص للنظر في الاشياء، ثم بعد ذلك يستطيع أن يرفع بصره ليرى النجوم ثم القمر الى ان يصل الى رؤية الشمس <sup>(٦٣)</sup>.

لقد وضع هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، والفارابي، وابن رشد) <sup>(٦٤)</sup> برنامجا تربويا تعليميا لهذه الطبقة وتوجيههم اليه عبر خطوات تدريجية الى ما هو أسهل وملائم لهم <sup>(٦٥)</sup>.

فعلما يتم بلوغهم سن الستة عشر عاما أو السبعة عشر من عمرهم ففي هذه السن يجب إزالة الرغبات الشهوية منهم، ثم بعد هذه السن يتم ممارسة ركوب الخيل، حتى يصلوا الى بلوغ سن العشرين بعد أن يتم ذلك كله يتم تهيئتهم لدراسة الفلسفة، مع تأكيدهم أنه لا يمكن تعليمهم الفلسفة قبل هذا السن. ولا سيما ان مداركهم العقلية غير مستقرة وخاصة ان استنتاجاتهم وأحكامهم ونظرتهم للأمور ناقصة غير صحيحة <sup>(٦٦)</sup>. ويتم أيضا توضيح الحكايات المزيفة لهم التي تربوا عليها <sup>(٦٧)</sup> وتلقوها في طفولتهم وعند تلقيمهم علوم الفلسفة سيوضح لهم الأمر بحقيقة تلك الحكايات ومن ثم لن يقبلوها بل يقوموا بهدمها وألغائها بجرأة.

(٦١) ابن رشد: المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٦٢) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٦٣) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، والصفحة ذاتها.

(٦٤) المصدر نفسه، ص ١٦٤.

(٦٥) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٦٦) المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٦٧) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

وان ابن رشد مثلاً قد شبه هذه المسألة: بالذي يتربى في اسرة مدة طويلة معتقداً انهم اهلـه وحين يبلغ من المراهقة يكتشف أنه لاينتمي لهذه الاسرة، وهنا يتلاشي كل احترام وتقدير لهؤلاء ساخرأ منهم، وهذه الحالة مثلما يتعلم الحكام صناعة الجدل<sup>(٧٦)</sup> قبل هذه السن الناضج، وهذا الأمر هو سبب انتفاهم وحماستهم وتهديم كل رأي يتجادلون حوله.

ان هذا الامر يحدث في الاغلب لهؤلاء الذين يشغلون انفسهم بالتقلسف على هذا النحو في هذه المدن، وهذا الشيء هو الأكثر اذى لهم<sup>(٧٧)</sup>.

ولهذا لا بد أن يصل الى مرحلة النضج والأتران العقلي حتى يتمكن من أدراك جوهر الأشياء ، وبعد ذلك عليهم الاستمرار في دراسة الفلسفة الى ان يصلوا الى مرحلة سن الثلاثين، حتى يستكملوا جميع اجزائها وعندما يتم لهم ذلك أي عند بلوغ سن الخامسة والثلاثين توكل لهم مهمة قيادة الجيش ، ويبقون في هذه الوظيفة مدة خمس عشرة سنة، وحينما يصلون الى سن الخمسين يصبحون بعد هذه السن أكثر خبرة وكفاءة بقيادة الحكم وادارته في هذه الدول<sup>(٧٨)</sup>.

واخيراً فان هؤلاء الفلاسفة (افلاطون، وارسطو، والفارابي، وابن رشد)<sup>(٧٩)</sup> يرون أن الدولة تكون صالحة، عندما يكون بطلها أو رئيسها فيلسوفاً.  
الخاتمة وأهم الاستنتاجات :

من خلال سير البحث، توصل الباحث إلى جملة من النتائج الرئيسة والتي تعد بمثابة خاتمة لهذا البحث وهي:

١. إن موضوع البطل شكل اهتماماً رئيساً في عقل الإنسان عبر التاريخ، وشغل هذا الموضوع مسيرة الإنسان الطويلة ولازال كذلك لكون موضوع البطل المنقذ المخلص الملهم، هو الذي يعول عليه في اللحظات التاريخية الحاسمة في مسيرة الإنسان.

٢. إن الحضارات الإنسانية عامة، فضلاً عن الفلسفات التي تمثلها بحثت في البطل، ماهية ومفهومها وسلوكاً وتطبيقاً، ولهذا لا نجد حضارة إنسانية مبددة وعميقة إلا وشغل موضوع البطل المنقذ المخلص الملهم مكانته الرئيسة فيها، فهو في الحضارة العراقية القديمة يمثل (لوكال) ومعناها الحرفي (الرجل العظيم)، وفي لفلسفة يمثل الملك-الرئيس ذي الصفات أو للخصال المميزة

(٧٦) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

(٧٧) ابن رشد: تلخيص السياسة، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

(٧٨) المصدر نفسه، ص ١٧٠.

(٧٩) افلاطون: الجمهورية، ك٢، المصدر السابق، وارسطو: السياسيات، المصدر السابق، المقالة الاولى، والفارابي: آراء اهل المدينة، المصدر السابق، ص ١١٦. وابن رشد: المصدر نفسه، المقالة الاولى، ص ٨١ وما بعدها.

- التي لا تحصل للإنسان أعتيادي، بل للإنسان مميز، وفي المخيلة الفنية حمل صورة الشجاع المنقذ الموجه الذي يحمل بشارة النصر معه دوماً.
٣. البطل المفكر أو المفكر البطل هو البعد العملي للفيلسوف، فالبطل هو العظيم الذي اكتسب سمات عظمته من الآخرين ولم يفرضها عليهم فرضاً، لذلك تجسدت البطولة في كل فعل وقول وسلوك يترك أثراً إيجابياً في الآخرين.
٤. البطولة فردية كانت أم عبقرية، علمية أم اجتماعية، عمرانية أم جهادية لا يمكن لها أن تكون من غير مناخ اجتماعي وعقدي وقانوني وسايكولوجي، فلا بطل من غير معيه وجماعة وطلبة وشعب عظيم.
٥. البطولة مفاهيم لا يجتمع عليها للنقيضان (الإيجابي والسلبي)، فالبطل الحق يبقى ذلك العظيم التاريخي، لا المستبد المتغلب المقامر.

## اثر الكيسنجيرية في السياسة الامريكية النفطية

تجاه مول الأوبك ١٩٧٣-١٩٧٧م

المدرس المساعد

رعد قاسم صالح<sup>(٣)</sup>

### المقدمة

لئن شكل الحظر النفطي لمنظمة الأوبك أبان حرب تشرين الأول ١٩٧٣م المترامن مع تخفيض ¼ الإنتاج وزيادة سعر البرميل الواحد من النفط من ٢,٢٢ دولار الى ١٢,٥ دولار، مرحلة حاسمة في تطور العلاقات الدولية مع بداية السنة الأولى لما أطلق عليها بسيان الوفاق بين واشنطن وموسكو وبكين، التي أفرزت الأفراج الدولي في هذه العلاقات، فإن السبق المظمى جعلت القضايا النفطية هي الأولى في سلسلة مشاكلها وتحدياتها، فخير تجنب الحرب النووية تعمق بقدر الاندفاع نحو الاقتصاد كاداة لولى في الصراعات الدولية، فأصبح علف الصلح يتم في المجالات التجارية والتكنولوجية ومضامين استخدامات النفط والطاقة، وقد راهنت الولايات المتحدة الأمريكية على هذه المجالات كنتيجة لخيارها في نهضة المواجهات مع العالم الشيوعي لثر هزيمتها أو "المسحابها للمشرق" كما تطلق عليه من فيتنام عام ١٩٧٢م وأعترافها بعالم ثنائي القطبية العسكرية ومتعدد الاقطاب السياسية والاقتصادية، مستنده في ذلك على أمكانياتها وأمكانيات حلفائها في أوروبا الغربية واليابان في كسب هذا الرهان، ثم العودة الى أحتكار التفوق العسكري من خلال تسخير المنافع الاقتصادية المادية لسياق جديد لجيل متطور من السلاح يعجز العالم الشيوعي عن اللحاق به بعد تطويق وتقويض قدراته الاقتصادية، الأمر الذي يتطلب تحويل ركائزها في العالم من أساليب المواجهات العسكرية الى أساليب المواجهات الاقتصادية كخيار أول<sup>١</sup>.

فجاء الحظر النفطي في هذا الوقت البالغ التعقيد ليظهر على السطح حقائق ووقائع أن بقيت وتطورت لغلبت الرهان لصالح العالم الشيوعي الذي شجع هذا الحظر ودعمه لأنه يلحق الضرر بالطرف المقابل "الرسمالي" بقدر أكبر مما يلحقه به، وحيث العالم الشيوعي يعتمد على قاذه الاتحاد السوفيتي الذي يعتبر من المنتجين الرئيسيين للنفط ومالكي الاحتياطي له، ناهيك عن نجاحه في سياسة التغلغل في العراق-إيران ثم ليبيا فيما يتعلق باتفاقيات المقايضة لنفوطهم بالسلع والسلاح والمنشآت السوفيتية الاقتصادية والعسكرية التي تتطلب تواصل العلاقات لأغراض الصيانة والخبرة التي تساعد في اتساع النفوذ السوفيتي في

<sup>(٣)</sup> كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية.

<sup>(١)</sup> مزيد من المعلومات أنظر د. وليد خوري، العوامل المحددة في العلاقات النفطية العربية، الأمريكية، العربية عريية، العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٥٤.

المنطقة اثر نجاح الرئيس "داود" من خلع الملكية في أفغانستان وأقام نظام موالي لموسكو عام ١٩٧٣م، مما سبب في تصدير نفوط العراق وأيران والغاز الإيراني للاتحاد السوفيتي الذي سيعيد تصديره الى كتله أوروبا الشرقية بالسعر والكمية التي يحددها ليحكم قبضته أكثر عليها بعد أن حقق نجاحاً في بسط نفوذه على أهم الممرات المائية لأمدادات النفط في البحر الأحمر والساحل الأفريقي وجزء من الخليج العربي لا يمكن اجتثائه الا عن طريق حروب واحتلالات إقليمية، وأصبحت الأماطيل البحرية السوفيتية تملك القدرة المقابلة لقدرات الولايات المتحدة وحلفائها ناهيه احتكارهم للنفوق في البحار والمحيطات الذي امتد لفترة ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، ومدعومة من قبل الأنظمة الحليفة لموسكو في جنوب غرب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفي مثل هذه الظروف صغفت الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان المعتمدين في استهلاكهم للطاقة على نفط أوبك بنسبة تزيد على ٨٠% بفضل التطور الاقتصادي الهائل الذي حدث بعد الحرب العالمية الثانية بمساعدة مشروع المساعدات الأميركي "مارشال" الذي حول الاعتماد على الفحم الى الاعتماد على النفط في استهلاك الطاقة وجاءت الصدمة مترافقة مع البدء في الحملات السلمية والاقتصادية لتطويق النفوذ السوفيتي وحصره بتصنيع الحجاب الأيدلوجي والمطالبة بالحقوق القومية والدينية للشعوب، وللتحرك الدبلوماسي في المنظمات الدولية لأحداث للتقارب بين دولها الشيوعية والرأسمالية وكانت الخطوة الأولى اعتراف ألمانيا الاتحادية "الغربية" بالوجود القانوني لألمانيا الشيوعية للشرقية.

لذلك نجد رد الفعل الأوربي لزاء الحظر النفطي وتخفيض الإنتاج جاء بأعطاء دول أوبك العربية بعض التنازلات فيما يتعلق بالصراع العربي-الإسرائيلي، بيد أن الكيسنجرية كان لها موقف مغاير ينطلق من التعاطي مع أزمة الحظر النفطي من رؤية شمولية كونية لأبعاد مستقبلية، ونستطيع أن نوجز ذلك في قول هنري كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك بخطابه المشهور في اجتماع الدول الصناعية الكبرى في باريس يوم ١١/فبراير/١٩٧٤م [أن سلفي العظيم دين لتشيسون-وزير خارجية الرئيس ترومان-قال أن الكوارث تأتي من قبول حلول وسط أزاء مشاكل كبيرة ومعقدة، أن الدول المجتمعة في هذه القاعة تواجه الآن تحدياً غير مسبوق لرخائها ولكل بناء التعاون الدولي الذي كافحت لأقامته طوال حقبة مضت، لقد واجهنا أثناء الأزمة الأخيرة في الشرق الأوسط أزمة طاقة أثرت على العالم كله، وطرحنا أسئلة عن المستقبل، لابد من التصدي لها، أن احتمالات التنمية وآمال الرخاء والاستقرار الضروري لهذه الاحتمالات يقتضي سياسة حازمة]<sup>٢</sup> فقد أختار كيسنجر لمواجهة الحاسمة أي سحب سيطرة الدول المنتجة لسلعة النفط الإستراتيجية لتعود إلى الدول الصناعية الغربية الكبرى عن طريق الشركات المتعددة الجنسية العملاقة والمعروفة "الأخوات السبع" والعمل على فصل سياسة الدول المنتجة النفطية عن سياساتهم الخارجية في الوقت الذي يطرح سياسة جديدة قولها الموائمة في التخطيط والتنفذ للسياسة

<sup>2</sup> محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج ، أوهم القوة والنصر ، مركز الأهرام للترجمة والنشر ، القاهرة ط١ لسنة ١٩٩٢ ص٨٦ .



الآاركة والساسة النفطفة الأمركففن؁ وءءء تأكفءه على أمةة آبار الففوق الأفقصادى كرهاف فى كسب للمافلة مع العالم للشبوعى؁ من آلال الفرك لكطوق الأزمة وفقففها وأآواء عناصرها المكونة وفوظفهم فى آآاء تصءع للبناء الأفقصادى الشبوعى بوسائل ءنفة فبقى آأارها فاعلة فى المسقفل مسلفرق لىها لفصل إلى الفافة من هءا للبحآ.

ونافآ قبل ذلك أةم المفاهفم ذاك الصلة بموضوعة البآ؁ فى المبآ الأول وركز آقائق للآءفاف الفى وآاهف الكفسنجرفة فى المبآ الفافى وماهفة للوسائل وللآطط ءنفة الفى أآءف الموائمة المذكورة وفسبب فى سآب زمام للمبافرة من ءول الأوبك بآرفة الفصرف بهذه الصلة وبالفكل الففرففى فى المبآ الفاف.

### المبآ الأول

فى المفاهفم ذاك الصلة الكفسنجرفة:

نسبه إلى ءكففر هفرى كفسنجر المولوء فى المافا عام ١٩٢٣م؁ فخرج من آامعة هارفرد وعمل فىها مآفصاف فى العلاقات ءولفة بالأضافة إلى عمله فى مراكز بآففة آفرى؁ أصبح مسفناراف للآمن القومى الأمركى عام ١٩٧٢م ووزفر للآاركة لفرة ١٩٧٣-١٩٧٧؁ وكانت الففرة من ١٩٧٢-١٩٧٧ ملفة بمففراف ساسة واقتصادفة<sup>٣</sup> أصطت طابعا ءنفا للعلاقات ءولفة بءه من ساسة الوفاق بفن واشفطن وموسكو وبكن فى وفق انسآاب أمركا من ففبفام وهى مشغلة بآراح الآسائر العسكرية والبشرفة والمعلوفة لفلآه ءءفا كبفراف وآطفراف ممفل بالآظر النفطى لءول الأوبك القافم على الساسة النفطفة ءنفة فى فآففس الآفاف وزفافة الأسعار ومنع تصففر النفط إلى واشفطن وآلافافها من قبل أعضاء أوبك المؤثر فى ((الأوبك)).

ولهم الكفسنجرفة أكفرف بفم من آلال الففافر الوظففى بفن قفافة الطرف الأمركى برؤاسة هفرى كفسنجر الذى أءار أزمة للآظر النفطى أباف ففرة آرب فشرفن الأول ١٩٧٣م بفن أسراففل وبعض ءول العربفة وأفضاف من آلال طراح الأفكار الفى كان يؤمن بها والمففاعلة مع الفكر الأسفرافففى الأمركى والأسالفف الفى آفبعها كاسلوب "الآطوة فآطوة" الفى أفرزت ساسفه آاركة ءنفة قائمة على الموائمة الأكفرف مع العامل النفطى لفعطى فماراف على الصعفء المرفلى آنذاك وعلى الصعفء المففوسط والبعفء المءى؁ آءت إلى ءنى منافع مهمة أنعكست على ففاعلفة الساسة الآاركة ومكانفها ءولفة الآلفة.

وبفن عفباب ممف هءه القفافة فى الطرف الآخر مع عفباب الفكر والأسلوب الأسفرافففففن للفعامل مع الآافة المنصاعءة للمسلفكفن لمسة النفط المهمة الأمر الذى أءى إلى فقءفن المبافرة فءرففا؁ آفى وصل الأمر إلى آالة من الفمنى فى الآصول على قفافة فوازى الكفسنجرفة فى الطرف العربى آفلفا.

لقد أمفازف للكفسنجرفة بالعمفة الأسفرافففة الوقائف؁ رغم أطروآافها الممفرزة فى القوة ءفاعفة وللآجومفة والرفءع.. الف؁ فقد ركزت على الأفعال الوقائفه لأنقاذ ءولة من الفآبط

<sup>٣</sup> ء. طافر محمد العممى؁ آمن الفلفج العربى- فطوره واشكالففه من منقور العلاقات الأفقفمة وءولفة؁ مرفز لراساف الوءة العربفة؁ بفرف ٢٠٠٦ ص ٣٧٨.

في المتغيرات السريعة والمفاجئة، وبعبارة أخرى في حالة غياب الاستراتيجية الوقائية سيتعذر على الدولة أن تملك استعداداً مسبقاً أو تصوراً شاملاً أو تخطيطاً مستقبلياً طويل الأجل وستتصرف جهود الدولة الى معالجة الحالة الراهنة التي تواجهها وتعيشها دون توخي استهدافها<sup>٤</sup>. وهذه الاستراتيجية لها خصائص وشروط:

١. القدرة عن كسب الأجماع للدخلي.
٢. موافقة الحلفاء والأصدقاء.
٣. تحقق الردع الفعال.
٤. تقدم تصورات مدروسة وحلول مناسبة مقرونة بمفهوم للقوة الشامل الغير محدد بالقوة النووية<sup>٥</sup>.

والحلول المناسبة للعالم الثالث "دول الجنوب" وبهذا للصند نجده بوجه كلاماً لدول الأوبك لمن الواضح أنه إذا استمرت الضغوط إلى ما لانهاية وبشكل غير معقول، فسيكون على الولايات المتحدة النظر في التدابير المضادة التي تستلعب اتخاذها، ستفعل ذلك عن كره شديد، وما زلنا نأمل بأن لاتصل الأمور إلى هذه النقطة<sup>٦</sup> فخلال أزمة الحظر النفطي التي عكست الخلافات الدولية إلى أطار الكوكبية ، فلم يعد هناك انعزال بين المناطق المختلفة، فكل تحرك دبلوماسي أو عسكري في مكان ما ينتج عنه رد فعل عالمي، ولم تولج السياسة بمثل هذا التحدي الذي واجهته خلال أزمة النفط في الوقت الذي تطالب به الدبلوماسية بالتدخل لحل الخلافات قبل استفحالها نجد أن القوة العسكرية الضاغطة عاجزة عن مساعدة العمل الدبلوماسي لطبيعة مشاكل الأسلحة النووية التي تجعل مجرد فكرة الحرب مرعبة<sup>٧</sup> فجاءت فكرة تحقيق التوازن عن طريق العامل الاقتصادي وثورة للتكنولوجيا وهذا مانبه اليه كيسنجر وركز عليه كبعد استراتيجي عند التعامل مع أزمة الحظر النفطي بعودة السيطرة كاملة على الثروة النفطية.

فعندما نظرت أوروبا إلى حل الحظر النفطي من خلال الشراكة بينها وبين العرب في تنظيم اتفاقيات تجارية واقتصادية كما عملت مع إسرائيل منذ المفاوضات الاقتصادية عام ١٩٥٨م وتوقيع الاتفاقية التجارية المحدودة بينهما حزيران ١٩٦٤م ثم اتفاقية التفضيل التجاري حزيران ١٩٧٠م، والاتفاقية التجارية الشاملة في أيار ١٩٧٥<sup>٨</sup>.

نجد الكيسنجرية نظرت للحظر النفطي بمنظور استراتيجي يتعدى أطار المشاركة إلى أطار السيطرة الكاملة لأنه تحدي تاريخي كما وصفه في خطاب القاه بجامعة شيكاغو يوم ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٤م، فقال [ قبل ربع قرن من الزمان واجه العالم الغربي أزمة تاريخية

<sup>٤</sup> حازم طالب مشتاق، هنري كيسنجر، العودة الاستراتيجية الأمريكية ودبلوماسية الولايات المتحدة ، الدار العربية، بغداد، ١٩٨٧ ص ٥٢.

<sup>٥</sup> ستان ونداس ، تجنب الحرب النووية ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع العراقية ، بغداد ، ١٩٨٦ ص ١٩٧.

<sup>٦</sup> الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت ص ٤٢٣ .

<sup>٧</sup> أمين هويدي ، كيسنجر وإدارة الصراع الدولي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بغداد ١٩٧٩ ص ٢٧ .

<sup>٨</sup> محمد حسنين هويكل م. ص ٨٨ .

وذلك عندما أنهار النظام القديم نتيجة للحرب العالمية الثانية، وأصبح عالم ما بعد الحرب مهدها بالضائقة الاقتصادية والقلق السياسية ((يقصد هنا التخوف من تغفل الأفكار والحركات الشيوعية القائمة من الاتحاد السوفيتي)) ولكن دول الغرب واجهت الأزمة بأن بنت لنفسها نظاماً للأمن والتعاون يضمن سلامتها ورخائها، وعند ذلك الحين عاش المجتمع الغربي في نوع من الاستقرار الخلاق، وفي هذه اللحظة ((لحظة الحظر النفطي)) وبعد خمسة وعشرين سنة فإنها تواجه تحدياً في نفس الحجم وهو يحتاج منا إلى رؤية وإلى شجاعة وإلى إرادة<sup>٩</sup> وأخيراً إذا كانت التركيستورية هي رؤية إستراتيجية فالعبرة في الإستراتيجية هي أبعادها في الخواتيم.

**النفط :**

النفط مصدر للطاقة ومادة أولية للعديد من الصناعات الأساسية والمكملة، وهو سلسلة تجارية لا تستطيع أية دولة متقدمة أو متخلفة الاستغناء عنه. وهذا كله يفري إلى تحديد تواجه النفط واستثماره، ولكن ذلك يتطلب:

١. وجود قدرة جيولوجية لتحديد تواجده.
٢. وجود قدره تكنولوجية لاستخراجه<sup>١٠</sup>.
٣. وجود قدره صناعية لتكريره واستخراج المشتقات الضرورية منه.

وحيث أن نظرية تفسير المترامكات النفطية في أبسط أشكالها تذهب في قاعات بحار قديمة، وخلال أزمته جيولوجية متلاحقة هاجرت الموقل الهيدروكربونية من قاعات منابعها إلى مكامن تراكمت فيها وأحتجزت ضمنها لتعطيتها أهمية بالغة الخطورة نسبة للمناطق الأخرى التي لم تتجمع فيها هذا التراكمت وهذا ما يطلق عليه بقصة التنقيب التي بدلت منذ نهايات القرن التاسع عشر والتي توافقت مع بدايات التغفل الغربي تحت شتى المسميات لمناطق هذه التراكمت:

**النفط والعلاقات الدولية:**

عندما نتناول مفهومين كالنفط والعلاقات الدولية بطول الحديث ويتشعب لأننا سنمر على كم هائل من الظواهر والسياسات والأحداث المترابطة بين الدول لعقود عديدة، فمنذ اكتشاف النفط التجاري عام ١٨٦٠م حتى الآن كانت أشكاليات الاستحواذ عليه مستمرة، فالأشكالية الأولى حدثت بين آثار الإنتاج الأمريكي والروسي عام ١٩١٠م فقد بلغ الإنتاج الأمريكي آنذاك ٨,٥ مليون طن، مقابل الإنتاج الروسي ١٠,٤ مليون طن ليرتب لهما أهمية في علاقاتهم مع الدول الأخرى بالحجم المحدود التي كان يتمتع به النفط في الاستخدامات نسبة إلى الحجم الكبير الذي كان يتمتع به الفحم في مثل هذه الاستخدامات ومنها استخدامات الطاقة وأرتفع الإنتاج الأمريكي عام ١٩١٣ إلى ٣٣,٦ مليون طن مقابل انخفاض الإنتاج الروسي إلى ٩,٢ مليون طن سنوياً، ليعطي أهمية أكبر لأميركا من ناحية زيادة إنتاجها

<sup>٩</sup> الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٥ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ص ٤٩٧ .  
<sup>١٠</sup> لمزيد من المعلومات أنظر د. جورج طعمه النفط والعلاقات العربية الدولية قضيتها عربية العدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٢١ .

المتزامن مع زيادة أهمية النفط كبديل محل الفحم في كثير من الاستخدامات، وما أن اشتعلت الحرب العالمية الأولى وظهرت الحاجة المتنامية للنفط كمصدر للطاقة في الآلة العسكرية إضافة إلى الاستخدامات المدنية الأخرى فيما كانت أوروبا وروسيا منهكة في تفاصيل هذه الحرب أكثر من أميركا التي بذلت جهوداً جبارة في التقيب وزيادة الإنتاج حتى أصبحت الدولة التي تملك التأثير على أوروبا ومعظم العالم في التموين والإنتاج والتصدير<sup>١١</sup> سرعان ما أنهت هذه الحرب لنجد أن التناقضات والصراعات بين روسيا وألمانيا وبريطانيا وأميركا أخذت بالتصاعد من أجل الاستحواذ على مناطق الشرق الأوسط الغنية بهذه السلعة المهمة عالمياً، فكان النفوذ الروسي النفطي موجوداً في إيران إلى جانب النفوذ البريطاني ويقابلها محاولات التغلغل الأميركي المتزايد لنفس الغرض، والجهد الألماني لأحلال نفوذه وطرد نفوذ الدول الأخرى، ورغم أن النفوذ الروسي والبريطاني هو الأقدم منذ اتفاقية ٣١ آب ١٩٠٧م بينهما لاقتسام مناطق نشاطهما ونفوذهما<sup>١٢</sup> كانت الرغبة الأميركية للدخول إلى ((الشرق الأوسط)) قد بدأت منذ عام ١٩١٠ تحت شعار ((الباب المفتوح)) لتدخلها أسوء بالتدخل الروسي والبريطاني والفرنسي والهولندي بحثاً عن النفط وكانت هذه المحاولات تلاقي الصعوبات نتيجة الضغط الألماني على السلطان العثماني لذلك<sup>١٣</sup> ورغم ذلك أرست أميركا بعثه للتقيب عن النفط إلى فلسطين عام ١٩١٣، ولكن عملها تعطل بسبب الحرب العالمية الثانية التي جاءت نتائجها لصالح البداية الحقيقية للنفوذ النفطي الأمريكي في إيران والجزيرة العربية والعراق، ذلك النفوذ الذي واجه تحدي جديد أثر ظهور القوة الألمانية النازية وسعيها لأزاحة الحضور المتنامي لأعدائهم الأوربيين وأميركا عن المنطقة . منذ تعيينها الدكتور "ليندبلاد" الألماني مستشاراً للمالية الأيرانية<sup>١٤</sup> نجد أن الاتفاقيات التجارية والصناعية واتفاقيات النقل الجوي والاتفاقيات الثقافية أخذت بالانتعاش على حساب النفوذ الأمريكي والبريطاني خاصة بعد استلام هتلر السلطة في ألمانيا عام ١٩٣٣ الذي أعطى أهمية كبيرة لإيران كمرتكز لترسيخ الأقدام الألمانية وتوسيع تواجدتها في ((منطقة الشرق الأوسط)) الغنية بالنفط، وجاءت نتائج الحرب العالمية الثانية لتعطي رجحان لكفة النفوذ الأمريكي على حساب نفوذ الدول العظمى الأخرى، فقد خرجت ألمانيا منهزمة من الحرب، وروسيا متعبة وضعيفة، فضلت التفرغ نحو أوروبا الشرقية والاكتهاف بنفوذ محدود في حدودها الجنوبية المحاذية للمحافظات الشمالية لإيران المتاخمة للحدود مع أفغانستان وباكستان، وبريطانيا وفرنسا وهولندا التي أرهقتهم الحرب ووضعهم في موقف الحاجة إلى المساعدات الأميركية قبلوا بمشاركة أميركا معهم لاقتسام المناطق المنتجة للنفط في ((الشرق الأوسط)) وواشنطن أيضاً

<sup>١١</sup> آلدره نوسشي ، الصراعات البترولية في الشرق الأوسط ، دار الحقيقة للطباعة والنشر ، بيروت ط١ لسنة ١٩٧١ ص ١٥ .

<sup>١٢</sup> محمد كامل محمد عبد الرحمن ، سياسة إيران في عهد رضا شاه ١٩٢١ ، ١٩٤١ جامعة البصرة ، ١٩٨٨ ، ص ١٩ .

<sup>١٣</sup> آلدره نوسشي ، المصدر السابق ص ٣٦ .

<sup>١٤</sup> محمد كامل م. م. د. ص ٧٤ .

كانت بحاجة إلى خبراتهم فف هذا المجال<sup>١٥</sup> وبقيت الدول الأخرى التي لا تملك مقدرات المواجهة والذهاب للبحث عن النفوذ النفطف تنظم علاقاتها مع الدول العظمى المتمكنة فف هذا المجال لنثبفة حاجتها من النفط ، فظهرت هولفس مشتركة للدول أزاء النفط لم تكن بعبدة عن أفكار للركسنجربة:

١. الحاجة إلى تواصل تدفق النفط إليها حسب الحاجة المتنامفة .
  ٢. توظيف العائدات المالية الضخمة لتدعم أقتصادفات الدول المنتجة مع وجود رغبة للدول المستهلكة فف أشراك هذه العائدات فف نظام دولف أقتصادي ومالف .
  ٣. تعاون دولف للسيطرة على استقرار أسعار وإنتاج النفط .
  ٤. بروز الأهمية للجفوسفاسفة للدول المنتجة للنفط والمالكة لأحتفاففاته.
  ٥. وجود الأهتمام الدولف المتنامف لأيجاد بدائل للنفط عدد نفاذه.
- وهذه الهواجف هي التي أوجدت ((الفسفاسات النفطفة)) فف تفاعلات العلاقات الدولية الففر متكافئة من ففناحفة فاعلففها الواضحة لدى الدول العظمى المتطورة صناعفًا والتي تشكل السوق الاستهلاكة وفف حالة الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوففنف تشكلان السوق الإنتاجفة والاستهلاكة معا لطبفةة علاقاتها الفسفاسفة والاقتصادفة المحلية والأقففمفة والدولة الفمزة. أما الدول المنتجة التي نال معظمها استقلاله فف فترات فبل وبعد النصف الثاني من القرن العشرفن وتصنف بدول العالم الثالث أو دول الجنوب ، فأفها غالبًا ما تحاول الخروج من قفود الدول العظمى بسبب أختلال القدرات لمحاولة التصرف بمنتوجها وعوائدها المالية بحرفه أكبر، لكنها غالبًا ما تجد الضواغط والموانع أزاء هذه المحاولات الأمر الذي أذى إلى حدوث أزمات فف العلاقات الدولية عبر العقود الماضية وكان أهمها "أزمة الحظر النفطف لعام ١٩٧٣" لأن النفط فملك القابلفة فف أن فكون:

١. أداة لأخلق أزمة دولية، كالحظر أو تقلفل الإنتاج، أو فزادة الأسعار...الخ.
  ٢. أداة لحل أزمة دولية، فزادة الإنتاج، تخففض الأسعار، للمساعدات...الخ.
  ٣. مدخل لتهففد الأمن المحلي والأقففمف والدولف-عند حالات الصراع واللتافس للمحتكرفن والمحتاجفن له، أو لاستخدامه كورقة تأثير وضغط من دولة أو مجموعة من الدول للحصول على تنازلات وأمفازات تلحق الضرر بالطرف الأفر، وهناك حالات عبدة أخرى تنصب فف هذا الاتجاه عند دراسة تأرفخ الصراعات الدولية على مصادر النفط من ناحية أسبابها ونواتجها وأثارها.
- النفط كعنصر مهم فف الاستراتيجية الكونفة الأمريكية:**

تحول النفط إلى مرتبة العنصر المهم جدًا فف التخطيط الاستراتيجف الكونف للولايات المتحدة قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بسبب تعاظم دوره فف تشغيل آله الحرب والأعلام وأساليب الدعم للمجهود الحربف، فجد فف تصريح "هارولد رفس" وزير الداخلية الأمرفكف

<sup>١٥</sup> لمزفة من المطفومات أنظر محمد كامل محمد م. س. ذ. ص٨٢ كذلك أنفره نوسنف م. س. ذ. ص٧٥ وإدور سفالففة ، أفران مستودع البرود ، ترجمة عز الدين محمود السراج ، دار الحرفة للطباعة ، بغداد ١٩٨٣، ص٢٤٥، ص٢٤٦ .

والممسؤول آنذاك عن شؤون النفط قال موجه كلامه للرئيس فرانكلين روزفلت [الولايات المتحدة مهتدة بأن تتحول لمستورد للبترول، وعليها أن تعتمد لهذا الوضع] ويروي ريكس في مذكراته أنه وكبار مستشاري روزفلت كانوا يجلسون في البيت الأبيض ساعات يتناقشون عالم ما بعد الحرب... ومضى يقول [كنا نضع البوصلة على موقع مائدة الاجتماع وحينما وضعناها فإن أبرتها كانت تقفز ثلثاين إلى ناحية للشرق الأوسط].<sup>١٦</sup>

الجلسة التي أشار إليها ريكس والجلسات المماثلة للادارات اللاحقة وصولا لإدارة الرئيس ريتشارد نيكسون فترة أزمة الحظر النفطي كان دينها دائما هو الاهتمام المبالغ به لعامل النفط عند التخطيط الاستراتيجي الكوني، وإذا ما اعتبرنا أن المدلول الاستراتيجي ل واشنطون وموسكو آنذاك بأنه الخطأ العامة للتعامل مع الموقف الدولي في حالة إصدار صريح بينهما<sup>١٧</sup> فإن خسارة معركة النفط ل واشنطون مع منظمة الأوبك تعني خسارة معركة الموارد الأولية الضرورية للمعادن الأخرى في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية مثل معادن الكوبالت والحاس وخامات اليورانيوم في زائير... الخ، كذلك للتعاون المستقبلي للمشاركة في استثمار الاحتياطي الهائل للنفط والغاز في سيبيريا، ولهذا نجد المحللين لطبيعة السياسة الخارجية الأميركية تجاه "الشرق الأوسط" بعد حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١، يؤكدون على جني ثمار المنافع الجمة من وراء وجود عامل للنفط في التخطيط الاستراتيجي الذي اعتمدته هذه السياسة في إعادة السيطرة على نصف خزان البترول العالمي وثالث المخزون العالمي عندما أشرفت على مباحثات السلام في مدريد أثر ترتيب أهم أجزاء "منطقة الشرق الأوسط"، وما سياسة الاحتواء المزدوج الطويلة للعراق وإيران المترابطة إقليميا وكبح جماحها إلا للحيلولة دون حصول أي انقطاع لأمدادات النفط والغاز من تلك المنطقة.<sup>١٨</sup>

**أزمة الطاقة والصراع العربي - الإسرائيلي:**

في الفترة ما بين ١٩٤٨ إلى ١٩٧٢ زاد إنتاج الشرق الأوسط بنسبة ١٥٠٠ في المائة<sup>١٩</sup> وفي هذه الفترة كانت بعض الدول الأوروبية تحاول الأفلات من قبضة واشنطون في مجال السيطرة على بترول الشرق الأوسط ولكن دون جدوى فجات موافقتها على إبقاء حصصها المئوية على حالها بالقدر الذي تحتاج به معاندة واشنطون في الحماية ضد العالم الشيوعي والتعاون المشترك، فلم تجازف في هذا المجال وبالذات بعد أن أصبحت تكاليف انقطاع أو انخفاض الواردات النفطية مكلفة جدا على الاقتصاد الأوروبي وكذلك على الاقتصاد الإسرائيلي.

وقد رافق ذلك سلسلة المعلومات التي تؤكد نفاذ هذه المادة الغالية المهمة سواء كانت لجهة المستهلكين أو المنتجين، فكان الحظر النفطي وزيادة الأسعار وتخفيض سقف الإنتاج

<sup>١٦</sup> محمد حسنين هيكل، م. م.، ذ. ص ٧٢.

<sup>١٧</sup> كولن باون وبيتر موني، من الحرب الباردة حتى الوفاء، دار الشرقي للنشر والتوزيع، ترجمة صافي أبراهيم عودة، عمان ١٩٨٣ ص ٢٧٤.

<sup>١٨</sup> بناء الأمن والسلام في الشرق الأوسط، الأجنحة الأميركية، مجموعة الرئاسة للدراسات، معهد واشنطون، ترجمة يوسف أبراهيم الجهماتي، دار حوران للطباعة والنشر، دمشق ٢٠٠١ ص ٧١.

<sup>١٩</sup> تقرير منشور في مجلة النفط والتنمية، وزارة النفط والمعادن، بغداد، ١٩٧٤ ص ١٤.

جاءت بدوافع سياسية ولكنها لم تكن منفصلة عن ضواغط متطلبات خطط التنمية القومية للدول المنتجة وضرورة توظيف العائدات المالية الضخمة في هذه الفرصة المحدودة في التاريخ الطويل للشعوب من أجل التقدم والتطور قبل الوقوع بمخاطر فوارق الهوة العميقة والواسعة اقتصاديا وتكنولوجيا بعد اختراع البدائل عن النفط في استهلاك الطاقة والمتطلبات الأخرى الصناعية بين الدول المستهلكة للمتطورة والدول المنتجة للنامية والمتخلفة، كان ذلك في الطرف العربي.

لما الطرف الأسرائيلي فيده الاعتماد على نفط حقول سيناء المحتلة ، فشهد عام ١٩٧٢ توقيع اتفاقيات عديدة مع شركات النفط الأجنبية في مجالات التنقيب والتكرير والنقل، وبلغ الإنتاج الأقصى مع نهاية عام ١٩٧٢ إلى ٥,٤ مليون طن مايعادل ١٠,٨ ألف برميل يوميا وكانت هذه الحقول تغطي ٧٥% من حاجات إسرائيل<sup>٢٠</sup> رغم أنها معرضة للضوب منتصف عقد الثمانينيات للقرن العشرين وأن إسرائيل بصدد تعاون دولي اميركي لاتمام التنقيب واستخراج النفط في قطاع غزة في نهاية عام ١٩٧٢ وبداية عام ١٩٧٣ للتعويض عن نفط سيناء، أما في قضية الطاقة من المحطات الذرية ، فإن العالم الأميركي المعروف أوارد تيلر ((أبو القنبلة الهيدروجينية)) كان يقود حملة مع الناشطين الأسرائيليين لبناء محطات ذرية كهربائية تتزامن مع حملات أميركا لنفس الغرض، وجميع الدراسات تقول أن تاريخ عملها وإنتاجها سيكون خلال الأعوام ١٩٧٨-١٩٨٠<sup>٢١</sup>.

فحرب تشرين الأول ١٩٧٣ والحظر النفطي الذي أقرزته هذه الحرب ستعكس آثارهما بشكل خطير على واقع الطاقة والاقتصاد داخل إسرائيل سيما وأن اعتماديتها على المساعدة النفطية من أوروبا وأميركا منقطع لتعرضهم جميعا لحظر النفطي، وهذا المتغير جعل من أزمة الحظر النفطي لدول الأوبك ملصقا لممار ونتاج حرب تشرين ١٩٧٣ وللصراع العربي - الإسرائيلي على كافة الأصعدة والأزمنة.

#### الأنفراج الدولي والركيسنجرية:

أن التخيير الذي أصاب بشدة العلاقات الدولية وأخذ يؤثر على المناخ العام للحرب الباردة على طول خطوط المواجهات بعد أنسلاخا عن الأطار التقليدي الذي تجمدت فيه هذه العلاقات لعدة عقود بسبب الفواصل الأيدولوجية والسياسية والنفسية وصراعات القوى والأستراتيجيات والمصالح التي قسمت العالم إلى كتلة شرقية وغربية وأدت إلى ثلاثي إمكانات الحوار المفتوح بينهما في وقت من الأوقات، لذلك نطلق على الأنفراج الدولي بسبب سياسة الوفاق هو أنسلاخا عن السياق، أما الأسباب:

١. الآثار الخطيرة للتكنولوجيا العسكرية التي خلقت توازن الرعب النووي.
٢. الخصائر المادية والبشرية الكبيرة المترتبة جراء دخول أحد العملاقين بشكل مباشر في أي حرب، وعلى سبيل المثال الحرب الأميركية في فيتنام كلفت أطرافها بموجب التقرير الاستراتيجي لسنة ١٩٧٢. "٧,٨" مليون من سكان فيتنام الجنوبية لاجئين،

<sup>٢٠</sup> الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٢ ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، بيروت ، ص ٢٨٠ .

<sup>٢١</sup> المصدر نفسه ص ٣٢٨ .

والأصابات من العسكريين الفيتناميين الجنوبيين "١٨٠٦٧٦" والشمالية "٩٢١٢٥٠" ومن كوريا الجنوبية "٤٩٢" قتل و"٥٦٢٢٦" قتل من الأمريكان وأصابات المدنيين بين قتل وجريح أكثر من ١,٥ مليون شخص، وقدرت التكاليف التي تكبتها الولايات المتحدة في الحرب وفي المساعدات كانت "١٠٩٤٨٠" مليون دولار و"١٧٠٠٠٠" مليون دولار، حتى جاءت الهدنة بين فيتنام الشمالية وواشنطن في باريس كانون الثاني ١٩٧٣ ولم تكن منعزلة عما كان يحصل في "الشرق الأوسط" من حرب وحظر نفطي<sup>٢٢</sup>، وبفضل الزيارات المكوكية لكيسنجر تحول أعداء الأمم الذين كانوا يمدون فيتنام الشمالية بشتى أنواع الدعم والمساعدة ضد الآلة العسكرية لواشنطن تحول الأعداء الى شركاء في هذه الهدنة، فجد كيسنجر يصرح في مؤتمر صحفي في شباط ١٩٧٥ ((إن الصين والاتحاد السوفيتي قد أبلغا الولايات المتحدة أنهما سوف يستخدمان نفوذهما لحمل فيتنام الشمالية<sup>٢٣</sup> على ضبط النفس والالتزام بالهدنة Detene والتفاوض والاتفاق، تصرفاً كان مسابراً لمبادئ الوفاق في المهادنة وللتقارب تحت مفهوم الذي يعرف بأنه نوع من التعايش السلمي الذي تترن بهجود أجنبية هدفها التوصل الى حلول جديدة للنزاعات<sup>٢٤</sup> التي إذا ما تركت دون حل فقد تقود تفاقم الحرب الباردة، ولحتمال تصاعدها الى حد الانفجار، وحالة حرب تشرين الأول ١٩٧٣ أفرزت وضعاً متجراً يتمثل في مخاطر انشطار إسرائيل من قبل الجيش المصري والسوري لطبيعة المساحة الطويلة الضيقة للدولة العبرية وأنهيارها مع متغير الطاقة بعودة حقول سيناء لمصر وتهديد مخطط انشاء المحطات الكهربائية الذرية مما يجعل إسرائيل قريبة من احتمال استخدام السلاح النووي وتشير كافة الدراسات التي أعدها المحللون بامتلاك إسرائيل لكمية قادرة على تدمير سوريا ومصر معاً، وسيؤدي ذلك الى تقجير الوضع بالشكل الذي يجعل من الحظر النفطي ليس خياراً سياسياً فحسب بل أمراً حاسماً تمليه الوقائع الأمنية والسياسية الجديدة في الشرق الأوسط وسيكون أعبائه العملية أشد وطأة على الاقتصاد الأميركي والأمريائي والأوروبي، أي على جميع مكونات الطرف الغربي الراسمالي أكثر بكثير من تأثيره على اقتصاديات وأمن العالم الشيوعي، لذلك ركز كيسنجر في هذا الصراع على مبادئ الوفاق مع العالم الشيوعي والاتحاد السوفيتي بالاستعداد للتمام للتحاقم لأجزاء بعض التنازلات التي تحقق مرحلة نفعاً متبادلاً، خاصة بعد ظهور متغير جديد لصالح إسرائيل وهو أمكاليبتها في محاصرة الجيش الثالث المصري بفضل الدعم الأميركي لها مما حقق حالة من التوازن العسكري على الأرض.

فجاء توظيف كيسنجر للمشاركة السوفيتية في إنهاء هذه الحرب مع التحرك السريع لإنهاء الحظر النفطي مكسباً للسياسة الأميركية الخارجية ونتيجة مهمة لهدف عودة

<sup>22</sup> كوان بلون وبيتر موني م ذ ص ١٤٩ .

<sup>23</sup> كوان بلون وبيتر موني م ذ ص ١٤٩ .

<sup>24</sup> حصن بكر ، انفراج أم وفاق دولي ، شؤون عربية عدد ١١ لسنة ١٩٨٤ ص ٢٤٠ .



النشاط الفاعل للاقتصاد الأمريكي، على اعتبار أن الوفاق الدولي والانفراج المترتب عنه هو وسيلة لهدف العودة للتفوق الأمريكي عالمياً بعد أن استقر الوضع العسكري بينهما على التعادل. ولذلك نجد أن هنري كيسنجر يعبر عن مفهومه للوفاق والانفراج الدوليين بـ[الانفراج هو عملية نظورية وليست إنجازاً ثابتاً]<sup>٢٥</sup> أي صناعة كيسنجرية لتحقيق منافع عجزت أميركا عن تحقيقها عن طريق المواجهات العسكرية.

تتم عن طريق انتقال العلاقات المحملة بخطر المواجهة إلى علاقات التعايش السلمى والتعاون المرحلي، وفي الجدولين بيانات توضح نوافع تفضيل الولايات المتحدة الأمريكية للعامل الاقتصادي والنفطي في المجابهة مع العالم الشيوعي فترة الانفراج الدولي وما بعدها.

الولايات المتحدة الأمريكية	الاتحاد السوفيتي	أوروبا الغربية	أوروبا الشرقية	الشرق الأوسط	أفريقيا	آسيا
١٩٥٢	٣٥٠	١٦	٣٢	٢٩	٤٤	١٣٣
١٩٦٠	٥١١	٣٩	٧١	٦٠	٧٢	٢٠١
١٩٦٦	٧٤٨	١٠٢	١٢٣	١٨٠	١٠٧	٢٨٨
١٩٧٢	١٥١٢	٣١٧	٢٢٩	٢٢٤	١٢٨	٤٣٩

جدول يوضح حجم الناتج القومي ببلاتين الدولارات الأمريكية بين التفوق الأمريكي وحلفائها الأوروبيين والاتحاد السوفيتي فترة ١٩٥٢-١٩٧٢<sup>٢٦</sup>.

الولايات المتحدة الأمريكية	الاتحاد السوفيتي	١٩٦٤	١٩٦٦	١٩٦٨	١٩٧٠	١٩٧٢	١٩٧٤
صواريخ عبيرة للغارات I. C. B. M.	٨٣٤	٩٠٤	١٠٥٤	١٠٥٤	١٠٥٤	١٠٥٤	١٠٥٤
صواريخ تنطلق من الغواصات S. L. B. M.	٤١٦	٥٩٢	٦٥٦	٦٥٦	٦٥٦	٦٥٦	٦٥٦
قاذفات قنابل بعيدة المدى	٦٣٠	٦٣٠	٥٤٥	٥٤٥	٥٥٠	٤٥٥	٤٣٧
صواريخ عبيرة للغارات I. C. B. M.	٢٠٠	٣٠٠	٨٠٠	١٣٠٠	١٣٠٠	١٥٢٧	١٥٧٥
صواريخ تنطلق من الغواصات S. L. B. M.	١٢٠	١٢٥	١٣٠	٢٨٠	٥٦٠	٧٢٠	٧٢٠
قاذفات قنابل بعيدة المدى	١٩٠	٢٠٠	١٥٠	١٥٠	١٤٠	١٤٠	١٤٠

جدول يوضح التوازن الاستراتيجي النووي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ١٩٦٤ - ١٩٧٤<sup>٢٧</sup>.

<sup>٢٥</sup> حصن بكر، المصدر نفسه ص ٢٣٩، وكذلك أنظر اسماعيل صبري مقلد الصراع الأمريكي، السوفيتي حول الشرق الأوسط، الأبعاد الإقليمية والدولية، منشورات ذات السلاسل، الكويت ١٩٨٦ ص ص ٣٦٤-٣٦٥.

<sup>٢٦</sup> كولن باون وبيتر مولاي، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. من. ذ. ص ٢٣٦.

<sup>٢٧</sup> كولن باون وبيتر مولاي، من الحرب الباردة حتى الوفاق م. من. ذ. ص ٢٣٠.

## المبحث الثالث

## تحديات الكيسنجري "التحديات المحلية":

منذ قيام ما اصطلح على تسميته بأزمة الطاقة وتفاقمها، والكتب والدراسات والأبحاث تصدر لدراسة هذه الأزمة وتحليلها، لأنها ضربت بالعمق مصالح الفرد والجماعة في أميركا وبالأذات شتاء عام ١٩٧٢-١٩٧٣م المترلمن مع الحظر النفطي حيث كان هناك نقص حاد في تكلفة المنازل وتلكا في المصانع ووسائل النقل وعجز كبير في معامل التكرير أزام تلبية الحاجات المتنامية لطلب الوقود، ولجوء بعض الشركات الى تخزين الوقود متأثرة بالأخبار القادمة من الشرق الأوسط حول الحرب العربية-الإسرائيلية والحظر النفطي<sup>٢٨</sup> فظهر التأثير الواضح على ركود الاقتصاد الأميركي، فشكل هنري كيسنجر فريق أزمة متكامل يضمن جميع الاختصاصات في حقول الجيولوجيا والكيمياء والصناعة والطاقة والاقتصاد والمال والسياسة والصراع العربي-الإسرائيلي مع خبراء المعلومات التفصيلية لجميع البلدان المنتجة للنفط والمستهلكة له والحقائق والوقائع لمنطقة الشرق الأوسط<sup>٢٩</sup> ومن أهم النتائج التي توصل إليها "أن الولايات المتحدة الأميركية التي كانت تفرض قيوداً متشددة على النفط المستورد لحماية صناعة النفط في الداخل، تحولت منذ مطلع عقد السبعينيات للقرن الماضي الى مستورد رئيسي للنفط" وتزداد كميات استيرادها سنة بعد سنة، لعجز المصادر المحلية على تلبية للزيادات السريعة، وإذا ما استمر استنفاد النفط الداخلي بالشكل الموازي لزيادة هذه الطلبات ستحل الكارثة الكبرى بنضوب النفط ورهن جزء كبير من أرادة أميركا بيد الدولة المستمرة بإنتاج النفط.

وبهذا الصدد عبر هنري كيسنجر عن هذه الأشكالية في أيلول ١٩٧٣[عندما سيرنا دفة السياسة الخارجية على المستوى العالمي في نهاية الحرب العالمية الثانية، فإن للتناسب بين موارنا المحلية وموارد بقية العالم كان كبيراً بحيث كان في وسعنا التغلب على كل مشكله كما كان باستطاعتنا دائماً أن نعوض عن الأفكار بالموارد. أما الان فنحن في وضع نضطر فيه الى تسيير شؤون السياسة الخارجية بطريقة أجبرت على اتباعها أمم أخرى كثيرة عبر تاريخها]<sup>٣٠</sup> وعلم كيسنجر أن الأشكالية النفطية يمكن حلها في "الشرق الأوسط" لسد النقص المحلي، لأن المصادر الأخرى خارج نطاق "الشرق الأوسط" كبحر الشمال والاسكا وألبيا وناجيريا وغيرها لن توازي زيادة الطلب المتوقع<sup>٣١</sup> وهذا ما أكده "جون مكين" رئيس مجلس إدارة شركة كونيكتات أول و رئيس لجنة استشراف الطاقة الأميركية التابعة لمجلس النفط الوطني يوم ٢١ أيلول ١٩٧٢م حيث لخص نتائج دراسات عديدة للمدنيين المتوسط والبعيد، واستنتج أن باستطاعة الولايات المتحدة الأميركية معالجة الحال على نحو حسن على

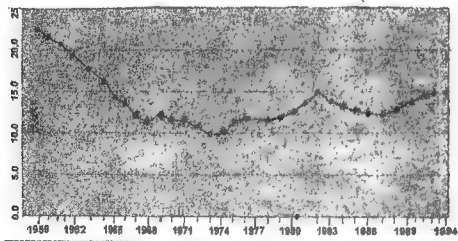
<sup>28</sup> لمزيد من المعلومات أنظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣ ، م. س. د. ص ص ١٩٧ ، ٤٤٦ .

<sup>29</sup> د. عبد الرحمن منيف ، ملاحظات أولية حول السياسة الأميركية في مجالات الطاقة ، مجلة النفط والتنمية ، العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ بغداد ص ٤٩ .

<sup>30</sup> كوان باون وبيتر موني ، م. س. د. ص ٢٤٣ .

<sup>31</sup> د. وليد خلوري ، العوامل المقدرّة في العلاقات النفطية العربية الأميركية م. س. د. ص ٥٤ .

المءى البعبء 'ببباء ٢٨٠ مءطه نووفة ببلف طاقاة كل منها ١٠٠٠ مفا واط ءلال ءمسة عشر عاماف المءبلة<sup>٣٢</sup> "عبف أنه كان اقل تفاولا بشأن المءى المئوسط لتواقه ءصول زفاة فف وارءاء النفط من ءول الأوبك الفف سءعرض ءبافاء المساففة ءلارءفة الى صعبواء ءمة، والفواق المءلف يؤكء ءاءة الى ٥٠% من نفط " الشرف الأوسط" وهف نسبة مءزفاة لماءة سرفعة النفاء الفف لا ءءافوز مءة عطائفا الباقفة مءلفاف ٢٥-٣٠ سنة<sup>٣٣</sup> وءفر من عبف عن ءأفر هءاف الواقع فف ءانبه الأفءصاءف للرفس الأمفركى نفكسون فقف نكر بمءكرأفه [أن الأءباء الأفءصاءف لبلاءه ءءنى بما مءءاره ((١٥)) بلفون ءولاف فف الأشفر الءالفة الأولى من عام ١٩٧٤م من ءراء ءءظر النفطف]<sup>٣٤</sup>. أما عن ءانبه الأفءماعف المءءل الأساسف للقرار السفاسف، فالءمءع الأمفركى قائم على مقوماء نفسفة وعلاقاء أفءماعفة ففضل المصلءة للماءفة للشءصفة على أف التزم لأءلاقف وفق أطار أفءصاءف قائمف قائم على فواصل الفءكولوجفا الفف ءءم الأسءبءال المسمفر بفءكولوجفا مءءءة<sup>٣٥</sup> وهءاف ءءءء تعرض لءظر للءوقف بسبب ءءظر النفطف للأصول ١٩٧٣-١٩٧٤م الفف ءلف ءصءع فف المءمءع الأمفركى ءراء الأرباك الأفءصاءف وءوقف النمو وأرفءاف مءءلاء البءالة والفقر مما أءى الى أرفءاف مءءلاء ءءرفة وءلف بففاب العامل ءءلف والأءلاقف الفف فم الأءباء عفه بمسافءاء كبفره مما ءمل هءف العوءة فف وقف ءءافعااف السلوكفة لاففم إلا عن طرفف عوءة الأفءماش الأفءصاءف ولءءلف من البءالة والفقر وءءءول الأفف بففر الى ءءنى مءءلاء الفقر والبءالة لمءة ءءظر النفطف ١٩٧٣-١٩٧٤ من ءلال فمفرها للواصف فف الفءرة من ١٩٥٩-١٩٩٤<sup>٣٦</sup>.



<sup>٣٢</sup> المصدر نفسه ص ٥٥.

<sup>٣٣</sup> مءمء ءمسنف هفكل ، ءرب ءالفع ، أوهم القوة والنصر ص ٢٠٤ .

<sup>٣٤</sup> مفكراف رفءشارء نفكسون ، ءرءمة وءكفم ء. هافف أءمء فارس ، أفبافا عربفة للءءء ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٢٧٧ .

<sup>٣٥</sup> لمزفء من المءلوماء أنظر فرانس فوكوفاما ، ءصءع العظفم ، ءرءمة عزة ءفسف كفف ، ببفء ءءمة ، بفءاف ٢٠٠٤ ص ٤٤ .

<sup>٣٦</sup> المصدر نفسه ص ٧٨ .

## حقائق واقع الاحتياط العالمي للنفط:

أن مجموع الاستهلاك العالمي قد ارتفع بمتوسط معدلات سنوية بلغت ٥,٥% في أعوام الخمسينيات و ٥% في أعوام الستينيات و ٤,٨% بين عام ١٩٧١ وعام ١٩٧٣، وليس غريباً أن يتوقف النمو بالفعل وبشكل مؤقت آبان الحظر النفطي بنشرين أول ١٩٧٣. وتشير الاحصائيات الى أن العالم الرأسمالي الغربي "الولايات المتحدة-كندا-أوروبا الغربية-أستراليا-نيوزلندا وجنوب أفريقيا" التي تشكل ٥/١ سكان العالم كان يستهلك في عام ١٩٧٤ ٥/٣<sup>٥</sup> الأنتاج العالمي للنفط، بينما العالم الشيوعي "الاتحاد السوفيتي والبلدان الشيوعية في أوروبا الشرقية باستثناء يوغسلافيا، التي تؤلف ١٠/١ من سكان العالم تستهلك قرابة ٤/١ الأنتاج العالمي من الطاقة<sup>٣٧</sup> وتشير جميع الدراسات بان معظم الاحتياطيات النفطية ستختفي في العقود الثلاثة القادمة وحيث أن للمناطق الغربية النفطية التي تمتلك ٤٠% من الاحتياطي النفطي لا تحتوي على مراكز سكانية مكتظة ولا تستهلك الطاقة بصورة كبيرة لغياب الحجم الصناعي الكبير والمتنوع الذي يتطلب استهلاك محلي كبير للطاقة قد تطول مدة نفاذ الاحتياط النفطي فيه ولكن بشروط<sup>٣٨</sup>:

١. بقاء تدلي الاستهلاك في دول العالم المتخلف اقتصادياً ((دول الجنوب)).
  ٢. المحافظة على ارتفاع سنوي للأنتاج بنسبة ٥% لصادرات الأوبك .
  ٣. عدم ظهور رغبة جنوبية لأي بلد في استنزاف احتياطاته بسرعة خارج معدلات زيادة الأنتاج السنوي المعقولة .
  ٤. بقاء معدلات الاستهلاك المحلي للدول المنتجة على حالها والقبول بزيادات طفيفة.
- ولبناء بيان يتضمن اسم الدولة المنتجة للنفط مع السقف الزمني لبقاء الاحتياطي لديها حسب الدراسات والاحصاءات لعام ١٩٧٦<sup>٣٩</sup> وقد سبقتها دراسات مماثلة:
١. نايجيريا-مدة أستنفاد النفط ١٨ عاماً، للآبار الحالية.
  ٢. أندونيسيا - مدة أستنفاد النفط ٢٥ عاماً، تصل الى ٤٠٠ ألف برميل بحلول عام ١٩٨٧ وتحتدر الى الصفر بحلول عام ١٩٩٢.
  ٣. إيران-مدة أستنفاد النفط ٣٣ عاماً إذا استمرت بمستويات الأنتاج من ٦ ملايين برميل يومياً، وإذا استمرت على هذا المستوى أو زادت منه فذلك سيقصر من عمر نفاذ الاحتياط.
  ٤. السعودية-مدة أستنفاد النفط ٣٦ عاماً، وأن مشاريع التنمية الكبرى ستزيد من الاستهلاك المحلي الداخلي الى ١,٥ مليون برميل ليعضغط على الصادرات والمحافظة على عمر النفاذ.

<sup>٣٧</sup> تقرير النفط والتنمية، العدد ١٠ السنة الثاقية تموز ١٩٧٧ ص ١٢٨ .

<sup>٣٨</sup> روبرت تاكر ، مجلة المترجمة في الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية ، بيروت ص ٤٦٠ .

Commentary

<sup>٣٩</sup> ماجد النجار ، تقرير مترجم ، مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ السنة الثاقية تموز ١٩٧٧ ص ١٣٠ .

٥. فوزيلا-حدة أستنفاذ النفط ٢٤ عاماً، يمكن ان يكون عمر الاحتياط أكبر إذا ماتم التغلب على المشاكل الفنية المتعلقة باستثمار حقن ((أورنيكو)) النفطي.
٦. الجزائر-حدة أستنفاذ النفط ٣٦ عاماً مع توقع زيادة الاستهلاك لتصل الى النصف إذا أستمرت الظروف الملائمة للأنعاش الاقتصادي مع إمكانات زيادة إنتاج الغاز.
٧. العراق-حدة أستنفاذ النفط ٤٨ عاماً ((وقد طال عمر نفاذ الاحتياط النفطي له بسبب الحصار الاقتصادي للفترة ١٩٩١-٢٠٠٣م)).

هذه البيانات كانت ماثلة أمام الإدارة الأمريكية، ومثقلة مع الرؤية للركسنجرية التي شخصت مخاطر خنق الاقتصاد الأمريكي الراهلة والمستقبلية، ولذلك لجده يؤكد بهذا الخصوص في مقابلة أجرتها معه مجلة [أنا لا أجزم باستحالة اللجوء الى القوة في كل الظروف. ولكن أستعمال القوة في حالة نزاع Business week على سعر النفط شيء، وفي حالة اختناق حقيقي للعالم الصناعي شيء آخر]٤١. وقد أيد الرئيس الأمريكي جيرالد فورد هذه الملاحظة الكيسنجرية في مقابلة صحفية يوم ٢١ كانون الثاني عام ١٩٧٥ حيث قال [لنني وقد غدت كلمة الاختناق Business week كيسنجر في هنري أويد وجهة النظر التي عبر عنها الكلمة الأساسية الآن]. وقد أعد أنذاك البنناعون سيناريو للتدخل العسكري، وظهرت تصاريح عديدة لوزير الدفاع أنذاك جيمس شلينجر بهذا الصدد٤٢. وبذلك أصبحت الأشكالية النفطية من وجهة النظر الكيسنجرية لانتعلق بالخطر أو بالسعر أو بالانتاج فحسب، بل تتعلق بعودة السيطرة كاملة على المصادر النفطية للحيلولة دون خنق العالم الرأسمالي عن طريق سياسات نفطية لدول الأوبك قد لاتتواءم مع السياسة الأمريكية من ناحية التصرف بالمخزون النفطي لها.

#### الموقف الأوروبي:

كانت حقائق الواقع الأوروبي تشير الى تكثيف الحوار العربي الأوروبي نحو التعاون بالشكل الذي يوازي لاتفاقيات التعاون والتجارة الأوروبية الإسرائيلية. بعد أن وصلت نسبة اعتماد أوروبا على نفط "الشرق الأوسط" الى ٨٠% واعتماد اليابان عليه ٩٠% أما الولايات المتحدة فكانت النسبة ٥٠%٤٣. وكانت أوروبا تنتظر الى دول الأوبك بأنها لم تعد موضع صراع بين الدول العظمى وإنما أصبحت هي بالذات طرفاً في هذا الصراع وطرفه الثاني الدول المستهلكة، وفي المقابل أصبح هنالك وعي تام لدى الدول المنتجة لأهميتها وأهمية مواردها في الاقتصاد العالمي، وكان التقرب الأوروبي يحمل في نتائجه تأثيراً على المكانة الجيوسياسية لأسرائيل والمصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، فنجد بيان الأسرة الأوروبية الذي أصدرته في ٦ تشرين الثاني ١٩٧٣ أي بعد شهر من حرب ١٩٧٣م والحظر النفطي، قد أكد على ضرورة إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي العربية، وأخذ الحقوق المشروعة للفلسطينيين

٤٠ لمزيد من التفصيل انظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية علم ١٩٧٥ ص ٤٥٨ ، ٤٥٩ .

٤١ المصدر نفسه ص ٤٦١ .

٤٢ محمد حسنين هيكل م. ص. ذ. ص ٨٨ .

بعين الاعتبار حين يحل السلام<sup>٤٣</sup> وهو موقف متناغم مع العالم الشيوعي وحركة عدم الانحياز وهذا يرتب عزلة اميركية اسرائيلية، فأوربا ظهر بها الوهن والضعف السياسي بسبب الحقائق الذي أظهرها المسطح الحظر النفطي والمتمثلة باعتمادها على الموارد الأولية من دول الأوبك ودول الجنوب فستورد الطاقة ٩٥% والنفاس ٦٥% واليوكسيت ٥٧% وخام الألمنيوم ٩٩% وجميع ما تتطلبه من الفوسفات والكوبالت ومن خام الصفيخ ٨٩% وجميع حاجاتها من المنغليز ومن التلجستن ٩٥% ومن البن ٩٣% ومن الكاكوا ١٠٠% وتستورد ما تحتاجه للطعام ٢٨%<sup>٤٤</sup>، فكان لابد من اضعاف دول الأوبك لتقوية حليف اميركا ((أوربا الغربية)) وتغطية هذه الوهن بتفعيل النظام الاقتصادي العالمي بصيغ جديدة للتجارة الدولية من أجل عودة للتماسك الرأسمالي أمام العالمي الشيوعي والانتصار عليه، سيما وأن الوقائع للنشاط الاقتصادي تشير الى رجحان الجانب الرأسمالي على الاتحاد السوفيتي بالرغم القوة الاقتصادية الأوروبية + الأميركية تجاه الاتحاد السوفيتي لعام ١٩٧٣م.

عدد السكان	للمصالحات الأوروبية	الولايات المتحدة	اليابان	الاتحاد السوفيتي
٢٥٦,٦٢١	٢١٠,٤٠٠	١٠٩,٣٥٠	٣٤٧,٤٥٩	
مجموع الناتج القومي من الاستراتيجية الجنوبية	٢٧٤,١٧ مليار	٤٦٢,٧٥ مليار	١٠٤,٦٥ مليار	٢٣٩,٦٧ مليار

تحول اميركا بسبب حرب فيتنام وارتفاع أسعار النفط من دائن الى مدین، وظهور اقتصاديات موجهة تنافس الاقتصاديات الأوروبية والأميركية في آسيا وأميركا اللاتينية كإلهند والصين والبرازيل والمكسيك، إلا أن الكيمنجيرية كانت تراهن على سياسة الوفاق في فك الارتباط بين السياسة والأبتلوجية والاعتماد على الجغرافية السياسية وتفعيل التجارة بأدخل انماط جديدة<sup>٤٥</sup> بعد ترتيب للمداخل الأساسية لعودة السيطرة على مصادر النفط.

#### العامل السوفيتي:

عندما أصبح الاتحاد السوفيتي قوة عالمية تعاضمت مصالحه خارج حدوده، وبالذات مع بداية عقد السبعينيات في كل من إيران والعراق، وكان العامل النفطي هو المحور الرئيسي لهذه المصالح. ففي إيران التي تشكل واحدة من أطول الحدود لأية دولة مجاورة له، وتطل على الساحل الشمالي للخليج العربي ومخرجه المحيط الهادي وتغطي مجالا بحريا مهماً يعوضها عن اختناقها المائي تجاه البحر المتوسط، وتاريخ التغلغل السوفيتي أخذ مسارين:

دعاه للمناوئين للنفوذ الغربي وللسلطة في إيران من الثوار والمتمردين وانتشار أحزاب شيوعية وقومية عرضية في الوقت نفسه ((رغم التباين مع توجهاته الشيوعية)) داخل

<sup>٤٣</sup> الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام م. م. ذ. ص ٤٩٩ .

<sup>٤٤</sup> كوان باون ويكر موني م. م. ذ. ص ٢٣٨ .

<sup>٤٥</sup> أسامة المجنوب، العولمة والأقليمية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ١٩٩٩ ص ٢٧ .

المحافظات الأيرانية الشمالية المتداخلة عرقياً ومذهبياً مع دول الجوار في أفغانستان وباكستان وأقاليم البطن الرخوة له في القوقاز وما حزب ثودة والأحزاب الكردية والبلوشستانية إلا دلائل على ذلك، وما اتفاقية ٢٦ شباط ١٩٣١م الموقعة بيد الاتحاد السوفيتي ورضا خان التي أعطت حق للسوفيت حينها بالتدخل العسكري لنصرة إيران ومنحهم امتياز التنقيب عن النفط واستثماره في المحافظات الشمالية إلا دليل على هذا النفوذ<sup>١٧</sup> والنشاط النفطي الروسي بدأ في إيران قبل ذلك بكثير أيام الاتفاق البريطاني الروسي لتقسيم المصالح في إيران عام ١٩٢٠م<sup>١٨</sup> وبعد حصول المواطن الروسي ((خوستريا)) عام ١٩١٦م من رئيس وزراء إيران آنذاك على امتياز التنقيب والاستثمار للنفط مدة سبعون عاماً<sup>١٩</sup> ثم تتابع نفوذ الدول العظمى آنذاك: الفرنسي والهندي والأميركي حتى جاءت التي اكتسبها الأيرانيون في مع الصراعات المتتالية للدول العظمى في إيران وكذلك الهاجس النفسي لشاه إيران في بناء قوة إقليمية قائمة على تصورات وأجداد الماضي السحيق<sup>٢٠</sup> وكذلك رغبة القيادة في العراق على الظهور بمظهر الثورية والتقدمية في أملاكه زمام الحرية الكاملة على ثروة النفط وتسخيرها لخدمة المواطنين لترسيخ سلطتها وتقويتها في فترة تعظيم للشحنات للخطر النفطي عام ١٩٧٢-١٩٧٣م.

### العامل الصيني:

لقد أثبتت الصين دوراً أيجابياً متزايداً في الشؤون الخارجية خلال بداية عقد السبعينيات للقرن الماضي ((فترة ما قبل الحظر النفطي)) وبالذات بعد تثبيت وجودها في كمبوديا لزاء الوجود السوفيتي في فيتنام الذي حل محل النفوذ الأمريكي بعد نهاية حرب فيتنام عام ١٩٧٣م. وأخذ النفوذ الصيني يمتد الى إيران والعراق والخليج العربي طارحاً نفسه كقوة اقتصادية وقائد للعالم الثالث لزاء النفوذ السوفيتي والأميركي معاً<sup>٥٥</sup> فمنذ عام ١٩٧٠م أسس مؤسسات روابط الصداقة مع إيران والعراق والكويت، وإلى مساعداته لتوار طغار في عمان ١٩٧٢-١٩٧٣ لكسب ودها، ثم جاءت زيارة وزير خارجية الصين جي ينسغ عام ١٩٧٣م لأيران لتروي رغبة الشاه في برنامج التسليحي الكبير، وتبعته لنفس الغرض زيارة نائب رئيس الوزراء الصيني كيان بان عام ١٩٧٥، مستغلة تطور نموها الاقتصادي بنسبة ١٠% لزاء حالة الركود الاقتصادي في المعسكر الغربي<sup>٥٦</sup> أن ظهور أحزاب شيوعية خارجة عن الإدارة السوفيتية وتابعة للإدارة الصينية في مناطق الشرق

<sup>48</sup> أندرة نوسشي ، الصراعات البترولية في الشرق الأوسط ، م. م. ، ذ. ١٩٧١ ص ٣٥.

٤٧ محمد كامل محمد ومراجعة د. كمال مظهر ، سياسة إيران الخارجية في عهد رضا شاه ١٩٢١-١٩٤١ جامعة البصرة - ١٩٨٨ ص ١٩ .

<sup>48</sup> انلره نوموشى م.س. ذى ص ۷۵ .

٤٩ س. ن. مكفرلين ، وجهة نظر المصوفيت في استخدام القوة في العالم الثالث ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع ، بغداد ، ١٩٨٩ ص ٢١ .

<sup>80</sup> جارلس ثرب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط ، معهد الدراسات الاستراتيجية الدولي ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع ، بغداد ، ص ٢٢ .

<sup>81</sup> بي هودر ، العالم الثالث ، مشكلات وقضايا ، ترجمة حسن طه ، شركة كازم للنشر والترجمة ، الكويت ١٩٨٢ ، ص ١٩٩ .

الأوسط كانت ظاهرة معروفة، خاصة بعد أن فسر العديد من الشيوعيين التقارب السوفيتي الأمريكي بسياسة الوفاق على أنه خيانه لقضية الشيوعية العالمية، وجاء هذا النفوذ السياسي الصيني ليضيف مشكلة جديدة لمشاكل النفوذ السوفيتي في منطقة "الشرق الأوسط" التي واجهتها الكيمنجيرية لتدخلها في الرؤية للشاملة للمعالجات. وبذلك يكون العامل السوفيتي والصيني يشكلان مدخلا لتهديدات حرية وصول نفط الشرق الأوسط للغرب، عن طريق:

١. إمكانية التدخل العسكري السوفيتي المباشر ضد دولة منتجة للنفط.
  ٢. إمكانية دعم قوة إقليمية أخرى ضد دولة منتجة للنفط.
  ٣. إمكانية قيام تعاون اقتصادي سوفيتي صيني مع اقتصاديات الدول المنتجة بفوض الروابط الاقتصادية والسياسية لهذه الدول مع الغرب، سيما وأن الصراع العربي الإسرائيلي يولد شحنات لبيئة نفسية تساعد على ذلك.
  ٤. إمكانية قيام ودعم حركات تمرد وعنف وأرهاب داخل الدولة النفطية مما يربط غياب الاستقرار الأمني ويعيق تصدير النفط للغرب.
- ولعل هذه الاحتمالات الواقعية هي التي أدت إلى قيام ما يسمى بقوة الانتشار السريع والتدخل العسكري الأمريكي في الخليج مع بداية عقد الثمانينيات استناداً إلى الرؤية الكيمنجيرية لعام ١٩٧٣م في التهيأ لاستخدام القوة العسكرية لضمان وصول النفط من الشرق الأوسط<sup>٥٢</sup>.
- وبذلك نجد أن سياسة الوفاق الدولي من وجهة النظر الأمريكية لم تكن بعيدة عن السياسة الخارجية التي اتبعتها واشنطن تجاه دول الأوبك إثر الحظر النفطي لعام ١٩٧٣م لطبيعة الترابط الواقعي والعملية للعوامل والمؤثرات المحلية والإقليمية والدولية، ولم يسبق لمادة أن اكتسبت مثل هذا الترابط مثل النفط ولم يسبق أيضاً لأي صراع أن اكتسب مثل هذا الترابط أيضاً كالصراع العربي الإسرائيلي.
- النظام المالي العالمي:**

تراكمت عوائد مالية ضخمة لدى دول الأوبك جراء تجارة النفط وهي تتزايد مع الارتفاع المستمر لأسعار النفط طيلة عقد السبعينيات للقرن الماضي. فقد تم تقدير الفائض المالي عن الحاجة المخطط لها لدول الأوبك لسنة ١٩٧٤م بستين مليار دولار<sup>٥٣</sup> وأصبحت هذه العائدات عنصر قوة لاستئناس بها في النظام الدولي إضافة لكونها قوة وطنية لها فعل سياسي لأنها قادرة فعلاً للتأثير على:

١. تعديل التصنيف الدولي للواقع المالية للدول، مما يحدث أرباك في النظام العالمي.
٢. توظيف الثروة المالية في اكتساب القدرات العسكرية التكنولوجية العالية مما يؤدي إلى أرباك موازين القوى الإقليمية.

<sup>52</sup> لمزيد من المعلومات أنظر جيفري ريكورد ، قوة الانتشار السريع والتدخل العسكري الأمريكي في الخليج تعريب عبد الهادي لاصف ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣ م .

<sup>53</sup> أدور منابليه ، إيران مستودع الغرب م. من. ذ. ص ١٧ .



٣. توظيف الثروة المالية في كسب التأييد السياسي والأعلامي بوسائل التسهيلات المالية النفطية والمساعدات والقروض والمنح.

والعوامل المشار اليها أعلاه التي يمتلكها النفط دون المعادن الأخرى، هي التي جعلته عنصراً مهماً في سياسات الدول ، فلو أخذنا الولايات المتحدة كمثال لهذا المبدأ نجدها في سنة واحدة هي سنة ١٩٨٠م استوردت من النفط ما قيمته ٧٤,٩ مليار دولار مقارنة مع ٢,٩ مليار دولار لاستيراد كافة المعادن الأخرى<sup>٥٤</sup>، فالعوائد المالية الضخمة لدول الأوبك رتبت تأثيراً على هيكل النظام الاقتصادية والنقدية والسياسية، وهذا مايفسر حركة الاستقطاب الذي حققته هذه الدول في مجموعة عدم الانحياز وعموم دول العالم الثالث في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية حول قضاياها كالصراع العربي الإسرائيلي.

جدول يوضح معالم النظام الاقتصادي الدولي لعام ١٩٧٥م.

المجموعة الدولية	تسكان/مليون	الدخل السنوي للفرد الدولار / ١٩٧٥	الأميين البالغين
الدول الفقيرة جداً	١٢٠٠	١٥٠	٦٢%
الدول الرأسمالية الفنية	٧٠٠	٥٥٠٠	١%

جدول الإيرادات النفطية في أقطار اوبك ١٩٧٢ - ١٩٧٧ بالآلاف الدولارات الأميركية<sup>٥٥</sup>.

	١٩٧٢	١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧
المجموعة	٤٣٤٠	٢٢٦٠٠	٢٥٧٠٠	٣٢٥٠٠	٣٧٨٠٠	١٢,٨%
إيران	٤١٠٠	١٧٥٠٠	١٨٥٠٠	٢٢٠٠٠	٢٣٠٠٠	٤,٥%
العراق	١٨٤٠	٥٧٠٠	٧٥٠٠	٨٥٠٠	٩٦٠٠	١٢,٩%
الكويت	١٩٠٠	٧٠٠٠	٧٥٠٠	٨٥٠٠	٨٥٠٠	١٢,٩%
الامارات العربية	٩٠٠	٥٥٠٠	٦٠٠٠	٧٠٠٠	٨٣٠٠	١٨,٩%
قطر	٤١٠	١٦٠٠	١٧٠٠	٢٠٠٠	١٩٠٠	٥,٥%
ليبيا	٢٣٠٠	٦٠٠٠	٥١٠٠	٧٥٠٠	٩٤٠٠	٢٥,٣%
الجزائر	٩٠٠	٣٧٠٠	٣٤٠٠	٤٥٠٠	٥١٠٠	٢٤,٤%
البحرين	-	٧٠٠	٨٠٠	٨٠٠	٨٠٠	-
أبوظبي	-	٧٠٠	٥٥٠	٨٠٠	٥٠	-
مجموع دول اوبك	٢٢٥١٠	٩١٩٠٠	٩٤٧٠٠	١١٦٦٠٠	١٢٨٤٠٠	١٠,٦%

<sup>٥٤</sup> المصدر نفسه ص ٣٨ .

<sup>٥٥</sup> عالم النفط، المجلد الحادي عشر العدد ٢، المنشور في مجلة قضايا عربية للعدد ١١ لسنة ١٩٨٠ ص ٧٠ - ٧١ .

## المبحث الثالث

## استراتيجية المواجه

كانت أهم مبادئ الاستراتيجية التي وصفها كينسجر يتضمن:

١. الأممك بزمام عملية البحث عن حل لأزمة الشرق الأوسط، على أن لا يخرج هذا الحل عن الرؤية الكونية لأهداف الولايات المتحدة، وخاصة تلك المتعلقة بالنوايا الظاهرية لسياسة الوفاق والمخفية منها.
  ٢. القبول بارتفاع أسعار البترول، والعمل على امتصاص الفوائض المتولدة من زيادة الأسعار وتكديرها بواسطة البنوك الأميركية الكبرى، وتشجيع الأموال الباقية في يد العرب على أنماط في الاستهلاك وتلبية متطلبات ثقافة التسليح وتكاليف الحروب والمنازعات التي ستخلفها ((سياسة تفتيت مجتمعات الملل)).
  ٣. كسر أي تحالف بين السياسة الخارجية لدول الأوبك مع السياسة النفطية لدولهم ((أي فصل النفط عن السياسة)).
  ٤. عزل دول الأوبك عن العالم الثالث، وكسر كافة الروابط التي قامت جراء برامج التسهيلات النفطية والمساعدات والقروض مع خلق بيئة نفسية تثقل تحميل العرب أعباء التضخم المالي العالمي.
  ٥. تشجيع السادات وحلفاء واشنطن القدامى، على<sup>٦٥</sup> أخراج السوفيت تماماً من الشرق الأوسط سياسياً واقتصادياً.
  ٦. تأخير قيام نظام أقليمي لحين تقويض مقدرات جميع الأنظمة والأحزاب المناوئة لواشنطن والمتحالفة مع موسكو أو بكين.
- ولتفسير هذه الاستراتيجية دون الخوض في تبريرات رحيل كينسجر عن موقع الوزارة ومجئ غيره، بسبب بقاء استمرارية هذه الاستراتيجية، استراتيجية المواجهة لغاية اليوم. فقد اتسمت خطط هذه الاستراتيجية على سياسات قصيرة الأمد، ومتوسط الأمد وبعيدة الأمد.
- المدى القصير:** امتصاص الصدمة والعمل الفوري بسياسة مكوكية حركية ((دبلوماسية المفاوضات المباشرة والمكثفة والصريحة)) مقرونة بالتهديد وتقديم بعض التنازلات، القبول بزيادة الأسعار وزيادة الإنتاج أو تخفيضه ولكن لاجال لبقاء الحظر النفطي، واستطاعت واشنطن أن ترفع الحظر هي وحلفائها بشكل تدريجي ابتداءً من ١٨ آذار ١٩٧٤م لغاية ٢٥ شباط ١٩٧٣م ((بإستثناء اليابان للبعيدة نسبياً عن الصراع في الشرق الأوسط فقد رفع عنها الحظر في ٢٥ كانون الأول ١٩٧٣م)) مستغلة النقل الهام لمصر في معادلة الصراع والاتفاق مع رئيسها السادات بالمقايضة لقاء تدخله لرفع الحظر الذي طلبه هو أصلاً، أما الطرف الثاني المهم الغير عربي "إيران" فقد أدركت واشنطن دوافع قبول الشاه للحظر وزيادة الأسعار والتي كان أهمها هو تغطية نفقات شراسته للتسليح وبناء الجيش القوي الكبير للعب

<sup>66</sup> لمزيد من المعلومات أنظر محمد صنين هوك، حرب الخليج، م. س. د. ص ٩٠، كذلك د. عبد الرحمن منيف، ملاحظات حول السياسة الأميركية في مجال الطاقة مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ ص ٤٩ و د.وليد خوري العوامل المؤثرة في العلاقات العربية، الأميركية م. س. د. ص ٥٥.

الدور<sup>٥٧</sup> الأقليمي الذي طالما حلم به الشاه جاء هذا الأجراء البالغ للتعقيد والأهمية مع جملة من الأجراءات على الصعيد المحلي داخل الولايات المتحدة، فقد أعمدت سياسة نفطية داخلية قوامها مشروع الاستقلال في الطاقة للرئيس نيكسون عام ١٩٧٤<sup>٥٨</sup> ومشروع كارتر لعام ١٩٧٧ في سياسة الطاقة القومية أنقاص الأعتدال على النفط الأجنبي من خلال:

١. أنقاص أستيرادات النفط حتى تصبح نسبة الأنقاص ١٠% لعام ١٩٧٧.
٢. وضع عوازل في جميع أبنية السكن.
٣. ترشيد أستهلاك السيارات لوقود المحركات.
٤. زيادة أنتج الفحم لأستخدامه في بعض المجالات بدلا عن النفط.
٥. أستعمال الطاقة الشمسية في الكثير من الدور السكنية .
٦. تعجيل الخطوات في إنشاء شبكة من المحطات للطاقة النووية بالتعاون مع حلفائها الأوربيين.

ومن هنا تدخل في المدى المتوسط ثم المدى البعيد في عودة كامل السيطرة على مصادر النفط في العالم، فخطوات العمل الحثيث في الطاقة النووية، أدت إلى ثورة نووية حقيقية بفضل الحظر النفطي، فقد تحول العالم من وجود "١٩" دولة تمتلك ١٦٨ مفاعلا نووياً عام ١٩٧٥م إلى نحو "٤٠" دولة تمتلك أكثر من "٤٠٠٠" مفاعل نووي تنتج أكثر من ٣٢٠ مليون<sup>٥٩</sup> كيلوواط عام ١٩٨٣م، ووصلت أنسيابية العلوم النووية لأغراض الطاقة إلى جميع جامعات الولايات المتحدة، حتى أن قصة الطالب "جون فويلب" أحد طلبة جامعة بريسطن معروفة للجميع عندما أتم عمل تصميم لصنع قبيلة نووية لأشطارية يوم ٩ تشرين الأول ١٩٧٦، تقدر بثلاث قوة للقبيلة التي ألقبت على هيروشيمان<sup>٦٠</sup>، المهم هنا أن الطاقة النووية الداخلة في بعض الأستخدامات البديلة للطاقة النفطية سجلت تقدم نسبتي في أنقاص أعتدال واشتطن على النفط المستورد لحل مرحلي يتناسب مع الضغط المؤقت لوقف نمو المشاريع والأنتعاش الأقتصادي.

الحرب العربية الإسرائيلية لعام ١٩٧٣م:

الأمساك بزمام عمليات حل الصراع العربي الإسرائيلي بسياسة الخطوة خطوة المكونة بالشكل الذي يؤدي إلى فك ارتباط أستخدام النفط كأداة مرافقة للعمل السياسي العربي، أي لتجريد السياسة العربية من مقومات قوتها التي ظهرت على السطح في وحدة الموقف أولاً وثانياً في توظيف الحاجة المتزايدة للنفط العربي، على أن يتم هذا بشكل لا يتقاطع مع الإستراتيجية البعيدة المدى في أمتصاص عائدات النفط المالية وعودة سيطرة المستهلكين على أنتاج النفط وتصديره وتسييره وأستخدامه.

<sup>٥٧</sup> محمد حسنين هيكل ، حرب الخليج م. م. ذ. ص ١٠٥ ، كذلك دجورج طعنه ، النفط والعلاقات العربية الدولية م. م. ذ. ص ١٣ .

<sup>٥٨</sup> تقرير منشور في مجلة النفط والتنمية ، العدد ١٠ لسنة الثانية تموز ١٩٧٧م ص ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

<sup>٥٩</sup> رفعت السيد أحمد ، الأمن القومي العربي ، م. م. ذ. ص ٩١ .

<sup>٦٠</sup> هنري كوستنجر ، درب السلام الصعب ترجمة علي مخلد ، الدار العالمية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٤ م ص ص ٩٢ .

كذلك أن يكون العمل في حل هذا النزاع مرادف لمبار تقييص وطرذ النفوذ السوفيتي عن المنطقة، ورغم هذه المهام الصعبة والبالغة التعقيد فقد كان كيستنجر يؤمن بقدرة المفاوضات المباشرة والمتكررة في تحقيق النتائج المطلوبة، فهو يقول بهذا الصدد "إن الدبلوماسية في مفهومها الكلاسيكي تقوم على تقريب وجهات للنظر المختلفة عن طريق المفاوضات  
المقايضة؛

استطاع كيستنجر أن يقايض بين تحقيق رغبة مصر في فك الحصار عن الجيش الثالث المحاصر في الضفة الغربية لقناة السويس، حتى نجح في ١٨ يناير ١٩٧٤م في انسحاب القوات الإسرائيلية وفك حصار الجيش الثالث المصري الذي كان موقفه سيء جداً في الناحية العسكرية ومؤهل لاحاق هزيمة عسكرية مؤلمة لمصر<sup>٦١</sup> بعد أن أخذ ضمانات من الرئيس المصري لنذاك أنور السادات برفع الحظر النفطي عن الولايات المتحدة الأمريكية، وفعلاً تم ذلك في ١٨ مارس ١٩٧٤م<sup>٦٢</sup> وجاء رفع الحظر لجهود أساسية بذلها الرئيس السادات، وضحها في رسالة بعثها في ٢٧ يناير ١٩٧٤م إلى الرئيس الأمريكي يشير بأنه طلب من جميع الملوك والرؤساء العرب وخاصة دول الأوبك لرفع الحظر النفطي عن الولايات المتحدة وحلفائها، وقد وضع الرئيس المصري ذلك في خطاب القاه للشعب المصري ليوضح فيه أنه هو الذي طلب الحظر النفطي دعماً للمعركة، وهو الآن يطلب من العرب رفعه أيضاً لدعم المعركة<sup>٦٣</sup> وجاء بعد ذلك التغيير الكامل للسياسة الخارجية المصرية بدرجة ١٨٠° من الطرف السوفيتي إلى الطرف الأمريكي ليعزل مصر عن أي مشاركة محتملة للمجابهة العسكرية أو الساخنة مع إسرائيل، واتجهت مصر في بناتها الاقتصادية والعسكري صوب المعسكر الغربي مستفيدة من القروض والتسهيلات والمساعدات<sup>٦٤</sup>.

وعندما لاحظت واشنطن بأن الاتحاد السوفيتي والصين يسعيان في اتجاه عدم رفع الحظر النفطي، ومقاومة موسكو تقرر واشنطن بالحل في "الشرق الأوسط" على اعتبار أنها ترعى مؤتمر جنيف المزمع عقده لحل الصراع عام ١٩٧٤م، ولم تكن تحسب بأن كيستنجر سيقوم من خلال زيارته المكوكية بمحسب البساط عنها، وحل الصراع بالطريقة الأمريكية مما جعلها في موقف محرج عبرت عنه أعلامياً في المحافل الدولية وسياسياً من خلال تعميق تعاونها مع سوريا، بيد أن واشنطن ساومتها بالمقايضة عن طريق التهديد بأيقاف المساعدات الأمريكية لها والمنصوص عنها بقانون منح الاتحاد السوفيتي شرط الدولة الأولى بالرعاية في العلاقات التجارية المقدم للتصديق عليه أمام الكونجرس الأمريكي<sup>٦٥</sup>، وكذلك

<sup>٦١</sup> د. أسماحيل صبري مقلد، الصراع الأمريكي، السوفيتي حول الشرق الأوسط هذا القاهرة ١٩٨٥ ص ٣٦٧ ٣٦٣.

<sup>٦٢</sup> لمزيد من التفاصيل أنظر الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٣م ص ٦٣٤.

<sup>٦٣</sup> محمد حسنين هيكل، حرب الخليج أو هام القوة والنصر، م. س. ذ. ص ٨٥.

<sup>٦٤</sup> أنظر د. جورج طعنه، النفط والعلاقات العربية الدولية، م. س. ذ. ص ٢٥، كذلك الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٥م م. س. ذ. ص ٤٢٧.

<sup>٦٥</sup> أسماحيل صبري مقلد، الصراع الأمريكي السوفيتي حول الشرق الأوسط م. س. ذ. ص ٣٦٧.

التهديد بأيقاف مباحثات الحد من أنتشار الأسلحة الاستراتيجية بعد التوقيع على المعاهدة الأولى ((سالت ١)) عام ١٩٧٢م، والعمل المشترك للتوقيع على معاهدة ((سالت ٢)) في عام ١٩٧٦م، بيد أن العامل الأول لمقايضتها كان عن طريق معاهدة الأمن والتعاون الأوربي التي وقعت لاحقاً في آب ١٩٧٥م، وأعترفت الاتفاقية بحدود أوربا، كما تلت ألمانيا الغربية عن ادعائها بأنها للدولة الألمانية للشرعية الوحيدة، وحصلت موسكو على اعتراف رسمي بالوضع الراهن من الناحية الإقليمية<sup>٦٦</sup> أما مقايضة الصين فكانت أسهل وهي التوافة للحصول على الاعتراف الكامل بها بدلاً عن تايوان وكانت حريصة على أتمام حضورها للفاعل في الأمم المتحدة ومجلس الأمن، ناهيك عن سماعتها بقفز إيراداتها المالية للمتأينة من فتح الأسواق الأمريكية لبضائعها من ٥٠ ملايين دولار عام ١٩٧١م إلى ٥٠٠ مليون دولار عام ١٩٧٣م<sup>٦٧</sup> وبذلك تحقق فك الارتباط السوفيتي-الصيني عن الحل في "الشرق الأوسط" آنذاك، ومع وجود الرغبة المصرية جسدت الكيسجربة مقدراتها في نزع عن مصر تجسيدها لتأثير القومية العربية، والتعامل معها كدولة مصرية<sup>٦٨</sup> لاتستطيع الإوابك التعويض عنها عند أي مواجهة عسكرية مع إسرائيل ورغم أنها واجهت مقاطعة وأنحصر نفوذها عربياً وبالذات<sup>٦٩</sup> بعد زيارة السادات للقديس يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧م، ولكنها دخلت العالم بثوب جديد من خلال بوابة التحالف مع واشنطن وأوربا الغربية وتل أبيب بفضل جهودها في رفع الحظر النفطي عنهم، وظهورها الدولي بمظهر الدولة المساعية للسلام والاستقرار المانحة للدور الأمريكي في المنطقة ، كما وأن خروجها عن الأطار العربي آنذاك ساعد في إظهار التناقضات الأيدلوجية والسياسية للأنظمة العربية للقومية الأمترائية واليسارية والملكية والقبلية... الخ، وكانت المقايضة خاسرة للطرف العربي الذي يملك التفوق آنذاك وراحة للطرف الأمريكي الإسرائيلي رغم للضعف الواضح في العديد من عناصر القوة السياسية "الشرق أوسطية" آنذاك.

مخطط تفتيت مجتمعات الملل:

كان غياب التعاون الإقليمي لوضع استراتيجية الأمن الإقليمي مع وجود ثغرات أمنية داخلية في البنى الاجتماعية السياسية والاقتصادية والثقافية لجميع دول الإوابك العربية الغنية بالنفط واحتياطه جعل من احتمالية نجاح فرض المفهوم الأمني النفطي الأمريكي وفق الرؤية الكيسجربية سيظل مسيطراً على عقول المساسة في واشنطن وسيططي قوة للأمن القومي الإسرائيلي وفق مبدأ تبادل المنافع في اتجاه تفتيت عناصر القوة في الجسم العربي وبالذات بعد خروج مصر منه ضمن سياسات فرض الحلول والحيلولة دون تمكن الدول العربية النفطية من توظيف المتغيرات الدولية في محاولة للخروج من هذا المازق<sup>٧٠</sup>.

الفرارح الأمني الإقليمي:

<sup>66</sup> كوان باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الولاقي م. س. ذ. ص ٢١٤ .

<sup>67</sup> كوان باون وبيتر موني ، من الحرب الباردة حتى الولاقي م. س. ذ. ص ١٦١ .

<sup>68</sup> محمد حسنين هيكل ، حديث المباشرة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، بيروت ١٩٨٥م ط٦ ص ١٧٦ .

<sup>69</sup> المصدر نفسه ص ٢١٤ .

<sup>70</sup> رفعت سيد أحمد ، الأمن القومي العربي بعد حرب لبنان ، شؤون عربية العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٤ ص ٩٣ .

في اوائل عقد السبعينات من القرن الماضي تعرض أمن الخليج العربي والدول المرتبطة به ((إذا ما استبعدنا ليبيا والجزائر الواقعة في الجناح الأفريقي، وهما غير مؤثران بدون الترابط والتعاون مع دول الخليج العربي، ناهيك عن أحتوائهما لنفس الأمراض السياسية والاقتصادية والاجتماعية)) نقول تعرض لأزمة حادة لما عرف بأسم "الانسحاب البريطاني من شرق السويس" وكان الشغل الشاغل في ذلك الحين ما سمي بـ ((ملئ الفراغ الأمني)) الذي تركته بريطانيا<sup>٧١</sup>، وحيث أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تعد الخطى لهذا الغرض إلا أن حرب تشرين الأول ١٩٧٣م والحظر النفطي الناتج عنها أعطى لهذه الخطوات اهتماماً أكثر من ناحية الاساليب والأدوات، فهي إذ كانت تعد أيران لهذا الغرض بالتعاون مع حلفائها التقليديون إلا أنها فضلت الحضور بشكل مباشر أو غير مباشر مع أحداث بعض التغييرات الكينجيرية في ناديب الدول المعنية بقرار الحظر وصولاً إلى عودة هيمنة الشركات النفطية العملاقة التابعة لها على نפט المنطقة.

#### التهديد الداخلي لأمن دول الخليج العربي:

شكلت حقائق الميراث التاريخي من تفشي الروح الانفصالية ووجود الحسابات والخلافات بين الإمارات الخليجية، وقيام النظام السياسي على الأساس القبلي والعائلي وتسلط القيم والعلاقات الاستبدادية في ظل غياب النظم والتشكيلات الديمقراطية والاجتماعية المتنامية، وظهور الانقسامات المذهبية والعرقية والاثنية بين الشيعة والسنة وانقسامات اثنية لأصول عربية وفارسية وباكستانية وهندية مع صراعات الحدود بين العراق والكويت الذي تخلفه تصعيد إلى اشتباكات عسكرية منذ عام ١٩٦١م، وكانت آخر هذه الاشتباكات في مارس ١٩٧٣م، كذلك الخلاف بين البحرين وقطر حول مطالب متناقضة، والخلافات بين السعودية حول واحة البوريمي مع أبو ظبي وسلطنة عمان، والخلافات الحدودية بين السعودية واليمن، والأحتلال الأيراني للجزر العربية الثلاث "طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو مس" الواقعة في مدخل الخليج التي هي عبارة عن خزان نفط في امتداداتها تحت الماء<sup>٧٢</sup> ناهيك عن الخلافات الأيدلوجية والسياسية بين العراق وسوريا في قيادة التنظيمات القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي صوب الهدف المثالي في قيادة الأمة العربية المقترون بصراعهما على النفوذ في الساحة اللبنانية والفلسطينية، سعياً وراء الاجتهاد في لعب الدور الأقليمي الكبير الذي تنافسهما فيه أيران المتجهة نحو توسيع ترسانته العسكرية والتي جعلت من تدخلها في عمان عام ١٩٧٣م لمحاربة ثوار ظفار كإشارة أولية على لعب دور شرطي الخليج وأملاء الفراغ الأمني فيه بالتنسيق مع واشنطن، أن طلب شاه أيران للقدره العسكرية الرادعة والمناسبة تحت غطاء مواجهة الاتحاد السوفيتي عندما يخاطب العالم الغربي في إحدى المناسبات قال الشاه للمفبر الأميركي في طهران عام ١٩٧٤م "لأنه كلما اتسعت القوة العسكرية الأيرانية في المقاومة كلما تردد السوفيت في إرسال قطعاتهم عبر الحدود، وإذا كان الأمر يتطلب إرسال قوة سوفيتية واحدة لن يتردد الروس في إرسالها، أما إذا تطلب الأمر

<sup>٧١</sup> حارس ترب، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط، م. س. د. ص ١٨.

<sup>٧٢</sup> أسامة غزالي حرب، أمن الخليج والأمن القومي العربي، شؤون عربية العدد ٣٥ لسنة ١٩٨٤.

أرسال عدد من الفرق العسكرية فسوف يتردد الكرملين من أن يفعل ذلك<sup>٧٣</sup> ولكنه في الوقت نفسه طور تعاونه مع السوفييت حول الغاز منذ عام ١٩٧٠م ولتكشف ذلك في مرونة الدفع وتطوير العلاقات مع أوروبا الشرقية الشيوعية مثل تمديد تمديد القروض بقيمة ٧٨٠ مليون دولار وتجهيزها بالنفط عبر الأنابيب ((بان-أذربايجان)) وهذا ما يفسر أهتمام العالم الشيوعي من انتقاد الشاه المباشر، الذي كان يمارس سياسة توازن القوى بين العالم الشيوعي والرأسمالي خدمة لرغبة كامنة له في قيام دور إيراني كبير في المنطقة<sup>٧٤</sup>. وهذا يصب في مخرجاته في غياب نظام أمني لدول الأوبك الغنية التي فرضت الحظر النفطي، ناهيك عن غياب التماسك للمجتمعات السياسية لدول الأوبك المتزامن مع ظهور صراعات عرقية ومذهبية في أنظمة خالية من أبسط الممارسات الديمقراطية فأيران التي نفوسها ٤٠ مليون ((حسب أحصاء عام ١٩٧٣م)) يتكونون من ٣/١ فرنس، وأكثر من ٥,٥ مليون من الأذربيجانيين وأكثر من ٤,٥ كرد العرب يشكلون أكثر من مليونيين في جنوب غرب إيران، والتركمان والبوش حدود ثلاث ملايين، وهذه الأقليات العرقية لها امتدادات اجتماعية ودينية ومصحية بدول الجوار لإيران في الشمال والغرب والشرق.

بيد أن غالبية السكان ٩٠% يدينون بالمذهب الإسلامي الشيعي، الذي يتواصل خارج حدود إيران إلى العراق حيث يتواجد أكثر من ٥٥% من المسلمين فيه شيعة، وفي الكويت أكثر من ٢٤% والأمارات العربية ١٨% وقطر ١٦% ولبنان أكثر من ٣٠% (١)، أما في السعودية فيشكل الشيعة ٥٠% في المناطق الشرقية الغنية بالنفط ولكنهم يشكلون ٨% من مجموع سكان السعودية، ناهيك عن ارتباط كرد إيران مع أكراد العراق وتركيا في أوضاع القلاقل الأمنية والسياسية المضطربة في هذا المثلث لعدة عقود ضمن سياسات القهر العنصري والفكري والتهجير.

والغريب أنه مع هذا الخلل الواضح في للتركيبات العرقية والطائفية نجد غياب واضح لسياسات تعاونيه اقتصادية أو مالية أو أمنية أو عسكرية، فالسوق الاستهلاكية متنوعة ومصادر التسليح مختلفة ومنهاج التعليم متضادة، والأيدلوجيات متناقضة، والعملات النقدية محيرة ومختلفة، والثقافات الفرعية هي لطاغية على الثقافات الموحدة الشاملة، انعكس كذلك في<sup>٧٥</sup>:

١. غياب الفكر الاستراتيجي الموازي للفكر الاستراتيجي للكيستراتيجية .
٢. غياب القيادات المؤهلة لخوض تحديات ، كتحدّي النفط تجاه الدول العظمى .
٣. وجود ثغرات أمنية وسياسية واقتصادية بأماكن الطرف الآخر التغافل خلالها لتقويض مقدرات دول الأوبك... وهذا ما حصل.

<sup>73</sup> جارس قرب ، الأمن الأقليمي في الشرق الأوسط، ص. ٢٣٣ ص. ٦٤ .

<sup>74</sup> المصدر نفسه ص ٢٢٩ .

<sup>78</sup> جومس ر. كورث ، تدخل القوى العظمى في الشرق الأوسط ، ترجمة مديرية التطوير القتالي ، وزارة الدفاع العراقية ، بغداد ، ١٩٨٩م ص ٢٥٨ .

## وكالة الطاقة الدولية : "OECD"

هي وليدة لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية للدول الصناعية الغربية التي كانت تستهلك ٣/٢ من نفط دول الأوبك. لذلك جاء انشاء وكالة الطاقة الدولية كاجراء سريع في قيام منظمة دولية تحت رعاية واشرفا واشنطن لمواجهة تأثير منظمة الأوبك الدولي، وهي ثمرة لجهود كيسنجر الذي أمثل نفوذاً واسعاً في مجلس الأمن القومي في أوائل السبعينيات وربط هذا النفوذ مع مركزه كوزير للخارجية سنة ١٩٧٣م، ومقدرته في إقامة نمط جديد في أسلوب السياسة الخارجية الأميركية يتسم بالمركزية والسرية والتطابق التام مع رئيس الدولة الذي وصفه الكاتب اهارتلي (ان مشاركة الرئيس نيكسون والوزير كيسنجر كانت مشاركة غير مألوفة فعلاً، فقد كانت مبنية على تجانس في التفكير والمزاج قلماً يوجد بين رئيس ووزيره)<sup>٧</sup>، وفي زمنه كان التمييز أكثر وضوحاً في الطابع العلني في اتخاذ القرارات والطريقة اللامركزية لها، مع احتوائها على خطته الظاهرة والمخفية، وتفضيل أسلوب الدبلوماسية الشخصية والتفاعل المباشر مع زعماء الدول الأخرى، وأطلق على دبلوماسية كيسنجر بدبلوماسية والخطوة خطوة التي تعني (القليل فالقليل) ولذلك جاء التحرك "Jet Diplomacy" الطائفة النفائة مترابط في حل تهينة الصراع العربي الإسرائيلي مرافقاً لانشاء جبهة نفطية لقتصادية تساهم في تقويض الجبهة العربية للنفطية ، ففي فبراير ١٩٧٤ أعلن مؤتمر واشنطن عن قيام وكالة الطاقة الدولية، وهي منظمة تهدف إلى السيطرة على المنتجات النفطية من خلال مواجهة منظمة الأوبك بجعل تداول النفط محكوماً بقواعد المستهلكين وليس البائعين وفق للمبادئ التالية:

١. خلق آلية أجرائية، في العرض والطلب والتسويق.
  ٢. تنسيق سياسات الدول المستهلكة وبالات الصناعية الكبرى في مجالات رسم سينورات البدائل وترشيد الاستهلاك.
  ٣. تفعيل التعاون والتسويق مع شركات النفط العالمية الكبرى.
  ٤. وضع خطط طوارئ في تخزين النفط والبحث عن مصادر خارج دول الأوبك.
  ٥. تنسيق سياسات الاستهلاك الداخلي من ناحية التسمير وصناعة المشتقات النفطية.
  ٦. وضع ستراتيجيات بعيدة المدى.
  ٧. القيام بحملة اعلامية مستدامة ضد دول الأوبك لتحميلها كافة تداعيات النظام الاقتصادي الدولي وخاصة تلك التداعيات التي تعرض لها دول الجنوب الفقيرة.
- جاءت وكالة الطاقة الدولية بعيدة عن مواصفات الوكالات المتخصصة الدولية فهي بعيدة عن الشمول ولم تتحدث باسم جميع شعوب الأرض وعضويتها محصورة على الأعضاء المؤسسين اللذين تحرك عليهم بشكل فاعل الوزير كيسنجر وهم دول "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية" التي تضم أوروبا الغربية واليابان والولايات المتحدة الأميركية " لم تضم فرنسا فيها. لأعتقادها بأن أسلوب الحوار مع العرب أفضل من المواجهة " وأصبح



عدد أعضائها آنذاك تسعة عشر دولة<sup>٧٧</sup> ونستطيع أن نقول أن هذه الوكالة أثبتت نجاحاً نسبياً لأنها استطاعت أن تمتص الأزمة النفطية العالمية التي تكررت عام ١٩٧٩م في مجالات زيادة الأسعار وتخفيض الإنتاج، أثر ارتباطك السياسة النفطية لدول الأوبك بعد الثورة الإسلامية في إيران واختلافها مع السعودية والعراق في توزيع الحصص وسقف الإنتاج ومعدل الأسعار، حيث طالبت إيران بزيادة ١٥-٢٠% في الأسعار<sup>٧٨</sup> وكان لعامل السياسة المالية في دعم إيجاد البدائل السريعة الممكنة وترشيد الاستهلاك وإصلاح إعادة تنظيم أليات وهياكل النمو الاقتصادي وتمويل البحث عن مصادر أخرى للنفط خارج دول الأوبك، وسياسة عودة الرأس المال النقدي للدول الصناعية الكبرى من خلال ثلثة ثقافة السلاح وسباق التسليح في الشرق الأوسط بتصدير كميات كبيرة من السلاح إليها كلها لعبت دوراً في تخفيض وطأة الأزمة النفطية الثانية<sup>٧٩</sup> لعام ١٩٧٩م .

#### السياسة المالية ل واشنطون وحلفائها:

في الساحة المصرية تحركت السياسة الأمريكية المالية لتحمل عبء الاعتمادية المصرية من الجانب العربي البترولي الى الجانب المالي الأمريكي، وجاءت التعديلات القانونية الاستثمارية المصرية للأعوام ١٩٧٤-١٩٧٧ لتواكب هذا التغيير وتساعد فيما يتعلق بدخول رأس المال الأجنبي وخروج أرباحه، أو فيما يتعلق بالقروض والمساعدات المالية والاقتصادية الأمريكية<sup>٨٠</sup>. وفي حديث للسيد لطفي الخولي الذي كان يعتبر آنذاك من المعارضين البارزين لسياسة الانفتاح الاقتصادي المصري على السياسة الاقتصادية والمالية الأمريكية، فهو وصف البيئة النفسية للقطاع الاقتصادي معبراً عنها بأنها كانت تلوم الاتحاد السوفيتي الذي كان عاجزاً عن مساعدة مصر عسكرياً واقتصادياً، فجاءت دعاية التصريحات للوزير كينسجر لتصور مستقبل مشرقاً للعلاقات المصرية الأمريكية التي جوهرها العروض والمساعدات بملايين الدولارات الأمريكية لحل للمشاكل الاقتصادي المصري، هذه البيئة النفسية تم صياغتها لتعزيز سياسة عزل مصر عن الصراع العربي الاسرائيلي وتدعم السياسة النفطية الأمريكية التي تخدم الاستراتيجية التي صاغها كينسجر<sup>٨١</sup> بالأفراد بالدول النفطية.

أما على الساحة السعودية التي يرادف اسمها مع اسم النفط لدى الأمريكان، فكان البحث عن الأمن الاقليمي هاجس مهم لدى السلطة السعودية الطبيعية المتفكر الأيديولوجي بينها وبين العراق وإيران، ورفضها إقامة أي نشاط علني أو سري يهدد لأمنها، ومن هنا جاءت حاجتها الى التطمينات الأمنية مع واشنطون مقابضة بالتعاون الاقتصادي والمالي والنفطي خاصة بعد تثبيت وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية والسورية وانحراف مصر نحو

<sup>77</sup> لمزيد من المعلومات أنظر د. جورج طعمه ، النفط والعلاقات العربية الدولية م. س. ذ. ص ٤٦ .

<sup>78</sup> جارلس تريب ، الأمن الاقليمي في الشرق الأوسط م. س. ذ. ص ٧٠ .

<sup>79</sup> حسن بكر م. س. ذ. ص ١٦٥ .

<sup>80</sup> أنظر تقرير المجموعة الاستشارية الدولية التابعة للبنك الدولي للأشياء والتصوير ، مجلة النفط والتنمية العدد ١٠ السنة الثانية ١٩٧٧ بغداد ، ص ١٣٩ .

<sup>81</sup> لمزيد من المعلومات أنظر الحوار الذي أجراه هارون هشام رشيد مندوب فلسطين في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم آنذاك مع السيد لطفي الخولي، شؤون عربية، العدد ٨ لسنة ١٩٨١م ص ٢٢٧-٢٣٨ .

للتعاون مع واشنطن بعيداً عن موسكو، لذلك نجد أن السياسة النفطية السعودية جاءت موائمة مع الرغبات الأميركية والأوروبية ودلّلت على ذلك نشاط السعودية داخل منظمة الأوبك نهاية عام ١٩٧٣م فجدتها ضد تحركات اعضاء آخرين من أجل المحافظة على أسعار النفط وكميته المنتجة، فنجد الموقف المصنف في هذا الاتجاه لدى وزير النفط السعودي آنذاك محمد زكي يمانى في اجتماع منظمة الأوبك أيلول ١٩٧٥م حيث قاد حملة ضد زيادة الأسعار<sup>٨٢</sup> لمساعدة اقتصاد أوروبا وأميركا الذي مازال يعاني من آثار حظر عام ١٩٧٣م، ذلك الاقتصاد الذي ارتبط أكثر بالاقتصاد السعودي، فقد رفضت استبدال الدولار كتسعيره للنفط، بل وزادت انتاجها بنسبة ٢٥% للفترة ١٩٧٨م لغاية شباط ١٩٧٩م لسد النقص الحاصل في إنتاج النفط الأيراني، ولحماية الاقتصاد الغربي من الخسائر والأرباك في الوقت الذي أصبحت السندات الدولية لوكالة النقد السعودية تشمل أكثر من "١٥" بليون دولاراً في غرب أوروبا عام ١٩٧٧م موزعة في بريطانيا وفرنسا وسويسرا واليابان والولايات المتحدة الأميركية، بل جعلت السعودية ٥ بلايين دولار اضافية يتم تداولها داخل فرنسا بالتعاون مع أميركا، وخلال الأعوام ١٩٧٧-١٩٧٨م ارتبطت عولق للنفط السعودية المالية بالنظام التعددي الغربي والأميركي بشكل خاص فكانت "٣٥" بليون دولار من الموجودات للعملة الأجنبية العائدة للسعودية بحماية الحكومة الأميركية وأكثر من "٢٤" بليون دولار من الاستثمار الإضافي، وكانت تعادل ٨٥% من نسبة الفاوض<sup>٨٣</sup> المالي المتأتي من العائدات المالية لمبيعات النفط التي كانت سابقاً تأخذ طريقها في المجهود العربي العربي ومساعدات دول العالم الثالث في خلق استقطاب معادي للغرب وتحالفاتهم مع إسرائيل.

أما على الساحة العراقية، فإن نسبة تكاليف المشاريع الصناعية والنفطية هنا أو هناك لا تشكل نسبة كبيرة في أمصاص عائدات النفط المالية الضخمة التي تجمعت بحوزة العراق أثر الزيادات الكبيرة في أسعار النفط للأعوام ١٩٧٣-١٩٧٩م سيما وأن العراق آنذاك كان يلهج سياسة اقتصادية متنوعة أغلبها قائم على التعاون مع العالم الشيوعي في إطار حكومة ذات اقتصاد مركزي، بيد أن حاجته الأمنية والداخلية والإقليمية وما ترتب عليه من تكاليف باهضة جراء الحرب العراقية-الإيرانية وطول منتهى نسبة للحروب الإقليمية الأخرى ١٩٨٠-١٩٨٨م أخرجت معظم العائدات المالية لشراء السلاح نحو البنوك العالمية، وينطبق هذا الأمر مع إيران في هذه المدة.

لنصبح الفاوض المالي لأهم اعضاء منظمة الأوبك ((العراق-إيران-السعودية ودول الخليج العربي)) في حلقات النظام المالي العالمي المسيطر عليه من قبل الغرب الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة، وكما مبين في الجداول أدناه:

٤,٧% استثمارات وودائع مصرفية بالدولار في الولايات المتحدة

٤,٢٧% وودائع مصرفية في دول أوروبا الغربية

٢٧,٤% تسهيلات واتفاقيات ثنائية خارج بريطانيا والولايات المتحدة

<sup>82</sup> جارلس ترب، الأمن الإقليمي في الشرق الأوسط م. من. ذ. ص ٦٩.

<sup>83</sup> أنس مصطفى كامل، المنفوعات والأبرادات العربية في الثمانينيات بالدولار الأميركي أم بالدينار العراقي ضلها عربية العدد ١٠ لسنة ١٩٨٩ ص ٦٨.

- ٨٠,٥% فوائد للمنظمات الدولية للتنمية  
٣٠,٥% سندات على الحكومة البريطانية وودائع بالأسترليني في بريطانيا  
٣,٢% استثمارات أخرى<sup>٨٤</sup>.

ونموذج آخر لجداول يوضح استخدامات الفوائض النفطية في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كاهم دولتين للعدة الاستخدامات وبقية الدول الأخرى أغلبها دول أوروبا الغربية لسنتين فقط بعد الحظر النفطي ١٩٧٥-١٩٧٦م<sup>٨٥</sup>.

الولايات المتحدة الأمريكية	الدول الأخرى	الدول الأخرى	الدول الأخرى	الدول الأخرى
١٢,٥%	٤,٥	١٢	٤,٣	(١) بريطانيا - الأجنبي منها : - ودائع مصرفية بالأسترليني - ودائع مصرفية بسلات أخرى - حوالات الخلية البريطانية
٢٤,٥%	١١,٥	٢٨	١٠,٠	(٢) فوائد المتحدة الأمريكية منها: - ودائع مصرفية - سندات الخزانة الأمريكية - استثمارات مالية وعقارية
٤٦%	١٥,٢	٤٩	١٧,٤	(٣) الدول الأخرى - ودائع مصرفية - تسهيلات ثنائية خاصة و استثمارات وأقروض لتدويل التنمية
٦%	٢,٠	١١	٤,٠	(٤) المنظمات الدولية
١٠٠%	٢٢,٢	١٠٠	٣٥,٧	الأجنبي

وفي تحليل للبيانات الواردة بالضرورة للنصف للشهيرة لصندوق النقد الدولي بأن تقديرات العوائد النفطية للدول المصدرة للنفط قد بلغت "IMF Survey 1977" ١١٣,٣٤. 4. 1977 بلون دولار خلال عام ١٩٧٦م -قارئة بما قيمته ٩٧ بلون دولار عام ١٩٧٥م أي بزيادة ١٧%، أما قيمة الفوائض النفطية المستثمرة في الخارج أنخفضت من ٣٥,٧ بلون دولار إلى ٣٣,٢ بلون أي بما قيمته ٢,٥ بلون دولار وينسبة ٧% بسبب زيادة في استيرادات بعض الدول النفطية تتركز بصفة أساسية في عدد من الدول العربية التي هي السعودية، الإمارات العربية والكويت، وقد جاء هذا الانخفاض لمحصلة لزيادة قيمة الفوائض المستثمرة في الولايات المتحدة وبريطانيا على حساب تقليصها<sup>٨٦</sup> في البلدان الأخرى وهذا يوضح رهن للفوائض المالية بالاقتصاد الأمريكي والبريطاني.

تخفيض سعر الدولار وارتفاع سعر الذهب:

<sup>٨٤</sup> المصدر نفسه ص ٨٣ .

<sup>٨٥</sup> محمد صبحي الأتربي ، صفحة تقارير ، النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧ ص ١٥٠ .

<sup>٨٦</sup> المصدر نفسه ص ١٤٩ .

الدولار هو التسعيره لمبيعات النفط، والفوائض المالية للدول النفطية جراء بيع نفوطهم يتم ايداعها في البنوك الأجنبية أو في مضامين الاستثمارات المختلفة والقروض يتم تسعيرها بالدولار، وبذلك يكون انخفاض سعر الدولار الأمريكي وأرتفاع سعر الذهب الذي وصل نهاية عقد السبعينات إلى ٦٦٥ دولار للأوقية في سعر الأقفال ببورصة لندن<sup>٨٧</sup> وبذلك خسر الدولار منذ بداية عقد السبعينات وحتى نهايتها بالتقريب ٤٠% من قيمته لصالح أرتفاع سعر الذهب، وتشير كافة تقارير المحللين لذلك إلى عدم وجود تدخل فاعل لحماية الدولار من هذا التدهور الذي الحق خسائر مالية فادحة للقوة الشرائية لفوائض الدول النفطية، علماً أن الدولار الأمريكي لم يكن وجدة تسعيره لبيع النفط فحسب بل كان يشكل ٩٠% من العمليات التجارية الدولية آنذاك ((قبل ظهور اليورو)) وبذلك تكون دول الأوبك قد خسرت ٣/٢ من قيمة القوة الشرائية للدولار مقارنة للاعوام ١٩٧٤-١٩٧٩م<sup>٨٨</sup>.

**سباق التسليح في الشرق الأوسط :**

جاءت نتائج حربي ١٩٦٧-١٩٧٣م بين العرب وإسرائيل في بناء أسباب الصراع مع إضافة عامل تصعيد جديد هو الخطاب السياسي المتكرر في الأجواء الصحفية للوزير كيسنجر، في إطلاق التهديدات المتضمنة الخيار العسكري ضد الدول العربية النفطية<sup>٨٩</sup>، وتبع ذلك ظهور صراعات عرقية ومذهبية وأيدلوجية لدول إقليم ((الشرق الأوسط))، أدى كل ذلك إلى سباق محموم للتسلح في الشرق الأوسط، خمس التي كانت تعتمد في تسديد تكاليف تسليحها على الدول النفطية التي بلغت عام ١٩٧٣م ((٢٧٥٧)) مليون دولار، وعام ١٩٧٤م ((٤٠٧١)) مليون دولار، ناهيك عن تكاليف تسليح الدول النفطية نفسها، بيد أن المستفيد الأول كان مايزال مصدري الأسلحة، فأبنا نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت تسيطر على السوق العالمية منذ عام ١٩٦٥م وحتى عام ١٩٧٤م، إذ أنها صدرت ٤٩% من مجمل الصادرات العالمية، وأن ٤٠% من مجمل الأموال التي حصلت أميركا في العام ١٩٧٦-١٩٧٧م كانت ناجمة عن تصدير الأسلحة والذخائر، وسياسة التسليح للمصدرين وخاصة واشنطن كانت قائمة على مبادئ<sup>٩٠</sup> المنفعة المالية لحل العديد من مشاكل الدول المصدرة الاقتصادية والاجتماعية:

١. بسط السيطرة والنفوذ من خلال خلق الاعتمادية بين الدولة المصدرة والدولة المستوردة ((لأن التسليح يحتاج إلى تدريب وصيانة وتواصل علاقات أمنية وعسكرية)).

<sup>٨٧</sup> أنس مصطفى كامل ، المنفوعات والإيرادات العربية في الثمانينات م. من. ذ. ص ٦٤ .

<sup>٨٨</sup> المصدر نفسه ص ٧١ .

<sup>٨٩</sup> أمثال الوزير كيسنجر بكثرة اللقاءات الصحفية "الشعبية" في عملية خلق بيئة نفسية محزنة تتقبل أراءه في السياسة الخارجية. وجاءت ظروف فضيحة وثرغيت لتضع الرئيس الأمريكي نيكسون في مواقف لا يستطيع منه الحركة بحرية كذلك التي تهيأت للوزير كيسنجر ، وقد وظف كيسنجر هذه القضية لمصلحة حرية تحركاته ، لمزيد من المعلومات أنظر ، الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ص ٣٤٦ .

<sup>٩٠</sup> الكتاب السنوي للقضية الفلسطينية لعام ١٩٧٤ ص ٣٣٢ ، ص ٢٥٣ .

٢. التلخلص من السلاح القديم لتجديد ترسانات الدول الصناعية الكبرى من الأسلحة الأكثر حدائه لتطوير قدراتها وضمان أستمداة تفوقها، وإن الرهان على تناقص أهمية تجارة السلاح في للدول المصدرة يكاد يكون وهما لطبيعة المكاسب والمنافع الجمة المتأتبة عنها.

ولذلك نجد أن سياسة تصليح دول الشرق الأوسط، جاءت متطابقة مع السياسة الخارجية والنفطية لواشنطن في أمتصاص عوائل النفط وخلق حاجات ضرورية وعديدة لدول المنطقة باتجاهها في عودة السيطرة على مناطق تصدير النفط وهذا ما يفسر بالتغيير الذي حدث على الدول النفطية الغنية في الشرق الأوسط والتي كانت تملك فوائض مالية ضخمة في بدايات عقد السبعينات إلى دول تسعى لمطابقة حاجاتها مع مداخيلها بعد تورطها في حروب أفليمية ((الحرب العراقية-الأيرائية ١٩٨٠-١٩٨٨-حرب الخليج الثانية ١٩٩٠-١٩٩١)) وصراعات عرقية ومذهبية وحدودية، بيد إن الوضع الأقتصادي الذي وصلت اليه الدول النفطية في بداية عقد التسعينات من القرن الماضي كان يعتبر للغرب للرأسمالي ولواشنطن هو تحرير النظام المالي من ضواغط الدول النفطية، وعودة لتدوير أموال الشرق الأوسط في النشاط الأقتصادي الرأسمالي، وعودة للروح إلى مؤسستي بريتون وودز في أبرام اتفاقيات الدول النامية ((دول الجنوب)) مع صندوق النقد الدولي [بعد أن كانت هذه الدول تبرم الاتفاقيات الأقتصادية ذات المضمون السياسي مع برامج التسهيلات النفطية التي كانت ترعاها دول الأوبك طيلة عقد السبعينيات من القرن الماضي]<sup>٩١</sup> وكانت اتفاقيات للدول النامية وصندوق النقد الدولي تشترط تقليص دور الدولة في العملية الألتانجية لأحداث الموائمة المطلوبة مع النظام الأقتصادي العالمي، وبذلك تم تحقيق المطابقة بين السياسة المالية الأقتصادية مع السياسة الخارجية لواشنطن وحلفائها في أوربا الغربية واليابان، لتحقيق الأستثمار لهذا المثلث أربعة أضعاف معدل نمو الناتج العالمي، وثلاثة أضعاف معدل نمو التجارة الدولية، بينما سيطرت المؤسسات المتعددة للجنسيات النفطية منها والأقتصادية التابعة لهذا المثلث على ٨٠% من هذه الأستثمارات المملوكة لهذه المؤسسات حوالي ٢ تريليون دولار وهو ما يمثل قرابة خمسة أضعاف قيمتها في عام ١٩٧٩<sup>٩٢</sup>.

<sup>٩١</sup> لمزيد من المعلومات أنظر د. خلاف عبد الجبار : استخدام العائدات النفطية في حساب التسهيلات النفطية وأثاره - النفط والتنمية العدد ١٠ لسنة ١٩٧٧م مطبعة الأديب ، بغداد ، ص ٩٢ .

<sup>٩٢</sup> لمزيد من المعلومات أنظر ، أسامة المجنوب ، العولمة والأقليمية ، الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ١٤٠٠م لسنة ٢٠٠٠م ص ٣٤ ، ٣٧ .

## ١٩٤ اثر الكينجيرية في السياسة الاميركية النفطية

جدول يوضح حصة الشرق الأوسط من صادرات الأسلحة لأكبر المصدرين بين العام ١٩٧٠ و العام ١٩٧٦  
(( المصدر معهد سيبيري - التسليح الدولي - ستوكهولم ١٩٧٨ م ))

الجهة المصدرة	إجمالي قيمة الأسلحة مقدراً بملايين الدولارات للمصدر الثالثية للعام ١٩٧٥ م	النسبة المئوية من مجمل القيمة في العالم	لغز المنطقة تسليماً للأسلحة	نسبة المنطقة من الإجمالي العالمي	لغز الدول تسليماً للمسلح في مثل هذه المنطقة	نسبة ما تسلمت البلد إلى إجمالي ما زود به المصدر
الولايات المتحدة	١٢٢٠٢	٣٨	الشرق الأوسط الشرق الأقصى أمريكا الجنوبية	٦٢ ٢٧ ٧	إيران فرنسا الجنوبية البرازيل	٣١ ١٢ ٢
الاتحاد السوفياتي	١١٠٥٧	٣٤	الشرق الأوسط شمال أفريقيا الشرق الأقصى	٥٧ ١٣ ١٧	سورية ليبيا فرنسا الجنوبية	٢٣ ١٣ ٧
الملكة المتحدة	٣٠٧٦	٩	الشرق الأوسط أمريكا الجنوبية جنوبي آسيا	٤٩ ٢٢ ١٤	إيران كشمير الهند	٢٩ ٨ ١٢
فرنسا	٢٩٦٢	٩	شمال أفريقيا الشرق الأوسط أمريكا الجنوبية	٢٤ ٢٢ ١٨	ليبيا مصر الجزيرة	١٩ ٥ ٦

جدول يوضح المصروفات العسكرية لبلدان العالم الثالث مقدرة بملايين الدولارات الأميركية ووفق أسعار عام ١٩٧٣ م ، ومعدلات التحويل للعام نفسه  
" المصدر معهد سيبيري - التسليح الدولي ١٩٧٩ م "

العام	١٩٥٧	١٩٦٦	١٩٧٠	١٩٧٦	١٩٥٧-١٩٦٦	١٩٦٦-١٩٧٦	حسب معدلات التحويل
الشرق الأوسط	١٠٢٥	٢٨٧٥	٦١٢٥	٢١٥٢٥	٢٠٨	٧٠٥	٢٢٧٩٦
جنوبي آسيا	١١٠٠	٢٢١٣	٢٨٥٦	٢٣١٥	٢٠١	١٠٤	٣٨٥٠
الشرق الأقصى	٢٩٠٠	٤٩٢٩	٧٠٦١	٩٠٠٠	١٠٧	١٠٩	١٢٨٦٩
أفريقيا ومن مصر	٢٠٠	١٣٩٧	٢٥١٧	٦٢١٠	٤٠٧	٤٠٤	٨٦٢١
أمريكا الوسطى	٣٥٠	٦١٧	٧٦١	١١٥٠	١٠٨	١٠٩	١٣٩٦
أمريكا الجنوبية	٢٠٠٠	٢١٧٩	٢٨٠٧	٤٠٦٠	١٠١	٢	٤٥٢٠

## الخاتمة

لعل قراءة كتاب *The White House Years* By Henry Kissinger *Weidefld & Niclson 1979* الذي يقع في أكثر من ألف وخمسمائة صفحة لمذكراته وملاحظاته يعطي فرصة للقارئ في تحليل وجمع الأفكار والسياسات للكيسنجرية، وإذا أراد القارئ أن يربطها بمجمل السياسات والأفكار التي سبقها مسبقها بالتأكيد نمطاً يفرز الكثير من التجديد في التخطيط والتنفيذ للسياسة الخارجة النفطية للولايات المتحدة الأمريكية، وإذا ما أخذنا موضوع بحثنا المتعلق بالجزء الثاني من كتابه المذكور، مسند قوة وفاعلية وغرابة التخطيط والتنفيذ عندما أنتزع فصل السياسة النفطية العربية من حيثيات الصراع العربي الاسرائيلي والى الأبد، مقابل أصحاب اسرائيل من كامل سيناء المنزوعة السلاح والمائدة لمصر التي أصبحت صديقة واشنطن والعاملة على طرد النفوذ السوفيتي منها ومن المنطقة.

والحقيقة الثانية هو ذلك التشخيص البالغ الخطورة لأهمية الاقتصاد من خلال سلعة النفط الاستراتيجية كأداة في الصراع والمواجهة مع العالم الشيوعي الذي تكاثف نفوذه وقوة شوكتة ووصلت حلقات نفوذه إلى "الشرق الأوسط" وجيران الولايات المتحدة الأمريكية، ناهيك عن سيطرته على أهم المواقع المطلّة على الممرات المائية العالمية، فكان الطرد التدريجي لهذا النفوذ بأعادة أحياء القوة الاقتصادية والموائمة بين السياستين الخارجية والنفطية، وعدم قبول الهزيمة والتقهقر من الشرق الأوسط كما حصل في فيتنام، حصل هذا في داخل بيئة نفسية أميركية ترفض الحرب وتصعيد النزاعات أثر الخسائر البشرية والمادية لحرب وشنطن الطويلة في فيتنام، وفي بيئة نفسية دولية قائمة على الانفراج الدولي وتجنب الحروب التي قد تؤدي دمار شامل أثر الانتشار للسلاح النووي ومقنوفاته الجوية والأرضية والبحرية، والحقيقة الثالثة تلك الصياغة العملية في السيطرة على تفاعل الأحداث إلى الشكل الذي أدى بعودة الرأسمال النقدي من الدول النفطية الغنية إلى الشركات العملاقة التسليحية والنفطية والصناعية المترابطة في الاقتصاد العالمي الرأسمالي من خلال خلق حاجة أمنية مستديمة لدول المنطقة تنفعهم على الدوام باتجاه واشنطن، الكيسنجرية أعطت منافع جمة للولايات المتحدة الأمريكية لم تتحدد بأعول العمل الرسمي للوزير كيسنجر ١٩٧٢م- ١٩٧٧م، بل تعدت ذلك لتضع بصماتها في مجمل التغييرات التي أدت إلى انفراد واشنطن على قمة النظام الدولي بعد نهاية عقد الثمانينات للقرن الماضي.





## عرض كتاب:

## التوازن العسكري ٢٠٠٤-٢٠٠٥

نشر وترجمة مركز البليج للأبحاث - الإمارات

المدرس المساعد

سهيلة عبد الأنيس<sup>(١)</sup>

نشر الكتاب اسلا باللغة الإنكليزية من قبل مطبعة جامعة أكسفورد لصالح المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية ٢٠٠٥  
عدد صفحات الكتاب ٦٨٤ صفحة

منذ نهاية الحرب الباردة أصبحت المنهجيات التقليدية في التفكير العسكري والتخطيط الدفاعي تفوق قدرة الحكومات على التعامل مع التهديدات المتنوعة والمتصاعدة التي تمثلها دولة اخفقت في اداء وظيفتها او جهات فاعلة غير دولية، وكانت احداث الحادي عشر من ايلول ٢٠٠١ خير دليل على ذلك، الى ذلك فان تطور مفاهيم الدفاع في بعض البلدان يبقى رهينة ارادة الحكومات واعتباراتها السياسية مما يحد من قدرتها على التصدي للتحديات الجديدة في الوقت المناسب.

ان دراسة التوازن العسكري ٢٠٠٤-٢٠٠٥ التحليلية تظهر ان هذا الاتجاه مازال قائماً في بعض الدول، وبدأت دول اخرى في ايجاد طريقة للعمل بفاعلية اكبر ضد طفرة التهديدات العالمية التي تسببها العولمة وتحرير التجارة وضعف الحدود، وفوق هذا فثمة اشارات الى تعاون عسكري اكبر بين دول كانت على خصومات تاريخية، مما يشير الى امكانية ظهور اتجاهات جديدة في التعاون الدفاعي.

ان التخطيط الدفاعي في عام ٢٠٠٤ (أي بنية القوات المسلحة وتجهيزها واستخدامها) كان تخطيط معقد بسبب الطبيعة غير المتبلورة للتهديدات الامنية التي زاد عددها، والتي فرضت تحديات على سيادة الدول بالمعنى المفهوم تقليدياً، ولهذا تقوم الحكومات حالياً بالبحث عن طرق جديدة تتصدى بها الاخذة في التشاؤك اكثر فاكثراً، فالارهاب والتجارة غير المشروعة والجريمة المنتظمة امور محكمة التشاؤك، كما ان ازدياد عدد الجماعات المسلحة غير الحكومية ذات القدرات العسكرية يعتبر تحدياً متنامياً، حيث ان كثيراً من هذه الجماعات تتعاون فيما بينها تعاوناً تجارياً وعسكرياً ايضاً، ولذلك فان التحدي المفروض على الدول يتمثل في ايجاد طريقة تتكامل من خلالها قواتها المسلحة وقوات ضبط الحدود وقوات الشرطة في تركيبة بنوية تستطيع ان تتعامل مع لخطار القرن الحادي والعشرون وتديرها ادارة فاعلة وفق نهج يتسم بالملاساة والتناغم.

<sup>(١)</sup> كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية.

من هنا أخذ البعض يفكر جدياً في مفهوم وكالات الامن المشتركة وميزات الامن المشتركة وكذلك لمكانية ايجاد نوع من المبادئ المشتركة لمساعدة القوات المسلحة الوطنية، (كل وفق تقاليده وخبرته) على مواكبة المهام الكبيرة والمتنوعة التي تولجها، فبعض الدول تعمل على احدث برامج تحول خاصة بها لاجاد طريقة عمل شبكية في الدفاع والامن، وان كانت الانظمة الشبكية سيظل اثرها محدود ما لم تتكامل وتتوافق مع انظمة الدول الاخرى. وتركز البرامج الاكثر تطوراً بصورة متزايدة على الانظمة القضائية وتحاول ان تندمج كل وكالات الامن الحكومية في قالب شبكي مركزي يتمكن من تنفيذ عمليات سلسلة ومتكاملة على مستوى دولي.

ان التغيير في بنى التحالف التقليدي وظهور تحالف التوافق متعددة الجنسيات او ما يسمى...ائتلافات الراغبين...التي تحشد لتكوين عدد كاف من القوات لتنفيذ العمليات، قد نتج عنه تجميع عدد كبير ومتنوع من "الحلفاء المؤقتين" وقد انتج ذلك تحديات جديدة من جهة التوافقية وامكانية التنفيذ المشترك للعمليات، بيد انه حتى بين حلفاء الاطلسي والشركاء الائتلافيين يظهر امكانية التنفيذ المشترك للعمليات كقضية معقدة وليس ذلك لاسباب تتعلق بالتوافقية التكنولوجية فحسب، مما يؤكد ان "التوافقية النفسية" بين الحلفاء تتطلب ايضاً درجة من المرونة غير متوفرة في الوقت الحالي.

فالولايات المتحدة على سبيل المثال تولج مشكلات في امكانية العمل المشترك مع بعض حلفائها، لان تركيزها على "القتال الحربي" الذي يفرط في التشديد على الحماية بالقوة العسكرية لا ينسجم بسهولة مع عمليات دعم السلام او تلك التي تم تحديدها ضمن ما يعرف باسم مهمات "بترسبرغ" ان الائتلاف في العراق يعوزه التماسك بين عشر الى خمس عشرة دولة مشاركة فيه والتي تشكل فرقة متعددة الجنسيات، وليس اقل ما يحد من ائتلافها افتقارها الى لغة عمليات مشتركة.

قسم الكتاب الى ثلاثة اجزاء جاء جزءه الاول تحت عنوان امكانيات واتجاهات. تناول فيها الامكانيات العسكرية للقوى الدولية الكبرى امريكا الشمالية وخاصة للولايات المتحدة الامريكية وكندا ثم لوروبا والناطو وامكانيات اوربا خارج حلف الناتو وروسيا ثم الشرق الاوسط وشمال افريقيا ووسط وجنوب اسيا وشرق اسيا واستراليا ودول الكاريبي وامريكا اللاتينية ثم بلدان افريقيا وجنوب الصحراء.

ويشير الكتاب الى ان سياسة الامن والدفاع الامريكية اتجهت نحو العمل على تعزيز مؤسسات الدفاع والامن الامريكية من تطوير المبادرات المعجلة في تقرير الدفاع ربع السنوي لشهر ايلول ٢٠٠١، والذي حاول ان يبتعد بتفكير الدفاع عن النموذج الحالي والمستند الى التهديدات والانتقال به الى اسلوب منظور يركز على القرارات حيث ان الاسلوب المتبع لتحقيق هذا الجهد تمثل في تحويل للقوات العسكرية الامريكية لتصبح ضعيفة الحركة واكثر قابلية للانتشار، هذا بالإضافة الى اجراء اصلاحات تنظيمية محددة شملت توسيع قيادة العمليات الخاصة، الى ذلك يبين الكتاب حجم القوات العسكرية العاملة في الولايات المتحدة الامريكية وادرج ذلك في جدولاً تفصيلياً يوضح فيه حجم القوة العسكرية للولايات المتحدة الامريكية من حيث عدد القوى العسكرية العاملة والاسلحة والمعدات حتى نهاية عام ٢٠٠٥.

لما عن أوروبا داخل حلف الناتو فقد اشار الكتاب الى ان الجدل ما زال متواصلاً حول الدور المستقبلي لحلف الناتو في بيئة دولية متغيرة، ففي شباط ٢٠٠٥ أكد الأمين العام الجديد للناتو "ياف دي هوب شيفر" في خطاب القاه في المعهد الدولي للدراسات الاستراتيجية في لندن مجدداً الحاجة الى تطوير القدرات والامكانيات حتى يتسنى للحلف تلبية المهام الجديدة الملقة على عاتقه، وذكر كخطوات رئيسية في هذه العملية قوة الرد التابعة للناتو وتمهد "براغ" بتطوير الكفاءات ومركز القيادة المتحالفة للتطوير، ووضح ذلك في جدول تفصيلي.

اما فيما يخص دول أوروبا خارج الحلف، فقد ركزت هذه الدول جهودها على الإصلاح والتحول العسكري، وقد بين الكتاب امكانيات هذه الدول. وفيما يخص لمكانات روسيا العسكرية فقد اشار الكتاب الى ان روسيا عملت من جهتها على اجراء اصلاحات عسكرية قام بها الرئيس "بوتين" كأحدى اولويات القوات المسلحة في روسيا الاتحادية، ولكن وفي العام ٢٠٠٣ تباطات وتيرة هذه الإصلاحات بسبب تأثير الانتخابات الرئاسية ونتيجة لحالة التوتر المتزايد بين "سيرجي ايفانوف" وزير الدفاع و"الانطولي كفاشين" رئيس هيئة الاركان العامة.

واشار الكتاب الى تشديد الرئيس "بوتين" على الحاجة الى ممارسة السيطرة المدنية على القوات المسلحة وعلى اهمية تطوير ادارة شؤون الدفاع وبنية القوات المسلحة، ووضح حجم الامكانيات العسكرية الروسية في جدول تفصيلي.

وحسب وجهة نظر الكتاب ان الشرق الاوسط سيبقى منطقة يستمر فيها الحفاظ على القوات الثابتة المخصصة للدفاع الوطني اكثر منها للدفاع الجماعي السمة المميزة لقوائم الجرد الخاصة بها.

فقوات الدفاع الإسرائيلية تحتفظ بدرجة عالية تقدر بـ (١٦٨) ألف فرد وتتمثل مهامها العسكرية الرئيسة بإخماد التهديدات المنطلقة من الأراضي الفلسطينية مع دعم قدراتها الأمنية المركزية في البحر وحماية حدودها الشمالية في وجه التهديدات القادمة من لبنان وسوريا.

بيد ان ما يمكن تصوره عن ازدياد التهديد الذي يمثلته برنامج الصواريخ الباليستية الإيراني اخذ يمثل أولوية لوضع خطط الدفاع الإسرائيلي، كما ان فوز العناصر السياسية المحافظة والمتشددة في الانتخابات العامة في شباط في إيران والمخاوف المستمرة من طموحات إيران النووية وموقفها المعادي لأمريكا وفر أرضية للقلق على الأمن الإقليمي، غير ان جهود ليبيا في نزع الأسلحة بشكل طوعي أظهرت طريقاً بديلاً للتعامل مع قضية انتشار أسلحة الدمار الشامل، إضافة الى تحسين الوضع الأمني في الشرق الأوسط على وجه اعم، ويمثل استمرار الوجود العسكري الأمريكي في العراق بؤرة تجذب اليه الجماعات الإسلامية المسلحة غير الحكومة، ولتي اختار كثير منها العراق كميدان للمعركة في الفترة الراهنة، كما ظهرت سلسلة من الحملات لقمع المتطرفين "الإسلاميين" وتشهد جمهورية اليمن حالة عصيان مسلح تقوده جماعات مسلحة شمال العاصمة صنعاء يفترض ان لبعضها علاقة بالقاعدة، وكانت القوات اليمنية الحكومية حتى منتصف آب تتابع عملياتها الهجومية على هذه

الجماعات، في هذه الأثناء يستمر الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي باعتباره عاملاً أساسياً محرضاً في كثير من حالات العنف الإسلامي ويأتي هذا في وقت تقوي فيه إسرائيل وضعها الدفاعي، وهي التي يرى كثير من العرب أنها على علاقة لا انفصام فيها مع الولايات المتحدة.

ويستعرض الكتاب الوضع العسكري في العراق ما بين ٢٠٠٤-٢٠٠٥ وإيران وإسرائيل وسوريا ولبنان ودول مجلس التعاون الخليجي.

أما وسط وجنوب آسيا فما تزال الصراعات تعكر صفو الحياة وتفسدها في هذه المنطقة حيث ما زالت عمليات المجابهة والتمرد ومكافحة الارهاب تمثل محور اهتمام كثير من الحكومات. ويشير الكتاب الى حجم الامكانيات العسكرية وتطوراتها في كل من الهند والباكستان وسريلانكا والنيبال وبنغلادش وأفغانستان، وتطرق الكتاب الى بيان حجم الامكانيات العسكرية في كافة دول المنطقة بالتفصيل.

وتناول الجزء الثاني من الكتاب البيانات الاقتصادية المتعلقة بدعم ميزانية الدفاع في دول كل من الولايات المتحدة اذ شهدت ميزانية الدفاع الامريكية للعام المالي ٢٠٠٥ زيادة تقدر بـ (٧,٢%) في التمويل المطلوب لميزانية الدفاع الى جانب الميزانية الاضافية التي خصصت لتغطية النفقات العسكرية في العراق ٢٠٠٤ وعملت دول حلف الناتو الاوروبية من جهتها الى دعم ميزانيتها العسكرية بالشكل الذي يسهم في تطوير بنيتها العسكرية. واستعرض للكتاب حجم الدعم المالي للميزانية الدفاعية لدول اوربية خارج حلف الناتو وروسيا ودول الشرق الاوسط وافريقيا ووسط وجنوب آسيا وشرق آسيا واستراليا ودول الكاريبي وامريكا.

وتناول القسم الثالث من الكتاب النشاطات غير الحكومية مشيراً الى مجموعات مسلحة غير حكومية موجودة في كافة دول العالم مقسماً في جداول موضح فيها اسم القوة غير الحكومية وحجمها ومكان تواجدها.

وختم للكتاب في القاء نظرة عامة على الارهاب العالمي، مشيراً ان الارهاب ازدادت مخاطره بشكل واضح بعد احداث حرب العراق التي بدأت في اذار ٢٠٠٣، الى ذلك احتوى الكتاب العديد من الجداول التفصيلية الخاصة بالقدرات العسكرية للدول كافة.

وهنا يمكن القول ان ما لحتواه الكتاب من بيانات واحصاءات دقيقة وتفصيلية تشير الى ان حجم الامكانيات العسكرية والميزانيات المالية المخصصة للدفاع في تزايد مستمر خصوصاً من قبل القوى الدولية الكبرى وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية التي اخذت على عاتقها مكافحة ما عرف بالارهاب الدولي.

عوض بكتّاب:

## الزبونية السياسية في المجتمع العربي

قراءة اجتماعية سياسية في تجربة البناء الوطني التونسي

تأليف: د. حافظ عبد الرحيم

المدرس المساعد

نصر دحام الشاوي<sup>(١)</sup>

يتباين مفهوم النخبة في المجتمعات حسب تطورها فلو تأملنا المجتمعات البدائية نجد الشعراء وكهنة المعابد والسحرة هم من يمثل دور متقني المجتمع أي النخبة وفي المجتمع البدوي نجد العرافين والحكماء وفي المجتمع الحضري نجد الفلاسفة والمختصين في المعرفة الإنسانية، وذهبت النظرية الماركسية إلى أن المتغيرات العامة في المجتمع تحتملها العلاقات بين الطبقات المتصارعة وليست أفكار وسياسة النخبة، وقد تمحورت تعريفات النخبة بين اجتماعي يستند إلى موقع الفرد في السلم الاجتماعي والربط بينه وبين الحقوق والمسؤوليات المترتبة على موقعه الاجتماعي وسلوكي يستند إلى قدرة الفرد في التأثير في أفعال وسلوكيات الآخرين.

والنخبة في السياق السوسيولوجي العربي المعاصر تدخل ضمن هذا الاعتبار فممارسة الأعيان في تاريخ الحضارة الإسلامية كان لها حضور متميز في تاريخ السلوك الاجتماعي سواء كان مادي أو رمزي وكذلك للنخبة التي عاشت ضمن سياق تاريخي، مع ظهور دعوة جادة ومستعجلة للخروج من ظلم الاستعمار الذي رافقه وضع اجتماعي متخلف، فالنخبة المثقفة الجديدة بنت أكثر ارتباطاً باهتمامات الجماهير ومشاكلهم ولحذت على عاقلها للتنظير لتأسيس المشروع الاجتماعي إضافة إلى مهام الفضال اليومي الذي تلازم به المثقف والسياسي في ذات الشخص، فمرحلة للفضال من أجل التحرر والاستقلال الوطني أبرزت أن الوظيفة الفكرية لا يمكن فصلها عن الوظيفة السياسية في الإشراف والتنظيم لأداء الحكومة فالمثقف يعتبر عاملاً من أجل تنمية بلاده وثقافته وهو الذي يمد (الحكام والجماهير) بالأفكار كما يلعب دور الوسيط فيما بينهم وبهذا احتل المثقف مساحة العمل السياسي منذ اللحظة التي بدأت فيها السياسة الوطنية في الوجود. إلا أن العلاقة بين الطرفين ليس سوى لحظة عابرة ولم تستمر طويلاً لأن طبيعة الرهانات النضالية مدعاة للاختلاف بين الخيارات الاستراتيجية والخيارات التكتيكية وبين ما هو نظري وما هو عملي مرتبط بالممارسات اليومية مما يخلق الفجوة بين الطرفين وتزيدها عمقا الخيارات الإيديولوجية وطبيعة مرجعيتها الحضارية

<sup>(١)</sup> كلية العلوم السياسية - الجامعة المستنصرية.

والفكرية وأصبحت العلاقة فيما بينهم علاقة تنافسية للحصول على أكبر هامش من المسالدة أو ان تقوم المؤسسة السياسية احتواء المتكف ليدافع عن خيارات لم يؤسس لها. فعلاقة للمتكف العربي بالموروث الاجتماعي (الماضي، اللغة، الثقافة) يعطي خطابيه وزنا ولمفعله صلابة وتكمن أزمته في تخييب الابدع التاريخي، فالمتكفون العرب انقسموا الى من ينادي على التقليدية ليعمق بذلك الابدع التاريخي لدولة الاستقلال أو من يندفع نحو الانتقائية والانفتاح على كل التيارات دون مراعاة لكل تجربة. فالسياسة الثقافية للدولة الوطنية التي تهيمن عليها البرجوازية الصغرى أنتجت نوعا من الاغتراب العربي لاعتقادها في الايدولوجيا التكنولوجية وهي برجوازية ذات مكانة ريادة رغم افتقارها الى السلطة حيث إنها تمثل الأغلبية العظمى من سكان الحضر. ولكن تكامل المجتمع يأتي بتكامل ثلاثة أطراف (رجل الدين - السياسي - ممثل ومنجز الأنشطة العلمية والثقافية) وهذه الأطراف مسؤولة عن تأخر المجتمع العربي، فرجل الدين متمسك بالتقاليد التي عفا عليها الزمن والسياسي المحتل لدور رجل الدين ويعتقد ان الإسلام صالح لكل زمان ومكان ويتمشى مع أي نظام ونصير التكنولوجيا يعتقد بإمكانية التوصل الى تحقيق التنمية عبر العمل والتصنيع، فالعامل السياسي لا يحتل الأولوية في تفسير التغيرات الحاصلة لانه سمة من سمات حقيقة أكثر تعقيدا وكل صنف من الأصناف السابقة بشكل من النخبة.

لقدت التجربة التونسية صدى لدى الباحثين المهمتين بها وبمسار تطورها من حيث نشأة النخب السياسية ودورها وأهمها دراسة من هـ مور الذي انطلق من مرتكز نظري ان الوعي الوطني يرتبط بالديناميكية المتغيرة للمجتمع وهي على ثلاثة مراحل مرت بها التجربة الفرنسية الأولى مرحلة التمثيل الليبرالي وهي الانفتاح على قيم الحضارة الغربية متمثلة بحركة (الشباب الفرنسي) لحداء بـ (شباب تركيا). والثانية مرحلة المناهضة التقليدية للوجود الاستعماري عبر الخيار الإصلاحى بالاعتماد على المبادئ الدستورية الليبرالية والثالثة مرحلة المناهضة الراديكالية للوجود الاستعماري من خلال إرساء معالم فعل نصالي داخل أوساط العامة عبر إشراك مختلف الفئات الاجتماعية وتمثلت بالحزب الدستوري.

إما عبد الباقي الهرماسي فقد صنف التوجهات الإيديولوجية للنخب في المجتمع، فكانت الأولى ذات توجه قومي ديني ويحمل لواءه (العالم) للمتكفي والمتعلم تقليديا والمتمسك بالمنطلقات الدينية التقليدية والمنحدر من بيئة حضارية والثاني توجه عصري ليبرالي ويحمل لواءه نموذج المتكف المتعلم في الجامعات الغربية عامة والفرنسية خاصة واستلهم إيديولوجيته من مبادئ الثورة الغربية والثالث توجه راديكالي انطلق من فكرة الإصلاح ابتداء من البنسى السفلية ويعتبر الفعل النصالي استجابة لتطلعات الجماهير الواسعة دون استثناء.

إما لـ سـ براون انطلق من أساس نظري يتمثل في تطور مسار الحداثة لهذه التجربة متمثلة بأربعة مراحل، الأولى مرحلة التكوين متمثلة بدعوة النخبة الى إرساء دعائم حداثة لم تكن مألوفة من قبل، والثانية مرحلة تقليد المستعمر لفرض إثبات كفاءة السكان الأصليين من السير على منوال المستعمر بممارسة فعل سياسي حديث وتبني إيدولوجية ونظرية لا تتعارض مع المقولات الإسلامية الأساسية حيث يرمي الى إثبات شرعية السكان الأصليين في المشاركة في الفعل السياسي في ظل السلطة الاستعمارية والثالثة مرحلة تأسيس الحزب

الجماهيري وهي المرحلة التي بموجبها وضحت هذه النخب للجماهير هويتها من خلال إقامة المصالحة الإيديولوجية مع الجماهير لاكتساب مزيداً من الشرعية للجماهيرية وإن كان ذلك على حساب سلمية العمل النضالي الذي اختارته والرابعة مرحلة نهاية الوضع الاستعماري وهو مرحلة رد فعل ضد الوجود الاستعماري من خلال التحالف بين النخب السياسية والجماهير ليتوجه العمل للنضالي بعد ذلك إلى معركة البناء، وقد عانت تونس من مشكلة برزت نتيجة خروجها من ريقة الاستعمار وهي النقص الحاد في الكوادر المنجزة للعملية التنموية التحديثية نتيجة جلاء عدد هائل من الموظفين للفرنسيين في الإدارة التونسية دون إيجاد بديل قادر على تغطية هذا النقص إضافة إلى سوء توزيع الكوادر المتوفرة آنذاك ما بين القطاع الإداري والمؤسسات الاقتصادية وهي مشكلة المجتمع بفئاته المختلفة الذي سعى لمواجهة الصعوبات بقيادة نخب تتحدر من مرجعيات مختلفة إلى حد التقاطع ومنها من تكون على مقاعد الدراسة الفرنسية وأخرى تكونت في المدرسة الصادقية حيث تتكامل فيها التكوين العربي مع الفرنسي المستوحى من مناهج الأوروبية وأخرى راхنت على التكوين الزيتوني (خريجي جامع الزيتون)، حيث حددت هذه النخب الخصائص البنوية والمؤسسية للمجتمع التونسي بعد الاستقلال، ولكن الملاحظ أن صنع القرار أصبح رهينة بما تصدره السلطة المركزية وتمليه بشكل واجب التنفيذ لضمان تشغيل منظومة الدولة اقتصادياً وسياسياً.

خلال المرحلة التعاضدية التي راхنت على تحديث المجتمع ابتداء من عصرنة الفلاحة فكان هناك نظام القرابة في حضور الاعتبارات التقليدية كونه عامل يؤثر على الأداء السياسي والاقتصادي للمتعضدين الذي هم أصلاً من الريف ولهم نظامهم القيمي إلا أنهم عجزوا عن فرض تغييرات مهمة للتخلص من هذا النظام خلال ممارستهم لعملية البناء، فالإتصال الأول الذي تم بين الريفيين المؤهلين لدخول نظام التعاقد وبين الكوادر المشرفة على العملية تتم بواسطة الشيخ (العمدة) باعتباره سلطة تنفيذية والذي اقترح بدوره الأعضاء الثلاثة داخل مجلس التعاضدية، فكانت للمجالس الأولى ممثلة من قبل التجمعات العائلية الكبرى (عائلة الشيخ) وممثلي العمال ذوي الكفاءات وأصبح توزيع المساكن داخل كل قرية يتم تبعاً للانتماءات العرقية نظراً لقرابهم من (الشيخ).

إن الفلاحين الريفيين لعبوا في هذه المنطقة دور الحركات القومية المجتمعيين على التمايز وإنهم يثوروا باسم الأمة وليس باسم القبيلة لتصبح فيما بعد حركات مطلبية، وكانت تبدأ قوية وتنتهي بالمصالحة بين الأعيان والسلطة المركزية ثم القضاء على جذورها، إما بواسطة الشباب في إحدى مراحل تطورها حملت رغبة في الانتماء إلى إيديولوجية محددة، فلم تستطع الماركسية أو إيديولوجية النخب الحاكمة ملئ هذا الفراغ بقدر الإيديولوجية الدينية التي جاءت معبئة لهذه الرغبة. فالخطاب الرسمي لو الماركسي لم يطرح نفسه بالجديسة اللازمة مسألة الهوية الثقافية والتميزات الاجتماعية مما أدى إلى بروز أزمة زعزت الخطاب التعاضدي الاشتراكي والخطاب الرسمي لثمر البلاد في أزمة تسيير أجهزة الدولة عام ١٩٧٠-١٩٧١ ثم رفع شعار الانفتاح.

عرف معجم علم الاجتماع الحراك الاجتماعي بأنه الإمكانية التي يمتلكها الأفراد أو الجماعات في منظومة اجتماعية من أجل تقييد المكانة التي يملكونها سواء كانت مهنية أو اقتصادية أو جغرافية.

فاليات الحراك والإشكال التي يتخذها ترتبط بمستويات الأول، أنماط السلوك الفردي من خلال تمثل الفرد لذاته وللآخرين والثاني أنماط التنظيم الاجتماعي فتمثله بعلاقات القرابة والمكانة الاجتماعية من خلال الانتماء إلى المجموعة التي ينتمي إليها الفرد والثالثة أنماط التنظيم السياسي فتمثله أساساً في التمسيدات السياسية وينطلق من مساهمة الفرد في الحياة المهنية ومساهمته في تراكم الثروات الاقتصادية أو بالنظر إلى الأصل الاثني أو القومي أو الانتماء إلى مجموعات دينية أو اكتساب خبرة ثقافية.

إن حصول الثورات الاجتماعية في المجتمع يرجع إلى انخفاض حصول حراك اجتماعي فيه لعدم قناعة الفرد أو المجموعة بالمكانة التي يحتلها ويسعى إلى تحديد موقفه انطلاقاً من داخل البنية نفسها بمثابة سبيل لتغيير مكانته. ومن هذا اختارت حكومة البلاء الوطني التعليم للخروج من وضع التخلف وبذلك خصصت اعتمادات فاقت بمجموعها ما خصصته دول أخرى آنذاك في هذا المجال واحتل رهان التعليم بعد الاستقلال موقع الصدارة وتم ربط تخطيط التعليم مع التخطيط الاقتصادي والاجتماعي بغية إعداد أفراد قادرين على المساهمة إيجابياً في جهود الإنتاج إلا أن هذا الربط كان رطباً عقيماً حيث كلف الدولة جهداً لا تتحمله وتم تعديل ذلك بعد التوصل إلى مفهوم أن مشكلة التشغيل لا يكمن حلها بين ثابتي نظام التربية والتعليم. فربط العملية التعليمية بالحراك الاجتماعي تبقى نسبية لأن الظاهرة الاجتماعية تأتي الربط الآلي بين نسبة الحراك الاجتماعي وبين التوسع في قاعدة المتعلمين والتي قد تؤدي إلى اهتزاز شرعية السلطة للقائمة.

في المؤسسة العلمية يعتبر العلماء العاملون هم المكون الأساسي بالمجتمع باعتبارهم النخبة التي تمثل أهل العلم وأهل الدولة مقابل العامة التي تمثل جميع المؤمنين، ولكن قرارات رجل العالم كانت تتخذ تحت جلباب السياسة فالمؤسسة الزبونية كانت توفر الوسائل الأساسية فقط لعالم المستقبل لممارسة مهنة (العدل-التدريب-القضاء) ومضامين أخرى لتكوين عالم المستقبل القابل للاحتواء ورغم الإصلاحات التي جرت على المؤسسة الزبونية لم تخرج من محاولات الاجتواء السياسي وكان لإنشاء المدرسة الحربية بباردو عام ١٨٤٠ التي كانت الأداة المنتجة لنخبة مغايرة لحزبي جامع الزيتون وجامعة المدرسة الصادقية ضمن الهدف نفسه وهو تخريج موظف الدولة المنفذ لاختياراتها وكانت سمة طلبة هذه المدارس أنهم من أبناء العائلات الكبرى فقط لغاية الحرب العالمية الأولى حيث توسع القبول بعد ذلك ليشمل باقي شرائح المجتمع ورغم ذلك استأثرت منطقة الساحل بلصوب الأسد من الخريجين. فالصعود الاجتماعي كان في صالح البرجوازية الساحلية الصغرى والذين كان يسمح لهم بمواصلة التعليم في أوروبا على التعليم الزيتوني ذو الطابع الشرعي والذي تعادل شهادته التعليم الثانوي. وجرى الإصلاح التعليمي للمدرسة الزيتونية عام ١٩٣٣ بالتدابير المدرسين استناداً إلى معيار الكفاءة من دون النسب (لكون العائلات الحضرية العريقة نجحت في الحفاظ على حظوظها العلمية والاجتماعية داخل هذا المحفل العلمي) مما أدى بهذه العائلات إلى معارضة



الإصلاح، ورغم الإصلاحات المتكررة لهذه المؤسسة للفترة من ١٨٧٠-١٩٣٣ إلا إنها لم تمس جوهر المشكلة الزيتونية بل ظلت في تراجع مستمر مقابل تصاعد متزايد للمدارس العصرية في الإقبال من قبل الإدارة على خريجها نظراً لتكوينهم العلمي العصري المزيج اللغة. وبرزت مطالبات وطنية عديدة من أجل التعلم وإنشاء مؤسسة جامعية وطنية.

تألف المؤسسة السياسية من الهياكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتحقق شرعيتها من خلال الممارسين للفعل السياسي المؤمنين بمبادئها وأهدافها والمدافعين عنها وهؤلاء لا يمكن ان تنتجهم إلا المؤسسة التعليمية، واختلف العلماء من حيث علاقتهم بالسلطة السياسية الى ثلاثة أنماط الأول داعم لسلطة (الباي) ومرتبطة بها وظيفياً والثاني داعم له وفاضح لسياسة العمال والذات معارض لا يتوانى عن فتح مظالم الفساد والا شرعية ولكون الباي يمثل سلطة دينوية وليس حجر الزاوية للنظام السياسي الإسلامي، فالتحالفات قائمة بين العالم والسياسي لإجماعهم على الإصلاح السياسي عبر هاتين المؤسسات العلمية والسياسية لتأسيس مجتمع يفتح على المنجزات السياسية والفكرية للجناب الغربي، فانقوسه لم تكن وليدة النخب الوطنية التي بنت الدولة الوطنية بتونس ونشأت ما يسمى بالثورية بنقوش نخب جديدة ذات فكر ليبرالي راديكالي وولدت حركة الشباب التونسي المهتم بالسياسة والتسويق مع الجماهير لتحقيق التحرر الوطني وخاصة بتشكيل الحزب الدستوري عام ١٩٣٤ على نقاض الحزب القديم وأصبح يمثل اكبر شرائح المجتمع أيدولوجياً وجغرافياً ومطابقاً (العاصمة وخارجها- الريف والحضر برجوازية صغرى وكبرى- أبناء فلاحين مسخار أو صناعيين- أبناء عاطلين عن العمل) وتمحورت هذه النخب الى توجه قومي يركز على إعادة تأكيد الهوية الثقافية والدينية والوطنية والثاني التيار الليبرالي المتأثر بنموذج الثورات البرجوازية ومتمسكين بالدستور والثالث التيار الراديكالي المنادي بالثعبنة الشعبية. ولم تخلو مسيرة التعامل الوطني من خلافات دقيقة قد تتعجر في أي لحظة تعود الى ارتباط تونس بالكون العربي الإسلامي، فتاريخ تونس لدى بورقيبة ليس فقط تاريخ العرب والمسلمين بل قبل ذلك كان الرومان والفرطاجيين والمسيحيين وإما عند الآخرين فهو في الأساس عربي إسلامي، فالتوجه الأول مثل في أول مجلس نيابي ٥٥ نائب والثاني ٥٣ نائب مما جعل بورقيبة يسعى لاحتواء المجلس من خلال دعوته لإنجاز الدستور ورفضه لدعوة التقاليديين وتقسيم الهوية الثقافية للدولة الجديدة على التحديد القانوني لها لأن العروبة والإسلام لم يسمي انصاء ثقافي ديني وليس سياسي وجاء تصويت المجلس لهذا المقترح لثباته القوى المحافظة فيه.

احتكر الوجهاء الحقل المعرفي لتحقيق قيمة رمزية مضاعفة أهم لما يتمتعون من حرية الفعل ورغم ان الوظائف كانت مقسمة بين الأتراك في المجال العسكري والمالي في المجال السياسي والمكان الأصليين في المجال العلمي وساعد انتقال السلطة من يدي البايات الى يدي المستعمر هذه العائلات في التكييف على الواقع الجديد رغم تعرضها الى اهتزازات من خلال صعود بعض الفئات المتمثلة بالتجار والإداريين للهند واليهود وبقسم ضيق من البرجوازية التجارية التونسية وبعض ملاك العقارات، وتعرضت الحضارة العربية التي كانت تسيطر على الحياة للممتلكات ببرزت البروليتاريا التي لم تكن مألوفة من قبل وانقسم الى جناح ثوري الى جناح فئات الأولى رجال المخزن وهم كبار موظفي المستعمر، والآخر منهم جزء سابق في خدمة

اليات وإدارة ممتلكاتهم والثانية المتقنون الذين اختاروا المهن الليبرالية وينحدرون إلى البرجوازية ورفعوا شعارات مجتمع عصري والثالثة كبار الملاك فتقاسموا مع الفرنسيين عوائد سوق فرنسية محمية ورجال الأعمال أنشؤا شركات صناعية وتعاونيات ودخلوا في ميدان التجارة وإن كان حظ بعض الأفراد بالنجاح فإن المشاريع الجماعية منيت بالفشل إما طبقة التجار فقد اندمجت داخل الدورة العصرية بصفة موظفين صغار، فالسلطة الاستعمارية أعلنت توزيع المراتبية المألوفة داخل المجتمع في مكافأة هذه العائلات أو تعاقبها بالإقصاء أو الاحتواء قياساً لمدى الولاء، إما مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى تجسست سيطرة العائلات البرجوازية واستمرت باحتكارها المناصب العليا وفي المرحلة الثانية شهدت منافسة البرجوازية الصغرى لها وحتى بعض الأفراد من عادة الشعب.

أما نخب ما بعد الاستقلال (بعد ١٩٥٦) تميزت بضيائية المناهج وعمومية الشعارات التي جاءت بشكل عاطفي نتيجة الفرح بالاستقلال، وكان مبدأ الوحدة هو السائد، فالأحادية تحكم كافة المجالات الثقافية السياسية الدينية الاجتماعية عبر محاولة لخلق وعي موحد وبناء شخصية وطنية موحدة تعمل بالأنوار والمناهج ذاتها وترمي إلى الأهداف نفسها حيث حصل الاندماج التام بين الحكومة والحزب بناء لرغبة الرئيس بورقيبة في ممارسة الرقابة على كل شيء لما توفره من احتواء للنخب وتميئتها لخدمة مشروعه والتعاضدية اتخذت وسيلة لممارسة الرقابة على الجماهير الريفية البعيدة عن رقابته، وعهد الحزب إلى توفير الفرص لغير ذوي المستوى العلمي للاتحاق بصفوفه وخاصة بالمدين (خارج العاصمة) وتلقين الجماهير مبادئ البورقيبة وتم تشكيل المنظمات والجمعيات لنفس الغرض ومنها (حماية الأطفال والشبان) (الاتحاد العام لطلبة تونس) وبهذا سمح للحزب بأن يمارس رقابة سياسية وثقافية في مختلف فئات المجتمع.

إما علاقة مجلس النواب بالحزب فإنها كانت تقوم على الانسجام التام من خلال تشكيل المجلس فجميع النواب يتم انتخابهم عبر قائمة موحدة معدة من قبل الحزب وبناء عليه فإنه لا يوجد أي نائب إلى نهاية الثمانينات ينتمي إلى حزب معارض..

بتعارض جميع السلطات لدى الرئيس مع القدرات البشرية للفرد مهما تكن واسعة وبناء على ذلك وزع الرئيس السلطات والمسؤوليات في إطار التكامل بين الأدوار لتجنب الوقوع في الخطأ ولم يتردد الرئيس في تهميش المؤسسات المنافسة وغدا شخصه مصدراً للشرعية على أن تكون القاعدة الجماهيرية مصدراً لشرعيته وكان إسناد المسؤوليات يعتمد على رأيه لشخصي وثقته في المكلف وليس مدى الكفاءة أو القدرة المهنية وكان مالك السلطة ويتصرف فيها من منطلق الوصاية فهذا الأسلوب لم يكن دستورياً لأن الدستور يكلف الرئيس مباشرة بإدارة جميع المهام وما أزمه عام ١٩٦٩ إلا وتقع مسؤوليتها عليه لأن هو من عين رئيس الوزراء وسأده في خلافة ضد معارضيه داخل الحزب، وجاء دستور ١٩٧٦ المخرج القانوني لاسترداد الزعيم لشرعية التي تعرضت للاهتزاز والذي جاء استجابة لهذه الرغبة والذي نص على إمكانية للرئيسي بممارسة الحكم الفعلي بواسطة حكومة تتحمل وحدها المسؤولية في حالة حصول الأخطاء، وبهذا صنع الدستور (على مقاسه) فبإمكان التلخص من

بعض الأدوار دون ان يخسر الرقابة على الدولة بفضل حكومة خاصة به ليس حكومة الأغلبية أو حكومة برلمانية.

ظهرت العديد من الأصوات من داخل وخارج الحزب الحاكم ثنائي بالانفتاح السياسي ودمقرطة الحياة السياسية داخل وخارج الحزب إلا ان هذا الخلف الجوهري حسمه بوقية باتجاه الانفتاح الاقتصادي فقط والأصوات الانفتاحية داخل الحزب كان مصيرها الإقصاء وتمثلت الأصوات خارج الحزب بالاتحاد العام التونسي للشغل ومجموعة المنقسين الداعين لمشروع الرابطة التونسية للدفاع عن حقوق الإنسان ولكن هذه الدعوات بقيت على مستوى الخطاب وأكد المؤتمر التاسع للحزب عام ١٩٧٤ على ان الحزب الحاكم هو الجامع للجماهير للمثلة للقاعدة وتأكيد على الاحتواء الذي يمارسه على هياكل المجتمع المدني.

ان الانفتاح الاقتصادي تسبب في زيادة سكان المدن بسبب نمو ظاهرة الزوج من الريف الى المدنية وأدى الى تجدد المجتمع وتنوعه وبروز مثقفين ذوو آراء نقدية أرادوا التطوير وكذلك أصدر الليبراليون المنشقون عن الحزب الدستوري بياناً عام ١٩٧٦ انتقدوا فيه سياسة الحزب الحاكم وطالبوا بالسماح للمعارضة السياسية لممارسة حقها في التنظيم والتعبير إلا ان لغة الحوار وصلت الى طريق مسدود فكان الشارع الفضل وسيلة للتعبير فكانت إحداهن الخميس الأسود عام ١٩٧٨ تلتها إحداهن قفصة عام ١٩٨٠ زادت عفاً لتكشف عن أزمة خفية لا يمكن احتوائها، ولجأت الحكومة الى تجديد شرعيتها من خلال عدة تحولات أهمها السماح للاتحاد العام التونسي للشغل بعقد مؤتمره والذي سمي (المؤتمر الخارق) والاعتراف باستقلالية المركزية الثقافية والاعتراف بالتنوع الحزبي ورفع الحظر عن الحزب الشيوعي التونسي وتنظيم انتخابات تشريعية سابقة لأوانها بمشاركة القوائم المنافسة لقوائم الحزب الدستوري في انتخابات حرة ونزيهة محاولة من الحكومة لامتصاص نغمة الشارع وكان مبدأ التعددية الحزبية مقروناً بالاعتراف بشرعية دستور البلاد ونبتذ العنف وعدم الولاء لأية جهة أجنبية ثم أضيف شرطاً آخر هو الاعتراف بشرعية بوقية.

ان احتكار الممارسة السياسية من قبل الحزب الحاكم أدى الى عدم تأسيس المجتمع المدني ومنع من قيام مؤسسات مؤهلة لاحتواء الممارسة السياسية وأدى الى غياب الممارسة التنافسية النزيهة التي انعكست على باقي هياكل المجتمع فأفراد الحزب يتم تصديرهم الى الدولة لإشغال مواقع الصدارة إما باقي المناصب فتوكل الى الخبراء أو للنخب الفنية.

في الجانب الاقتصادي وخلال المرحلة التي تلت الاستقلال تميزت بالتردد وحملت أعباء مخلفات المرحلة الاستعمارية إضافة الى تراجع نسبة النمو الاقتصادي بالرغم من اتخاذ الحكومة لإجراءات عديدة منها الاستثمارات الخاصة وتأسيس شركات كبرى للتصدير والتوريد مع محاولات لتطوير الريف إلا إنها لم تنجح في معالجة الوضع الاقتصادي وفي مرحلة الستينات وضع برنامج طموح إلا انه واجه أيضاً صعوبات متنوعة فإضافة الى صعوبة التمويل برزت صعوبة تطوير الأماليب المعتمدة في التنفيذ فالسياسة الاقتصادية عجزت حتى عن جذب المستثمرين وكانت هذه السياسة عرضة لانتقاد شرائح متنوعة من المجتمع وفي فترة السبعينات شهد الاقتصاد لنتعاشة ملموسة لارتفاع أسعار النفط وصدور قانون ١٩٧٢ الذي يعطي امتيازات للصناعات المعدة للتصدير ويساعد على استقطاب

الرساميل الأجنبية وكانت هذه مرحلة الانفتاح الاقتصادي، إما للنصف الثاني من السبعينيات شهدت نقصاً في نسبة النمو وكذلك في مستوى الاستثمارات والإنتاج.

ان التجربة التونسية قامت على هاجس التحديث الذي يتخذ في مبادئ الليبرالية أساساً للبناء الوطني تحت شعارات (الحرية-العدل-المساواة-المشاركة-التعددية) ولكن الدولة سعت الى ممارسة الرقابة على مختلف المؤسسات باسم الحدثة تحت سلطة سياسية أو إدارية محتكرة من قبل حزب واحد منذ الاستقلال، إضافة الى نهج الانفتاح الاقتصادي الذي اعتمد في السبعينيات افرز نمواً للفوارق الاجتماعية وتدهور للطاقة الشرائية لضعفاء ومتوسطي الحال مقابل بروز نمط يعيش بذخ خاص وحياة مترفة هذا ما عجل في تنامي الأزمة الاقتصادية التي اتخذت شكل اضطرابات عمالية ثم طلابية زلها عمقا غياب الحوار الفعلي، ووجد الاتحاد العام التونسي للشغل نفسه في الواجهة فكان الاضراب تعبيراً عن هذه التطلعات، وهذه المحاولات جعلت السلطة تسعى الى احتواء وتستر ضربه وإعطائه حجمه الحقيقي في محاولة للهيمنة عليه.

عرفت الممارسات الانتخابية في تونس بعد الاستقلال خلال الأعوام ١٩٥٩-١٩٦٤-١٩٦٩-١٩٧٤-١٩٧٩ إلا ان القاسم المشترك فيما بينهم هو ان مرشحي الحزب الاشتراكي الدستوري لم يواجهوا أي منافسين في ظل الأحادية الحزبية، فالدستوريون فهموا الانفتاح على ان لفتاح الحزب على التشكيلات الأخرى سعياً لاستيعابها داخله والعمل معه جنباً الى جنب خدمة للمشروع الوطني إما مخالفوه فقد فهموه على ان افتاح النظام السياسي على كل التيارات عن طريق التعددية السياسية.

ان المنافسة داخل المجالس النيابية كانت تتم على أساس الانتماءات الاجتماعية والاحداثيات الجغرافية نظراً لدور كل منطقة في الحركة الوطنية فالمناطق التي مثلت مرتعاً لأنشطة الحزب الدستوري مثل الساحل التونسي بقي الحصن المنيع الذي يلجأ إليه الحزب ويتم اختيار أعضائه الحزب والحكومة من هذه المنطقة ولا شكلوا نسبة ٢١% من النواب في المجلس التأسيسي في حين ان عدد سكان المنطقة لا يتجاوز آنذاك ١٢%، إضافة الى ان علاقة الحزب بباقي هياكل الدولة تدعمت لذلك فمن المنطقي ان يتم اختيار النواب بناء على انتمائهم الحزبي في قوائم موحدة بعدها الحزب خالياً من نائب ينتمي الى المعارضة كما ان أعضاء الحكومة يكونون في معظمهم برلمانيين عامة ما ينتمون الى الحزب، ومنطقياً تأتي مساندة النواب للحزب نظراً للأرضية المشتركة فيما بينهم فالحكومة تحظى بدعم النواب ومن واجب النواب الاستجابة والخضوع لحكومتهم وبالتالي حزبهم في توجهاته واختياراته وتسم العمل بموجب هذه المبادئ لغاية أزمة ١٩٧٨ ورفع شعار التعددية السياسية والانفتاح السياسي.

تبدأ الحملات الانتخابية بالتأكيد على ان لاتخاب ممثلي الحزب للبرلمان هو انتخاب بورقبة فالأحادية (زعيم واحد-حزب واحد-شعب واحد) هي الشعار الذي حكم جل البيانات الانتخابية كما ان بورقبة لم يفت فرصه للتخلص من منافسيه الفعليين على سلطته، فتتحول العملية الانتخابية الى وسيلة لإثبات تناغم الرؤى بين الحزب والشعب، وخلال الجلسات

العلبية لمجلس النواب فالتفاهم عند الموقف ونقاط الاختلاف تكاد تكون معدومة بما لا يفسد العلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية.

ان أول انتخابات سابقة لأوانها تمت عام ١٩٨١ في عهد شعاره الانفتاح السياسي والإصلاح لذلك علق الشعب عليها امالا عريضة إلا إنها لم تسلم من التزوير والأمر نفسه تكرر في انتخابات عام ١٩٨٦ إذ طغى عليها لون واحد هو لون السلطة الحاكمة، ان هيمنة الحزب عمقت الشعور بخيبة الأمل لدى الشارع التونسي الذي كان ينتظر الشرارة القابضة ليجدها في رفع الدعم عن مشتقات الحبوب وكانت تظاهرات تلقائية لموضوعة عنيفة تخفي وراءها رغبة في الاقتصاد من الملطة وتعالج مثل هذه الحالات من قبل السلطة بترسيخ حالة التبعية والنهميش باعتمادها الحل الأولي بالاستجداد بانقوة العسكرية وإعلان حالة الطوارئ للوصول الى هدوء مفروض لتمر بعد ذلك الى تصفية الحسابات داخل السلطة أو خارجها بحثا عن (كبش فداء) إما عمق المشكلة الحقيقي فيترك جانبا.

اسند الدستور التونسي لرئيس الجمهورية صلاحيات عديدة منها اختيار أعضاء حكومته وإشرافه على القوانين وله ان يساهم بالوظيفة التشريعية واتخاذ قرارات وقوانين سواء بموافقة مجلس النواب أو خلال العطلة البرلمانية مع موافقة اللجنة البرلمانية التي يعيها المجلس ويحتفظ بسلطة أكثر أهمية خلال الظروف الاستثنائية. وفي عام ١٩٦٩ صدر قرار بتسمية وزير أول تتحصر مهمته بالإشراف على الحكومة مع اقتراح أعضاء الحكومة على الرئيس الذي له القرار النهائي، وهذا المنصب جاء استجابة لرغبة رئيس الجمهورية وجاء دستور ١٩٧٦ ليؤسس لهذا الاختيار في المادة الأولى الفصل (٥٠) كما ان النظام الرئاسي التونسي نظام برلماني لكن البرلمان لا يراقب الحكومة بل يراقب اختياراتها السياسية ولا يراقب الرئيس الذي يختار السياسة مستعينا بالحزب لا بالحكومة، فعلى الرغم من ان النظام السياسي هو نظام جمهوري فان القرارات هي قرارات شخصية للرئيس رغم توفر الهيئات المؤهلة قانونياً لصنع القرار ومن خلال الممارسة يلاحظ تعطيل دور الحزب ومجلس النواب والقطاعات في صنع القرار إضافة الى حالة ان من التجانس واللفة بين الحكومة ومجلس النواب، بحيث ان النائب الذي يخرج عن الخط المرسوم من قبل الحزب يفقد ثقة الحزب فيه وبالتالي نزع الثقة منه في مجلس النواب إضافة الى مجلس الوزراء يجتمع ليس على انه هيئة فائمة بذاتها بل هيكل تديره مجموعة من الوزراء المتقنين ومجموعة من الوزراء أو حتى مع وزير معين، فالقرار ناتج عن إرادة شخصية للرئيس ومن هذا فان آرائه هي المرجع وقراراته هي الاصول، إضافة الى الرقابة المطلقة الذي يمارسها الرئيس على كافة الأنشطة التنفيذية والتشريعية والقضائية وتطول ايضا أعضاء حزبه، وله احتكارية بممارسة الفعل السياسي. واختيار الوزراء يتم عبر شبكات غير رسمية أي بالاختيار الشخصي، ويتم توزيع ميزانية الوزارات تبعا لطبيعة علاقة الرئيس بالوزراء.

والنظر في الأنظمة السياسية القريبة مثل (الفرنسي والأمريكي) يلاحظ ان علاقات المنفعة المتبادلة تركز على عملية التعبير عن المصالح التي تمارسها جماعات تقع خسار جائرة التنظيم الرسمي وتجعلها مائدة للخبذة السياسية إما في أنظمة العالم الثالث ولا توجد مثل هذه الرعاية أو المساندة بل ان المساندة تأتي من داخل النخبة وتأثيرها من خلال قيامها

بتجديد أعضاء جند من النخبة داخل المجموعة نفسها وهذه النخب لا تتغير رغم تغير التوجهات السياسية والاقتصادية وتغيير الحكومات والسياسيات، كما ان طبيعة النظام الشخصي للحكم لا يسمح بقيام جماعات ضغط خارج الهيكل الرسمي.

لقد تميزت للنخب الوطنية برغبة تحديثية في التعديل على المؤسسات العائلية، فالعائلة هي الوحدة الاجتماعية التي يتجاوز دورها دخل البناء الاجتماعي الاضطلاع بالوظيفة البيولوجية بل إنها الآلية المحركة للبناء الاجتماعي وهذه الحقيقة نبهت بناء الدولة الوطنية الى ان من يمتلك العائلة يمتلك السلطة، فالقانون والتشريع ما هو إلا إفراز لسلوكيات الأفراد والمجموعات بعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ورغم التحديث الذي وقع للعائلة فإنها عجزت عن التخلص نهائياً من جذور النمط السابق فبقيت معلقة بين هذا أو ذاك فالملاحظ ان رئيس كل مؤسسة يقرب الأوفياء له فتنشأ دائرة من المقربين له ليس لكفاعتهم بل لوفائهم مثل الأب التقليدي الذي يقرب اليه من أبناءه الوفي المطيع وكذلك العلاقات الشخصية بين الرئيس ومن حوله فإنها علاقات تبعية شخصية إذ يمثل لهم الرئيس مرشداً أو أباً، إضافة الى اعتماد القنوات اللا مؤسسية باعتبار الأولوية وليس الكفاءة بما يدفع كل مسؤول الى محاولة كسب رضى ولي نعمته الذي يقدمه على أي واجب.









Ministry of Higher education  
And Scientific Research  
Al-Mustansiriyah University College of political Sciences

*The International and Political Journal*



No.5

2006